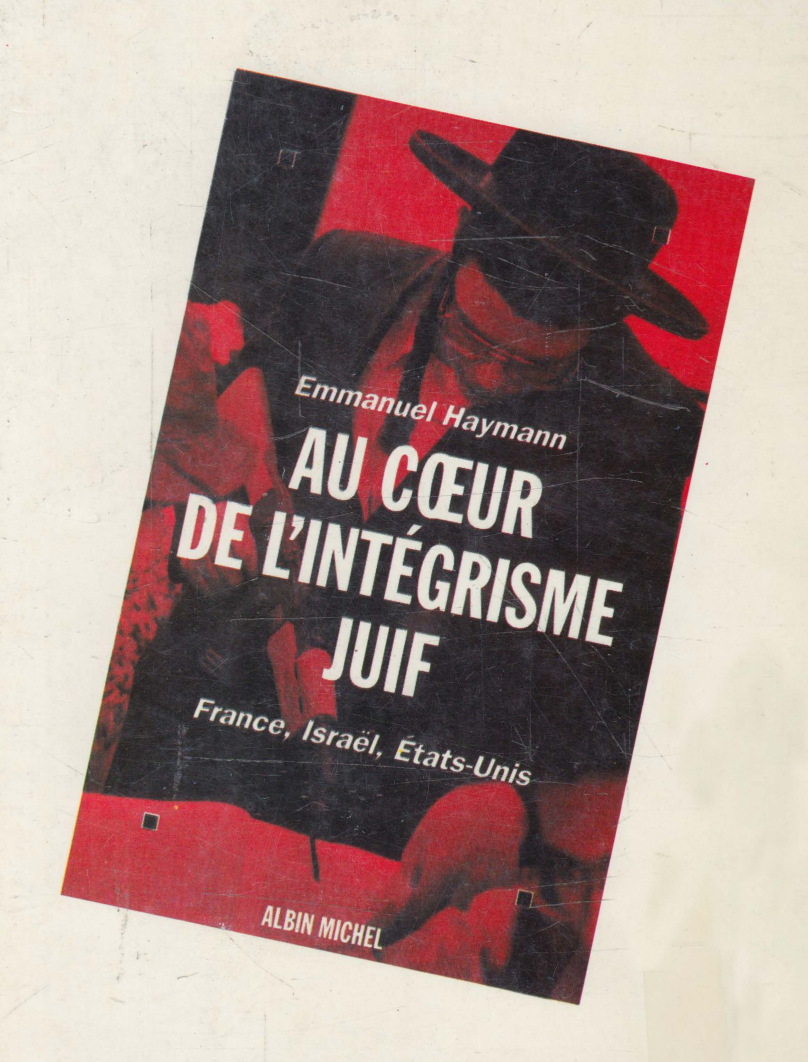
وزارة الإعلام

الهيئة العامة للإستعلامات

كتب مترجمة (٨٣٧)



فى عقر ديار التطرف اليهودى

فى فرنسا واسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية

تأليف : عمانويل هيمان

وزارة الإعلام

الهيئة العامة للإستعلامات

كتب مترجمة (٨٣٧)

فى عقر ديار التطرف اليهودى
فى فرنسا واسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية

تأليف : عمانويل هيمان

ترجمة : سميرة دميان

فوزية ضرار

مراجعة فنية : إحسان مصطفى الزيات

إشراف : بهى الدين تغيان

نبذة عن المؤلف

ايمانويل هيمان صحفى ومؤرخ يهودى فرنسى. تخصص فى الكتابة عن يهود الشتات فى دول المهجر الأوروبية وعبر الأطنطى وعن الروح السائدة نحوهم ومن مؤلفاته:

ـــ دليل سياحي يهودى فى باريس، ١٩٧٩ .

ـــ معسكر فى اقاصى العالم فى عام ١٩٤٢ للأطفال اليهود على حدود سويسرا، ١٩٨٤ .

ديبـاچة

أوجه التوحيد

«عشق الموت عندنا يضاهى عشق اليهود للحياة»

ان هذا الشعار الذى أطلقـه فى غزة أحد زعماء حركـة حماس لتحفيـز صبيانه الإرهابيين وتحمـيسهم على الإقدام على الأعـمال الإنتحارية يوضح تمامـا عمق الهوة التى تباعد التطرف الإسلامى عن التطرف اليهودى. اذ أن فكرة الإنجذاب الى الفناء لم يرد ذكرها على الإطلاق فى كتب التراث اليهودى التى تحث الفرد دائما ـ على العكس ـ على اختـيار السيـر فى طريق الحيـاة. فهذه الوصـية السمـاوية المشمـولة فى جوهر الرسالة التى تحملها التوراة تدوى بعـزم فى قلب كل مؤمن حيث يقول الرب فى آيات العهد القـديم قد جعلت قدامك الحياة والموت البـركة واللعنة. فاختر الحيـاة لكى تحيا أنت ونسلك

الشاهد: سفرتثنية ٣٠: ١٩ .

بيد أن هذا العشق الطاغى للحـياة لاينجى صاحبه من الوقـوع فى براثن التشدد والانغلاق الفكرى وهـما الشقـان المغذيان للتطرف. وفى هذا الصـدد نُذَكِّر بأن أعنف المحرضين على إثارة الفتن والقلاقل هم من اليهود المتدينين الذين يستغلون الدين ذريعة لينفثـوا حقدهم من خلف أسوار المسـتوطنات الحصـينة المشيدة على هضاب اليـهودية والسامرة (اليهـودية هو الإسم القديم لمدينة يهودا الحالية) أو من مـعاقلهم الموجودة فى نيويورك.

إفتتاحية

إن روح الدعاية لا تفتر أبدا عند اليهود حتى عندما يتطرقون فى أحاديثهم عن الله سبحانه وتعالى. وتشهد على ذلك النادرة الطريفة التى رواها لى، ذات ليلة فى القدس، مناحم ، الطالب فى إحد المدارس التلمودية (الدينية)، على شكل حدوتة رمزية على النحو الآتى:

«تدهورت العلاقات مرة أخرى بين الله وشعبه. حيث استاء اليهود وطفح بهم الكيل من كثرة النواميس والوصايا والمحظورات المنهالة على رءوسهم، ومن علياء سمواته شعر إله اسرائيل بالغضب من كثرة شكاوى شعبه المختار. ومع تزايد النقمة واشتعال الغضب صاح اليهود فى ربهم قائلين: «اختر لنفسك شعبا آخر » فرد عليهم العظيم الأبدى قائلا «موافق بشرط أن تعيدوا لى توراتى. . »

«وبسرعة توافد أبناء شعب الله المختار من كل أنحاء العالم وتوجهوا صوب جبل سيناء حاملين معهم مطويات الشريعة ومجلدات التلمود وكتب شعائر الصلاة والمراسيم الحاخامية والتفاسير وتفاسير التفاسير. . وكدسوا جملة هذه الأعمال فى شكل كومة لانهائية من الطلاسم المدونة بكل لغات العالم، عندئذ انشقت أبواب السماء وسمع صوت الرب وهو يقول باعياء وذهول: «لكنى لم أعطكم أبدا كل هذا ». (المؤلف)

وبإسم التوراة أيضا سيق أن انعزل الأرثوذكس اليهود المتطرفون الذين كانوا يلبسون على طريقة البورجوازيين البولنديين فى القرن الثامن عشر، خلف أسوار معاهدهم الدينية (التلمودية) ليحموا أنفسهم من مؤثرات العالم الخارجى الفاسدة الزاحفة عليهم فى عقر أحياء سكناهم التى حوّلوها بمحض ارادتهم إلى جيتو مغلق عليهم.

وأيا كانت مسمياتهم، آرثوذكس، أصوليين أو أنصارا لمبادىء الدين القديم هل يعتبر هؤلاء القوم المفعمون بالإيمان هم سليلى حفظة السُّنة اليهودية الأتقياء أم مجرد عناصر طائفية منشقة؟ ففى القرنين الماضيين دأبت المجتمعات المتنورة أن تعتبر اليهودى المتحرر الرمز المثالى المطلق للشخصية اليهودية. والنموذج الذى كان يتعين على الشخص اليهودى المستقيم سياسيا وعقائديا أن يطمح فى الإرتقاء اليه كان نموذج الشخصية المندمجة فى الأمة التى تشارك قلبا وقالبا أى تأثير وتأثر فى حضارة البيئة المحيطة. وبفضل مناخ السماحة الذى أوجده عصر العلم والتنوير بدأ الفرد اليهودى المنغلق على نفسه نتيجة لنشأته فى الجيتو، يتأقلم مع الأيديولوجيات الحديثة ساعيا الى التحرر من قيود ماضيه لتحسين ظروفه الوضعية ومن هذا المنطلق أصبح ماركس، وفرويد أو آينشتاين بدون قصد حملة راية هذا التيار وبشكل أعم بدأت الشخصية اليهودية تقرن نفسها بالحركات العالمية الواسعة المنادية بنشر الحرية والعدل بين الناس.

وعلى النقيض من ذلك نجد صورة اليهودى المؤمن الذى يعلق نظره على قبلة القدس ويتمسك بطقوس دينه وقواعد لغته والذى يعيد للأذهان ملامح الصورة النمطية الشائعة عن اليهود التى طالما روجها أعداء السامية بقصد إجحافهم وإبراز سلبيتهم وإنتمائهم الأزلى لعصور الماضى الغابر. فكان اليهود يرون أنفسهم بعيون الآخرين هؤلاء الأغيار الذين يصورونهم برسوم نمطية تبرز أنهم من أهل الكهف. ويكفى أن نتذكر على سبيل المثال الأساليب المزرية التى كان يستخدمها الكاتب المحبوب «الفونس دوديه» فى وصف المارة المترجلين، ذوى القفاطين واللحى الطويلة الذين كان يصادفهم فى شارع «دى روزييه».

وعندما تحرر الفرد اليهودى اختلف مظهره كلية عن تلك الصور النمطية المغرضة حيث استغنى ـ بطبيعة الحال ـ عن زيه المميز ليتنعم بارتداء بدلة الغرب . ويصدد هذا أعرب واحد منهم، هو برنار لازار ـ وهو بالمناسبة، من أوائل المدافعين عن الكابتن دريفوس لحظة تفجير فضيحة خيانته ـ عن ارتياحه فى سنة ١٨٩٤ لاختفاء ما أسماه بالروح التلمودية وذلك بغرض التصدى لمعاداة السامية ومعارضة ادوارد رومون فور نشره كتاب «فرنسا اليهودية» حيث أعرب يقول: «إن المدارس التلمودية الباقية بدأت تغلق أبوابها الواحدة تلو الأخرى فى بلدان الغرب الأوروبى بحيث لم يعد اليهودى المعاصر يستطيع حتى قراءة اللغة العبرية. والمعبد نفسه لم يعد يقيم سوى شعائر العبادة التقليدية وذلك بعد انقطاع صلاته بالحاخامات . وحتى هذا المظهر البسيط من العبادة أخذ يزداد فتورا بالتدريج لدى اليهود المتحضر، حيث إن كل من تحرر من اليهود أصبح يميل للعقلانية ولم تعد التلمودية فقط هى التى فى سبيلها للاندثار بل العقيدة اليهودية نفسها هى التى تحتضر.

***

إن الأكثر ورعا من أبناء شعب إسرائيل استمروا فى شرح وتفسير نصوص الكتاب المقدس فى مدارسهم ومعابدهم ضاربين عرض الحائط بالضجة الصاعدة من المدينة. وبعيدا عن حضارة العصر الحديث، وفى عزلة داخل معاقلهم المعدودة العجيبة واصل هؤلاء الأبناء السير على الصراط المستقيم الذى آثروا اختياره عن قناعة بأنهم يكفلون بهذا السلوك استمرارية وجود شعب الله المختار للأبد. ثم حدث أن انقلبت دوائر الزمن وانهارت المفاهيم الغربية وضاعت الآمال العريضة التى بَشَّرَ بها الفلاسفة الإنسانية، عندئذ انتعشت الأرثوذكسية اليهودية من غياهب موتها المزعوم. . .

ان هذه الدراسة هى نتاج ملاحظة مزدوجة.

أولا: أن هؤلاء القوم من الأرثوذكس اليهود المتشددين الذين ظلوا يعيشون طويلا على الهامش بدأوا يتزايدون عدنا الآن ويمارسون نفوذا وكلتا الظاهرتين جديدتان تماما فى تاريخ اليهودية المعاصر. وسواء فى فرنسا أو الولايات المتحدة أو انجلترا أو اسرائيل فان هذه الجماعة تهدف لجعل نفسها المرجع الروحى الأوحد والمرشد والمعلم بل نجحت فى التسلل الى الطوائف الأكثر سكونا والمدارس التى ظلت تعتبر من المدارس التقليدية المسالمة حتى الآن. ثم حدث فى موازاة هذه الصحوة الدينية ـ وهذه هى الملاحظة الثانية ـ انقسام تتفاقم فجوته باطراد بين فريق المؤمنين بالآخرة وفريق غير المؤمنين بهذه الغيبيات. من هذا المنطلق لم تكن المطادرة المنظمة التى مارسها بعض الإسرائيليين ضد الكهنة فى الأيام التى أعقبت اغتيال اسحق رابين، ثمرة جيل وليد الصدفة.

وأردت أن أتحاور مع هؤلاء المتيمين عشقا بالتوراة الذين يبثون الرعب فى نفوس اليهود الآخرين وأفهم إلى أى منطق ينصاعون، وأعرف ماهية المبادىء التى تحكمهم والتيارات التى يتأثرون بها، فاكتشفت عالما متعدد الأجناس، منقسما على نفسه أحيانا يعيش فوق نفس المساحة الجغرافية بتوجهاته المختلفة والغيورة. وإذا كان هؤلاء الأرثوذكس يتمسكون بالرجوع الى التلمود وتفاسيره فقلما يتحاورون مع أصحاب المدارس المختلفة بل وينعدم حوارهم بالأحرى مع العلمانيين. ومن فرط حرصهم على تطبيق الدين بحذافيره والدعوة لنشره فانه لا يطرأ على بالهم بالمرة مجرد فكرة إمكانية التعامل، المطلوبة فى الواقع، مع المجتمع الخارجى، والسبيل الوحيد المحتمل للتعامل معه يتطلب بالضرورة عودة هؤلاء الأبناء الضالين الى حظيرة الإيمان الكامل، لأن العالم الخارجى كله ضلالة وفسق وفساد... والصورة المتلقاة التى يحملها العلمانيون فى اذهانهم عن عالم المتدينين تجد نظيرا مطابقا ومساويا لها من الأفكار الكاريكاتيرية الساذجة التى تشحن عقول المتطرفين من المؤكد أن عملية تعريف التطرف فى حد ذاتها مسألة صعبة حيث تتداخل فيها عناصر مختلفة مثل الكليشيهات والخرافات والتراكمات التى سرعان ما تؤدى الى خلط جميع المتدينين فى نفس البوتقة الجهنمية. وليس المقصود هنا هو تعمد اثبات أن جميع حراس التراث اليهود من الطائفيين المتشنجين. حيث ان معظمهم يعيشون على النقيض من ذلك بقلوب عامرة بالإيمان وبعقل متفتح ومفتوح على العالم. ولا يعتبر غطاء الرأس والتمسك بالأكل حسب قواعد الشريعة اليهودية فقط دليلا واضحا ودافعا على الانغلاق الفكرى. اذا كنت فى سياق هذا البحث قد استغرقت فى الحديث عن أقطاب التعصب وحدها فاننى لم أقصد من وراء ذلك بتاتا التلميح الى أن جميع المعابد وجميع المدارس اليهودية مكتظة فقط بالعناصر المتطرفة المنغلقة على ذاتها. إن الاختلاف الملحوظ بين مختلف أشكال الطاقيات التى يلبسها المصلون توضح تماما الفروق الفاصلة التى تميز بين التيارات المختلفة. فالمؤمنون الأوفياء لتعاليم التوراة الذين عزموا على اتباع الطقوس

بهدوء وبدون تطرف يغطون قمة رأسهم بطاقية مستديرة صغيرة فى حين يلبس الأرثوذكس المتشددون طاقية كبيرة سوداء. . . . وهذه الأوصاف ومغزاها لايبدو تافها كما قد يظن المرء لأول وهلة خصوصا فى اسرائيل.

يغطى «جاد» رأسه بطاقية سوداء. ومع هذا تجده بعيدا كل البعد عن التعصب اذ يرى أن وقاره وشيبته وبدلته السوداء الداكنة الملائمة لمهنته كتاجر، كل هذا يمنعه من استخدام طاقية زاهية. ولما كان من عشاق سماع الموسيقى فقد توجه خلال الفترة البسيطة الماضية الى أشهر قاعة عرض فى تل أبيب حيث كانت الأفيشات تشير الى عرض مقطوعة «المسيًا» للموسيقار هاندل. وعلى باب الدخول طلب منه رجال الأمن أن يتبعهم فى ركن بعيد عن الأنظار وقاموا بتفتيشه بعناية. هل كان ذلك مجرد إجراء أمنى خوفا من وقوع عملية تفجير فى القاعة؟ أبدا. كل ما هنالك أن وجود الطاقية السوداء على رأس جاد جعلهم يرتابون فى أمره إذ ربما يكون فى جعبته صفارات أو ما شابه ذلك بهدف التشويش على العازفين باعتبار أن الموسيقى تعتبر من الأشياء النجسة بالنسبة للمتطرفين. وفى هذه الليلة تحديدا أدرك جاد أن مجرد وضع طاقية سوداء على رأسه يضمه تلقائيا الى تصنيفة التيارات الدينية الأكثر تشددا. لأن فى اسرائيل، مثلما هى الحال فى أى مكان آخر، أحيانا مايتم نسيان الأغلبية، الصامتة من أهل البلاد، تلك الأغلبية التى لايسمح لها صوت فتغمرها فى أحيان كثيرة أغرب المتناقضات.

***

والتطرف فى أضيق معانيه التى لا تدعو للقلق لا يخرج عن كونه توجها يدعو لاعتناق كل أركان المذهب الذى يؤمن به الفرد. ومن هذا المنطلق فان الإيمان الكامل بالعقيدة،أيا ما كانت يهودية أو إسلامية أو مسيحية، يحث الفرد على التصرف بنفس الكيفية،حيث يتطلب ويفرض عليه سلوكيات معينة مثل التقوقع والانغلاق على الذات، والاقتناع المطلق بأن العقيدة التى يؤمن بها هى الصحيحة، والخوف من المؤثرات الخارجية، وهوس الرجوع الى النصوص المقدسة فى كل الأمور، وإطلاق اللعنات على كل من يخدش أو ينتقص أى شىء من أركان العقيدة. ومن المقصود تقديم الإيمان على القواعد الدينية من حيث الترتيب فى حديث المتطرفين لأن الإيمان الكامل بإله علّى وجبار هو السبيل الوحيد لتبرير أكداس الأوامر التى انهالت على البشر بعد ذلك. فالتطرف له إذن مفهوم غاية فى التحديد والدقة بموجب العلاقة الوثيقة التى تربطه بالتصوف الدينى. وابتداء من هذا التعريف المخالف للمنطق الذى يصعب على أنصار النزعة اللاأدرية (نزعة المتشككين الواقعيين) فهمه، يسترسل الفكر المتطرف بتسلسل منطقى لاتشوبه شائبة على النحو الآتى: إذا كان الله تعالى (أيا كانت الصورة التى صور بها الإنسان) هو الذى أنزل الكلمة الحقة والوصايا على البشر فمن المستحيل على أى مخلوق بشرى أيا كانت قوته أن يحذف أو يضيف حرفا واحدا من أو على كلامه. وتمشيا مع هذا المنطق يصبح شرع الله شريعة نافذة على البشر وكل من يحيد عن هذا

الصراط المستقيم يقع فى الضلال والمعصية. عندئذ من الوارد أن يطل التطرف برأسه فى أبشع صورة وباسم هذه السلطة العليا المذكورة فى النصوص المقدسة سيلجأ الى فرض قناعته حتى اذا استلزم الأمر استخدام العنف أحيانا لفرضها.

***

اذا كانت كلمة «متطرف» قد استحدثت فى أواخر القرن التاسع عشر للإشارة الى أتباع نظرية خضوع الدولة الى سلطة الكنيسة فى أسبانيا فسرعان ما تحررت هذه الكلمة من اطارها الضيق. فالكاثوليك الذين ارتعدوا بغضاضة، فى أعقاب انعقاد مجمع الفاتيكان الثانى، استنكارا لتوجهات الكنيسة الرامية إلى التحديث وثاروا بضجة مدوية بهدف الإبقاء على عقيدتهم القديمة بدون مساس وبدون أدنى تنازل يجعلها تتلاءم مع روح العصر أو تغير القيم، ما كانوا يفكرون فى خلط أمور السياسة بأمور الدين، ومع هذا يعتبرون أول متطرفين عرفناهم فى العصر الحديث وطالما اقتصر الأمر على تمسك المصلين بمتابعة شعائر القداس باللغة اللاتينية وتمسك القساوسة بارتداء التونيا السوداء، ما كان يخشى من أن يسفر ذلك عن أية عواقب وما كان يمكن اعتبار مثل هذه السلوكيات إلا بمثابة لعثمة طارئة من لعثمات التاريخ، ولكن سرعان ما تكشف أن الكاثوليك ما عادوا يقنعون بالمرة بمسألة ترنيم القداس باللغة اللاتينية، حيث لم يترددوا فى عام ١٩٨٨، عندما بدا لهم أن فيلم «الاغراء الأخير للمسيح» للمخرج مارتان سكورسيزيه يشكل تجديفا لا يغتفر فى حق الدين، عن اللجوء الى العنف بترويع المشاهدين وبإقامة متاريس أمام دور السينما المشتبه فيها بعرض هذا الفيلم البشع. ومن شدة اندماجهم فى دوامة العنف راحوا يطلقون قنبلة حارقة على إحدى دور السينما بالعاصمة باريس لتدمير هذا المكان اللعين وتطهيره بالنار.

بيد أن هذه الحملة المقدسة لمحاربة فيلم يروج أكاذيب لم تستغرق سوى فترة محدودة من الزمن. وبسرعة عثر المتطرفون الكاثوليك على موضوع أشد إثارة لتعبئة الرأى العام فى الحرب ضد الإجهاض. وفى الولايات المتحدة الأمريكية اتسمت الحملة المناهضة للإجهاض بأقصى مظاهر العنف: حيث تركت عناصر الكوماندوز المؤازرة لحق الأجنة فى الحياة بصمتها الآثمة من اعتداء وفتونة واغتيالات أينما ذهبت. ومنذ سنة ١٩٩٣ لقى طبيبان وثلاثة ممرضين مصرعهم باسم الحرب من أجل الحياة ومن ثم أصبحت العيادات الأمريكية التى تقوم باجراء عمليات الإجهاض الإدارى تحصن نفسها الآن خلف أبواب منيعة ومقاومة للعبوات الناسفة . وهذه التجاوزات لم تحدث فى فرنسا ومع ذلك فان المظاهرات المناهضة للإجهاض تشتد لهجمتها باطراد فى هذا البلد مما اضطر العدالة الى فرض عقوبات على الشعارات العنيفة التى أطلقها بعض المتحمسين.

حيث لوح المتظاهرون المؤمنون بأن الإجهاض العمد يضاهى إبادة الجنس البشرى بلافتات تقول : «إن الجنين البشرى يساوى نفسا حية» وليس كل الذين ينادون بحق الجنين فى الحياة

متطرفين مستعدين للانزلاق فى دوامة العنف إنما خلف أنصار الحفاظ على حياة الجنين بدأت ترتسم ظلال الأسقف لوفافر وحشد تلاميذ إحدى الكنائس المتحجرة والمتشبثة بعهد مجدها للماضى العظيم، حيث لبست هذه الكنيسة ثوب عصور الظلامية وانبعثت بنفس صورتها من خازنة التاريخ، وفى وقت كان الكهنة فيه يسيطرون بلا منازع على العقول ونقلا عن كتاب موجز تاريخ الكنيسة التى وزعته كنيسة سان نيكولا دى شاردونيه، معقل الفكر الكاثوليكى الصميم هناك عبارة تقول : «إن الكنيسة الكاثوليكية فقط هى التى تمسك بمفاتيح الحقائق المُحْيِيَّة حتى فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيا». وبالرغم من هذه الأكاذيب المرتبطة بالزمن الماضى فالتطرف الكاثوليكى لايزال متفوقا فى كنائس معدودة ولايطمح فى فرض نفوذه إلا على الفاتيكان فقط.

واليوم إذا بالمزيج القديم بين السياسة والدين يعاود الظهور مرة أخرى من خلال التطرف الإسلامى الذى يخطط استراتيجيا بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة للاستيلاء على الحكم . وابتداء من الإخوان المسلمين المصريين وانتهاء بجبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية فإن الفكرة الرئيسية التى تبرر وجود شتى هذه الحركات المتطرفة تكمن فى طموحها إلى فرض سريان الشريعة الإسلامية بصورة مطلقة على البلاد الإسلامية، بل وبالنسبة للحركات المغالية فى التطرف، على بلاد المضيف التى توجد بها أقليات كبيرة من المسلمين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخمسمائة ألف شخص الذين تظاهروا ضد جبهة الإنقاذ الإسلامية فى شوارع الجزائر العاصمة فى شهر يناير من عام ١٩٩٢ لم يهتموا كثيرا قبيل ذلك بالفتاوى الدينية الغريبة التى كانت تنطلق من الجوامع فى أيام الجمع، ولم ينزلوا الى الشارع إلا بعد فوز الجبهة فى انتخابات الجولة الأولى عندما أحسوا بالخطر نابعا من صرخات الغضب المناوئة للديمقراطية الصادرة من الزعماء الإسلاميين. ولقد تابعت المطربة قبيلة جورا بعين فاحصة عملية الاستقطاب المتأنية للناخبين لصالح جبهة الإنقاذ الإسلامية المهيكلة بشكل متقن فى إطار تنظيم قوى قائلة: إنها ـ أى الجبهة ـ تقوم بتأدية أعمال مذهلة كجمع القمامة مثلا عندما توقفت الدولة عن تحمل هذا العبء وتوفير المياه بخراطيم الرش للمناطق المحرومة والمعونة الغذائية للمحتاجين المعدمين. . . فكيف لا يثق الناس بعد كل هذا فى الذين أتوا إليهم بالأمل حتى عتبة الدار خاصة عندما يكونون محرومين من كل شىء؟ ولكن ما هى الجهة التى تتستر فى الأصل خلف هذه المنظمة؟ لقد اسهبت الصحافة الجزائرية فى الحديث عن الأدلة التى تنطق بوجود دولية إسلامية ترسم استراتيجيات للاستيلاء على الحكم فى البلاد الإسلامية انطلاقا من إيران. فيبدو أن دولة الملالى من خلال تسترها وراء السودان ـ حتى لا تظهر كالرأس المدبرة لهذه المؤامرة ـ والتى لم تكتف بتشكيل الاتجاه المتشدد فى جبهة الإنقاذ الإسلامية، قامت أيضا بتوفير الأرصدة اللازمة لتمويل أنشطتها وحملتها الإنتخابية.

ومن البديهى أن تدور الصراعات على أشدها فى الجزائر تحديدا لأن التطرف الإسلامى فى هذا البلد يستطيع أن يتصدى بدون أدنى تأنيب للضمير فى وجه النظام الذى يراه منجرفا أكثر من

اللازم ناحيــة الغرب. لكن هامش المناورة المتاح للتطرف فى المغـرب على سبيل المثـال أضيق من ذلك بكثير. عـلما بأن تصرفات الملك الحسن الثـانى ربما كانت تستحق أن تبـعث القلق فى نفوس المتطرفين بما أنه يمثل أحـد رواد خطوة التقارب بين اسرائيل والفلسطينيـين، كما يستقبل شـيمون بيريز رسـميا منذ عـام ١٩٨٦ ! إن العاهل المغربـى الشريف يعتـبر أميـرًا للمؤمنين ببركـة أجداده العلويين ومن ثم يصـبح من المستحـيل اتهامه بالتـعاطف مع النظريات الديمـقراطية. لذا يحـشد التطرف الإسلامى جهوده بعيدا عن حكومـات أسسها الدينية ضعيفة بحيث تظهر مـفتقدة الشرعية الى حد مـا فى نظر الإسلام ثم يتعامـل معها بمنتـهى العنف بحيث يتحـتم أن يصل صدى تلك المعاملة الى العـديد من البلدان الإسلاميـة التى تتذبذب نظمـها بين الدين والواقعـية أى بين السنة والحداثة.

هذا ويندرج التطرف اليهودى فى موضع وسط بين التطرف الكاثوليكى ذى الأطماع الطائفية والتطرف الإسلامى المصطبغ بالصـبغة السياسـية. وكما لاحظ «إيزى مور جنزترن»، مـخرج فيلم «أرض اليهود» ومـؤسس مركز مناهج البحـوث والدراسات اليهودية بكليـة تولوز، هناك مصدران لهذا التطرف أحدهمـا قديم ونشأ مع شتات اليهـود فى المهجر والآخر قومى وظهر مع الصـهيونية ونشأة دولة إسرائيل. وهذان التياران يختلفان من حيث الطبيعة والمرجعية. وعلى أية حال فالأسماء المعطاة لأبناء كل من الفـريقين تبين بوضـوح الإنقسام القائـم بين كلا التياريـن. فيهود الشـتات يختارون عامة أسماء ولادهم من العهد القديم بعيدا عن مغامرة تأسيس الدولة اليهودية الحديثة مثل موسى أو يوسف. وهـذه الأسماء المألوفـة المنتخبـة من التراث اليـهودى تثيـر الفزع أحـيانا لدى الإسرائيليـين الذين يقرنون نفـوسهم عن طيب خاطر بعـهد حروب العـبرانيين وذلك بإحـيائهم لاسماءمندثرة مثل عساف أوباراك.

وإذا كان هذان التـياران يزعمان الإنتـماء بديهيا إلى نفس الكتـاب المقدس ـ التوارة ـ فـهما لايتمـسكان مرجعـيا بنفس الأسـفار واجمـاليا تنقسم الـتوراة الى جزءين. وفى الجـزء الأول كان العبـرانيون يعيشـون فى مصر أوثانهين فى بـرية سيناء أى أنهم كانوا بلاجذور وبلا وطن، مـجرد جنس من الأجناس البشرية إسـمهم ال«يهود». وفى الجزء الثانى فى المقابل، أصـبح أنسال أسباط الشعـب المختار يعـيشـون فى ربوع الأرض المقدسـة، ويتدبرون شـئونهم ذاتيـا مسـتظلين بسلطة حكومتـهم الخاصة. وهذه الفـترة المحدودة نسبـيا من تاريخهم تغطى عـصرالقضـاة والملوك الثلاثة شاول وداود وسليمـان . ثم تفرقت أواصر هذه المملكة فى عهد الغزو الرومـانى حيث تم ترحيل جزء من سكانها إلى بابل وانتهى الأمر بأن هدم الرومان القدس ومعبدها وبتلك الخاتمة انتهى تاريخ العبرانيين.

وعلى حد توضيح ايزى مورجنزترن: «طبقا لمنطق الجدلية التاريخية، بدون مرجعيةالدولة وبدون هيكل تنظيمى مركزى كان مفروضا أن يختفى تلقائيا العبرانيون من الوجود عندئذ ابتدع اليهود فكرة تحديث نصوص التوراة فألفوا التلمود وزودوا أنفسهم بالوسائل الإدارية والقانونية حتى يتسنى لهم البقاء فى حيز الوجود خارج حدود أرض معينة وهكذا استطاع شعب بلا مقومات جغرافية أوحكومة أو أية سلطة سياسية أن يخلق لنفسه نظاما من شأنه أن يضمن له البقاء حتى بدون جهاز دولة. ومنذ لحظة تدمير المعبد حتى لحظة قيام دولة اسرائيل توارى العبرانيون ليفسحوا المجال لليهود».

إن التطرف النابع من الأرثوذكسية الدينية الحقيقية والذى تناقلته الطوائف اليهودية فى المنفى يحرص أن يكون حامى حمى الشرائع التى تحكم علاقات الشعب المختار مع ربه فهؤلاء المتدينون المنغلقون على ايمانهم مازالوا يؤمنون بالرسالة الخلاصية المنوطة باليهود بموجب لوحى العهد اللذين يحملان الوصايا العشر التى أنزلها الله على موسى. وهذا الفريق من اليهود ينحازون فى صف هذا النبى، ولايسعون ، من خلف أسوار عزلتهم، الى فرض آرائهم على أية سلطة دينية عليا. حيث أن مثل هذا السلطة لاتوجد أساسا فى الديانة اليهودية، أو الإستيلاء على الحكم السياسى القائم فى القدس. وإذا كان التيارالممثل فى اسرائيل من خلال حزب التوراة الموحد وحزب شاس يشترك فى الإنتخابات ويتقلد أحيانا بعض المسئوليات الحكومية فإنه لايفعل ذلك أبدا بقصد فرض هيمنة رجال الدين على السلطة وانما يسعى بشكل عملى للحصول على بعض المزايا مثل استمرار تدريس مبادىء تعاليم الديانة اليهودية فى المدارس العامة أو تخصيص اعتمادات مالية لدعم مؤسساته.

وفى اشارة إلى هذا الإنسحاب من جانب اليهود الأرثوذكس من الحياة السياسية النشطة يقول إيلان جرايسا مر، أستاذ العلوم السياسية بجامعة «بارايلان» فى تل أبيب موضحا: «يبدو أن الأمر فى البداية كان مجرد انسحاب ورفض للإنفتاح على العالم إحساسا منهم بأن هذه الأمور تافهة وثانوية...».

وخارج أسوار إسرائيل ، لاتعير الحركات الأرثوذكسية المتشددة ـ وهى معظمها إما معادية للصهيونية أو على الأقل غيرمؤمنة بمبادئها ـ أدنى اهتمام بالأمور السياسية وتفصل بوضوح قاطع بين إسرائيل ونطقها باللغة العبرية « مدينة إسرائيل» وبين أرض إسرائيل«ايرتزا اسرائيل» أى بين البلد الحقيقى بنقائصة البشرية الفجة وبين مساحته الجغرافية الوهمية المشار إليها فى كتب علم الآخرويات (الآخرة). ولقد أفضى لى واحد من هؤلاء اليهود المتشددين الباريسيين، وكان ذا لحية كثيفة ويغطى رأسه بطاقية سوداء، بهذا القول:

لا يهم إذا كان عرفات أو نتانيـاهو هو الذى يحكم فى إسرائيل، لأن هذا البلد لا يسير فى الوقت الراهن على أية حال على هدى مبادىء التوراة»

وهذا يوضح مدى الشعور باللامبالاة الذى تثيره لدى هذه الأوساط مناقشات الكنيست والقرارات السياسية التى تتخذها حكومة القدس على حد سواء. وبفرض أن تلك الأوساط لا تزال تحلم بدولة تحكمها شرائع التوراة السماوية فانها تعرف أيضا أن أغلبية الشعب الإسرائيلى بعيدة عن الدين واحتمال خضوع مثل هذا البلد لنير العقيدة الكاملة مسألة مرجأة الى أجل غير مسمى إلى موعد حلول المسيًا المرتقب بشغف.

حيث أن الأرثوذكسية المتشددة تسعى ضمن أهداف أخرى بداية الى التصدى للتوجهات الليبرالية للعقيدة اليهودية وكذا الى حث الحاخامات المحافظين على مزيد من التشدد الدينى. ومن اجل محاربة اغراءات العالم العلمانى يجد أنصار الالتزام بكل أركان العقيدة الكاملة نفوسهم مضطرين للدعوة من أجل مزيد من انغلاق أهل المعبد ولا يخفون حنينهم لزمن تعصب الأمم تلك الفترة المباركة التى شهدت تحطم موجات غزو التأثيرات الخارجية على أعتاب أحياء الجيتو اليهودية.

***

وعندما تجمع اليهود على أرضهم، ظهر الإسرائيليون كامتداد لأسلافهم العبرانيين واختصر هؤلاء فترة الشتات ووضعوا بين قوسين ألفى عام من التاريخ وراحوا يستندون مباشرة إلى جزء العهد القديم الذى يحكى عن مسيرتهم القومية. لذلك تجدهم يقفون فى صف سيدنا إبراهيم والوعد الإلهى بتخصيص قطعة من الأرض له ولشعبه. وانطلاقا من هذه الركيزة النظرية قاموا بنسج أبعاد جغرافية لهذه الأرض تجعل من إسرائيل مركزا مطلقا للعالم كما اضفوا هالة من القدسية على بعض الأماكن التاريخية مثل القدس أو الخليل أوشكيم.

ومن الواضح أن الأصولية الصهيونية المتدينة تضرب جذورها برسوخ فى الواقع السياسى. ففى دول المنفى تقوم هذه الحركة بتحريك جاليات يهودية تكاد لا تفرق من جهلها أحيانا ـ بين نهر السين أو التيمس أو هادسون وبين نهر الأردن باعتبار أنها البوق الذى ينقل صدى أصوات الجماعات الصغيرة المغالية فى تطرفها.

وفى اسرائيل يتجلى بطبيعة الحال التطرف القومى بكل أبعاده ومن هذا التيار انبعث شخص مثل « ايجال عامير» قاتل رابين. وعلى النقيض من تيار الأرثوذكسية المتشددة، تسعى الصهيونية المتدينة الى التأثير بكل ثقلها على الأحداث وإلى احتلال مكان فى كل آليات الدولة والى الإدلاء برأيها بصوت عال وقوة.. ويحلم أنصار هذه الحركة بفرض الشريعة اليهودية على أنحاء البلاد ويرفضون أية ترضية مع السلطة الفلسطينية قد تؤدى إلى التخلى عن الأراضى المقدسة المذكورة فى

ملاحم العـهد القديم. من هذا المنطلق نـشأ تحالف موضـوعى خلال السنوات القليلة الماضـية بين أحزاب اليـمين المتـشددة وهذا الشكل من اشكال التـطرف الصهيـونى بصدد مـصيـر أرض[يهودا والسامرة»، وهو موضوع جوهرى من وجهة نظر كلا الطرفين.

فالوطنيـون المتدينون على استـعداد لفرض رؤاهم المزعجـة عن الشعب اليهـودى من خلال صناديق الاقتراع أولا، ولكن بالقوة أيضا من منظور العناصر الأكثر سخطا، لأنهم يضعون وصايا التوراة فى مقام أرفع بكثيرمن مرتبة الديمقراطية أو حقوق الإنسان، تلك الابتداعات البشرية التافهة التى لا تساوى شيئا يذكر أمام التدابير السماوية العظمى.

الفصل الأول

جحيم عصر السيكير

أو جذور التطرف

أقركلود ليفى شتراوس بأنه «لايوجد شىء أخطر على البشر من أديان التوحيد» وتوضيحا لهذا الكلام استطرد يقول هذا العالم المتبحر فى علم أحوال الأمم وانتشارها:

«بالرغم من تفتح الهنود لحظة دخول الأوروبيين بلادهم، فلم يكن لديهم أية نية للتنازل عما يميزهم عنهم من اختلافات، وببساطة ـ وهنا يكمن ارتقاء الأديان الوثنية وسموها على الأديان التوحيدية ـ سلموا بوجود المعتقدات الغربية إلى جانب معتقداتهم وأفسحوا مجالا لتواجدها فى بلادهم»ولكن من الصعب على الوثنية أن تتعايش مع مذهب الوحدانية وقد تم القضاء على العبادة الباطلة بسفك الدماء.

وإذا كان التوصل لفكرة الإله الواحد الذى لايُرى ولايُحس قد نفع بدون شك فى عهود الماضى فى تحديد مفهوم للألوهية بعيدا عن التصورات القاصرة للعقائد الوثنية وآلهتها المصورة على شكل أصنام،فإنه عمل أيضا على زرع جذور التعصب بإرسائه أسس ملكوت الإله الأوحد والمطلق والأكبر .

من هنا نستطيع أن نستخلص آثار بصمات تطرف وليد فى كل قصص كتاب العهد القديم منذ بداية الكون، وعندما وقف أبناء إسرائيل تحت سفح جبل سيناء لتلقى التوراة فى اليوم الأول من نزول الشريعة.

وفى الوقت الذى صعد فيه موسى فى خلوة فوق قمة الجبل ليكلم الله الأبدى ويسمع وصاياه وإذا بشعبه الذى كان مستعبدا فى مصر فيما سبق ومعتادا على تصور الآلهة فى شكل أوثان،اصر على أن يكون له إله يراه ويلمسه، عندئذ طلب هارون، كبير الكهنة، من كل واحد منهم أن يأتى بحليه ثم قام بصهر خواتمهم وقلائدهم ليسبك لهم عجلا من الذهب الخالص. فغنى القوم ورقصوا وسكروا تحت أقدام هذا الصنم النفيس ـ ولكن عندما نزل موسى بعد غيبته الخاطفة من فوق الجبل ومعه اللوحتان الحجريتان المتضمنتان لروح الشريعة، حمى غضب هذا الرجل البار بشدة تجاه هذا الشعب الذى أبصر بعيونه السحب وهى تنشق فوق جبل سيناء وسمع صوت الله الأبدى يدوى كالرعد واستفاد من معجزاته وبعد كل هذا زاغ عقله ولم يفكر إلا فى صنع صنم على شكل عجل مسبوك من الذهب ليعبده فلابد من معاقبته على أعماله الدنسة.

وبالرغم من أن شريعة الله كانت توصى بعدم ازهاق الروح «لاتقتل» إلا أن موسى جمع حوله المؤمنين بالله وقال لهم: هكذا قال الرب إله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المعسكر واقتلوا اذا لزم الأمر كل منكم أخاه وصاحبه وقريبه.» (خروج ٣٢: ٣٦ ـ ٣٧).

وفى هذا اليوم وقع من الشعب نحو ثلاثة آلاف رجل، ثلاثة آلاف بائس اختيروا عشوائيا حتى تهدأ حمية غضب هذا النبى المطعون فى كبريائه من سرعة انكار الشعب له، ففى عصور العهد القديم التى نتصور بعجالة أنها كانت مشبعة فقط بروح التوحيد كان من الصعب اذن ترسيخ مفهوم الاله الواحد فى الأذهان. وفى قلب أول معبد أقيم فى اروشليم نصب موسى نحشتان الحية النحاسية، الى جانب وجود الله الذى لا يرى ولا يحس. وكانت تلك الحية صنما مؤلها اضطر أن يصنعها موسى ويضعها على راية ليشبع الحماسة الدينية لدى الجميع فكان الشعب يقدم لها الذبائح والقرابين وكان المفروض أن تقيهم ضربات الحيات المحرقة التى أنزلها الله عليهم وتعيد الحياة لكل الملدوغين المحتضرين، وظلت الحية النحاسية لمدة طويلة فى هيكل الرب موضع عبادة تشيع اطمئنانا فى النفوس أكثر من فكرة الإله الواحد المجردة من أى شكل ملموس. وفى أوائل القرن السابع قبل الميلاد، أرسى حزقيا، ملك يهوذا، أسس الوحدانية المطلقة لعبادة الله وحطم الحية النحاسية. . . . وجدير بالذكر أن هذا الملك كان أيضا مؤسس نظام المركزية فى أقصى صورها المتشددة حيث وصل الأمر الى حد هدم كل الهياكل الصغيرة المعاقة فى أرجاء ملكه. ولم يستبق سوى هيكل أورشليم وألزم كل أسباط الشعب بالسجود فيه. ومن خلال وحدانية المكان ووحدانية العقيدة حاول حزقيا ـ عبثا ـ تحديد سلطاته الملكية. من هنا كانت بالفعل بداية التحالف بين الدين والسياسة.

ولو قلبنا فى التوراة فسنعثر على حكايات أخرى كثيرة تعضد نظريتنا ولكن ألا تبدو تلك الأحداث أقرب الى السير أو الأساطير منها الى التاريخ؟ خلاصة القول، إن العنف الموجود فى كتاب العهد القديم وفقا للمدلول الصحيح لهذه الكلمة مرجعه التعصب وليس التطرف إذ أن الشريعة كانت ولاتزال فى طور الإعداد. ومن المنظور الدينى لا يوجد بالتأكيد أى اختلاف بين التاريخ والسير كما لا يوجد اعتراف بأن شريعة الله قد أنزلت على أجزاء حيث يفيد التقليد اليهودى بأنها أنزلت دفعة واحدة. ولكن من وجهة النظر التاريخية التى، نحن بصددها من المستحيل أن يظهر التطرف إلا بعد إكتمال أو شبه اكتمال نزول الشريعة. وعندما رؤى أنها إكتملت تماما، اعتقد بعض المؤمنين أن من واجبهم التشديد على احترام تلك الشريعة السماوية احتراما كاملا وشاملا «وكليا» وبالفعل وابتداء من الفترة التى أعقبت نزول التوراة ظهرت بشائر أول عناصر متطرفة مسلحة. وفى خضم تشنجات منطقة الشرق المعقدة، أشهر هؤلاء المتطرفون سيوفهم باسم يهوه إله إسرائيل.

فى سنة ١٧٥ ق.م. كانت أرض يهوذا ولاية تابعة لسوريا. وكان الملك «انطيوخس الرابع» قد اعتلى عرش الأسرة السلوقية (نسبة إلى مؤسسها سلوقس نيكاتور) وبدأ ينتهج سياسة منظمة فى فلسطين لنشر الثقافة الهيلينية فيها أى الحضارة اليونانية. وكان يؤمل نفسه بتنفيذ مشروعات طموحة فى أورشليم القدس وكان يتصور مستقبلا مشرقا لمدينة داود القديمة ويتخيل نموا تجاريا هائلا فيها ويعد بأن يكون للمدينة دستور والحق فى طبع نقود خاصة بها. ولكن حتى يتسنى له البت فى هذه السياسة كان لابد أن يتخلص أولا من كل الذين كانوا يحلمون باستمرار إخضاع الشعب لشرائع التوراة القديمة الجامدة، فبادر بإقالة الكاهن الأعظم ياسون واستبدله بآخر يدعى منلاوس الذى كان من أشد المعجبين بالحضارة اليونانية السائدة.

وبعد خروجها من السبى فى بابل انقسمت اليهودية إلى فريقين بين أنصار الإصلاح الحضارى وفقا لاحتياجات العصر، وبين الرافضين المتمسكين باستمرار سريان الشريعة الموسوية بحذافيرها على الجميع. وفى بداية الأمر، استطاع الإصلاحيون أن يفرضوا وجهة نظرهم فتغير طابع مدينة أورشليم بعد أن شيدوا فيها قلعة وديارا رائعة على غرار الطابع المعمارى لبيوت الأشراف اليونانيين وحلبة للألعاب. وسرعان ماتشبه أبناء العائلات الكبيرة من اليهود، الذين كان شاغلهم بالإندماج فى العالم الجديد أكبر من اهتمامهم بالمحافظة على عاداتهم وقيمهم، فشايعوا «مودات» مستوحاة من الحضارة اليونانية وطبقوها على ملابسهم وعاداتهم ولغتهم العامة. كما تجردوا بالكامل من ملابسهم لدى نزولهم الى الحلبة للتنافس فى السباقات أو فى لعبة رماية الرمح بينما أهمل الكهنة من ناحيتهم مواعيد خدمة الهيكل للتمتع بمشاهدة هذه الألعاب الوثنية. وأصبحت أورشليم عاصمة مميزة فى ذلك العصر بفخامة معمارها وملاعبها وفجورها. وكان من الممكن أن تستمر الأحوال على أكمل وجه فى أفضل رموز الحضارة اليونانية لولا التمزق الذى أصاب تلك المدينة بسبب الصراعات التى اشتعلت بين اليهود المحافظين على الناموس والمتمسكين بعبادة الله من أصحاب النظرة الإستقلالية وبين أنصار السلوقيين.

وعندما شاع خبر زائف عن موت الملك انطيوخس، أعتقد ياسون الكاهن الأعظم السابق بأن الوقت قد حان لكى يستعيد نفوذه الضائع. فقامت جيوشه بفرض حصار على أعتاب مدينة أورشليم (القدس) وحاولوا الإنقضاض للإستيلاء عليها لكن رجال الحرس الملكى بالقلعة رزأوا الهجمة واضطر ياسون، ازاء ملاحقة العسكر له إلى الفرار إلى بلد آخر. ومنذ ذلك الحين استخدم الملك حقه فى معاقبة المتمردين. وفى طريق عودته من حملة على مصر، هجم جيش السلوقيين على أورشليم ليرغمها على الإلتزام بنظام المستعمر وحضارته ثم اقتحمت الجيوش السورية المدينة فى يوم من أيام السبت المقدس وذبحوا أفضل المؤمنين الأتقياء من أبناء إسرائيل وحطموا أسوار المدينة القديمة الشامخة.

كما صب الملك جام غضبه على الهيكل نفسه وحوّل مذبح التقدمة من مكان عبادة عامر بالإيمان بالله إلى صرح لعبادة الإله زايوس الأولمبى، فأصبح المكان من ثم مسرحا للنجاسة والعهر. ولقد صدمت هذه التصرفات الدنسة الشعور الدينى عند الشعب بأكمله فهب ثائرا على تلك الوثنية.

- ومع ذلك لم يطبق السلوقيون أبدا فى أية واحدة من مستعمراتهم سياسة اضطهاد دينى ولم يفكر انطيوخس أو الملوك السابقين فى إلغاء الديانة اليهودية من الوجود أوفى منع إقامة شعائرها منعا كاملا حيث رأوا أن الينطيون - معبد الآلهة- رحب بما يكفى لاستقبال إله إضافى. ولكن إذا كان رئيس الكهنة منلاوس يواظب على خدمة الهيكل وإقامة الشعائر ليحافظ على دوام الإيمان بيهوه إله اسرائيل، فقد كان الملك يسعى من ناحيته إلى إضعاف كافة الديانات المحلية حتى تلتف مختلف الشعوب الخاضعة له حول صنم زفس كبير الآلهة عند اليونانيين والذى أطلق عليه الرومان اسم «جوبتر».

وتحت تأثير تشبعه بهذه العبادة الوثنية الساذجة لم يكن أنطوخس ليتصور أن اقامة صنم حجرى فى مذبح التقدمة تعتبر رمزا سافرا وكافيا لحث أنصار الشريعة الأتقياء على الاستعداد للجهاد وعلى دوى صرخة «من ليهوه فليتبعنى» التى أطلقت لتجميع الشعب، أعطى الشيخ الكاهن ماتاتياس الأسمونى إشارة البدء لاندلاع العصيان فهل كانت حربا وطنية أم جهادا دينيا؟ وهل كان لهذا السؤال فى حد ذاته معنى فى عصور الماضى القديم حيث كان الدين مرتبطا ارتباطا وثيقا بالشعور القومى، وفى أرض فلسطين تحديدا حيث كانت شريعة الله هى السلطة المنظمة لكل الشئون السياسة والاجتماعية والشخصية معا؟ ففى اشباكها بدون هوادة مع الجيوش السورية، كان الجيش الذى يقوده «يهوذا الميكابى»، ابن «ماتاتياس»، يقاتل من أجل الاستقلال الوطنى وحرية العقيدة فى نفس الوقت.

ودخل المتمردون المنتصرون مدينة أورشليم بعد تحريرها من الاحتلال الأجنبى وهم يرنمون ألحان تمجيد ليهوه اله اسرائيل الأبدى وأول ما فعلوه بعد الاستقلال هو تطهير المعبد من كل مظاهر الوثنية الشنيعة التى دنسته،ولكن لم يفطن الأسمونيون الى أنهم اذ دعوا اليهود الى الإنشقاق باسم يهوه إله اسرائيل واذ أقاموا الشريعة والوصايا سلطة مطلقة، فانهم كانوا يفتحون الباب لكل ألوان التعصب الدينى.

وابان القرن الثانى ق . م استطاع يوحنا هركانوس حفيد الكاهن ماتاتياس «أن يحيى أعنف مظاهر التعصب الوطنى مستغلا قوة الشعور الدينى لدى شعبه، وحتى يفرض هيمنته على البلاد. وطوال فترة حكمه المشوبة بالتقلبات والإضطرابات والتى استغرقت أكثر من ثلاثين عاما تبنى هركانوس التعصب الدينى والغارة على الأراضى أسلوبا للحكم. فخرّبت جيوشه البلاد المجاورة

وأرغمت شعوبا بأكملهـا على اعتناق عقيدة الإله الواحد، كما اخضـعت السامريين الذين كانوا يشاركـون اليهود فى العـقيدة لكنهم أخطأوا برفـضهم الإلتزام بكل مـاجاء فى الشريعـة الموسوية وهدمت هيكلهم المقام فوق جبل جوزيم حجرة حجـرة. وفى الجنوب استولت جيوشه على إدوميا ـ وهى التسمية اليونانية لإقليم أدوم المذكـور فى العهد القديم ـ وأرضخت سكانها على اعتناق الديانة اليـهودية . أمـا مدينة السـامرة التى احتـلها الجيـش اليهودى، فـقد هدمت تمامـا على يد المجاهدين الأتـقياء المدافـعين عن دين الله الحق. وفـى الهيكل حيـث كان يقوم يوحنـا هركانوس بالخدمـة مرتديا ثوبا أبيض وحـول جبهـته إكليل من الذهب الخـالص منقوش عليـه إسم يهوه إله إسرائيل، تجلى صوت الله ليبشر بانتصاره المجيد. . .

ولقد برع يوحنا هركانوس فى استغلال الشعور الوطنى لدى الشعب اليهودى وتقواه العميقة كأداة تخدم سـياسته التـوسعية. وفى عهـده، استعادت أرض يهـوذا التى كانت تابعة فيـما مضى للسوريين مساحتها السابقة وبسرعة امتـدت أطرافها حتى ضاهت فى اتساعها حدود مملكة سليمان القديمة . وبصفته كاهنا أعظم وحاكما مطلقا ركز «هركانوس» سلطانه على الصدوقيين الذين كانوا يحلمون بأمة يهودية مترامية الأطراف على حساب سوريا وخاضعة بشكل مطلق لحكام من الطبقة الارستـقراطية الغـنية. وفى مقـابل هؤلاء كان الفريسـيون الذين لايسلمـون إلا بسلطان ملك الله ولايأتمرون إلا بشريعة وصاياه . .

وحول معـضلة هل كان من المفترض استـخدام التوراة وسـيلة للتوسع السياسـى أم نبراسا للنفوس إلى حياة القداسة؟ وهل كان يتعين اختيـار سبيل التقوى والتمسك بفرائض الدين أم سبيل رفعة شأن الوطن ،وتمديد نفـوذه؟ تفجرت الإنقسامات بين الصدوقين والفـريسيين وكانت لا تزال تلك الخـلافات تمزق أواصـر الشعـب عنـدمـا جاء الإحـتـلال الرومـانى ليضـع حـدا لنزعـات العظمـة اليـهـودية. وكـان الملك «هيـرودس»، الـذى أجلـس على العـرش بنـاء على رغـبـة «ماركوس أنطونيوس»، يحلم خصوصا بتجميل مـدينة أورشليم وبتشييد مدن حضرية فى البلاد. وفى عهـده فقدت الحكومـة توجهها الـيهودى المحافظ: حـتى الترميـمات الضخـمة التى تمت فى الهيكل كانت بهدف أن يضـاهى فى الروعة والفخامة دور العبادة الوثـنية، والنسر الذهبى المرفرف بجناحيه المفرودين فوق مذبح التقدمة كأنه يذكر المصلين بالطاعة الواجبة لروءسائهم الراهنين. وكل هذا كان ينذر بقرب ظهورحـركة مقاومة دينية، وهى حركة الأسينيـين الذين فضلوا الإنسحاب فى عزلة الصحراء للرهبنة والتعبد.

وفى ذات الوقت كانت عمليات الجهاد تدور فى جـو من السرية الشديدة لتحرير البلاد من المستـعمر والإسـتقلال، ففـى هذه الظروف ظهر حزب «الغـيورين» الـ«زيلوت» الذى قاوم أتبـاعه المتـعصبـون الحكم الرومانـى بالعنف والجرائم. وقـد انبـثق منهم حـزب «السيـكير» أى حـملة

الخناجرالذين اشتق اسمـهم من كلمة سيكا الرومانية ومعناها خنجـر، والذين كانوا يقتلون بطريقة سريعة ومفـاجئة اليهود الخونة المتعاونين مع المـستعمر ضد مصلحة البـلاد . وفى غيبة عن الوعى بسبب فكرة تحرير البلاد واستقلالها المتسلطة عليهم واقتناعا منهم بأنهم يمهدون الطريق لقدوم المسيًا بتطهير الأرض المقـدسة من الكفر الذى دنسهـا انبرى هؤلاء بحماسة مـحمومة فى عـمليات القتل وسفك الدماء وأشعلوا الجحيم فى فلـسطين.

ويجسـد السيكير أقـصى معانى التطرف فى العـهد القديم حيث لـم يسقط من أثر طعنات خناجرهم النافذة عـسكر الأعداء وحسب بل أيضا اليهـود الذين اتهموا بالاستهتـار والتراخى نحو الدين ونحو استقلال الوطن. ولقد نال هؤلاء القتلة فى أول الأمر كل اليهود المتواطئين مع الحكم الرومانى. وهكـذا مات على أيديهم رئيس الكهنة يونا ثان كـما قـضوا على عدد آخـر من الكهنة اليهود المتـعاونين أيضا مع قوات الإحتـلال . وفى خضم الحرب الأهلية التى أشـعلوها بين اليهود قاموا بتصفـية منظمة لأعوان المستعمر ومن تزوجوا من وثنيـات والمواطنين الذين شايعوا فى ثيابهم «المودة» الرومانية. وبقوة السلاح، اقتحم الغيـورون العاصمة فى النهاية واستولوا على الحكم وبعد قطع صلاتها بروما وجهوا مسيرة ألويتهم صوب أرض اليهودية لـسحقها.

وفى أوج فصل صيف عام ٧٠ الميلادى فى الوقت الذى كانت جيوش تيطس تشق ثغرة فى أسوار أورشليم كـانت الصراعـات لا تزال تمزق صفوف الـيهود شـيعا. وبوازع النـشوى بالأفكار المسيـانية المترسخـة فى عقولهم، فقـد عزم الغيورون على تطهـير الشعب بالحديد وسـفك الدماء وتماشيا مع قناعتهم بأنهم يعجلون بهذه الأعمال الخلاصية بموعد حلول يوم الآخرة، كانوا يترقبون بشغف المسيًا الذى سيأتى حتما وبالتأكـيد. ومن فوق أبراج الحصون كان بعض حـراسهم يعلقون أنظارهم على السماء ليبشرونهـم بلحظة تجلى المخلص. لكن عيونهم لم تبصر أى شىء فى الأفق عندئذ توغلت جحافل الجيش الرومانى فى المدينة وقامـوا باحراق الهيكل . ووقعت «اليهودية» فى يد الرومان ولكى يثبت للعالم جبروت الامبراطورية الرومانية، أمر «تيطس» بحرث مدينة أورشليم حرثا وتسويتها بالأرض.

ان تعصب الغيورين الدموى لايزال بمثابة جرح فى تاريخ الشعب اليهودى، ولاتكف كتب التراث عن التركيز دائما على أن الهيكل قـد هدم بسبب حقدهم المدمر الذى وصلهم الى التقاتل. ألم يقض الغيورون والسيكير نهائيا على فرص بقاء الأمة اليهودية شعبا واحدا لدى تحطيمهم لوحدة هذا الشعب بإسم مفهومهم المتطرف عن الخاصيـة اليهودية؟ من المؤكد أن اليهود لم يتخلوا فى التو واللحظة عن هويتهم حـيث حدث فى عام ١٣٠ ميـلادية ـ أى بعد مرور ستين عـاما على هذه الحقبـة أن تجددت الثورات فى فلسطين وذلك عندمـا قرر الإمبراطور أدريان أن يعـيد بناء أورشليم وأن يرفع عليها شعار النسر رمز الإمبراطورية الرومانية لتصبح بذلك مدينة تابعة لهذه الإمبراطورية وغير مسـموح فيها نهائيـا بممارسة شعائر الديانة اليـهودية. ووسط هذا المناخ من الألم الذى كان

يعتصر قلب الأمة اليهودية حزنا على ضعفها بعد الهزيمة، توحدت صفوفها مرة أخرى تحت قيادة شيخ حكيم اسمه المعلم «أكيبا» الذى طاف فى كل أنحاء فلسطين ليجند الرجال ويعد منهم جيوشا قادرة على محاربة المستعمر .

ولقد تزعم، «سمعون باركُشبا » ولقبه «ابن النجمة» ـ نسبة الى نجمة داود ـ فرقة رجاله المصممين على نبذ انقساماتهم لمحاربة الرومان، ألد أعدائهم الحقيقيين. وتمكن الشعب بعد لم شمله ورم صفوفه أن يستعيد أورشليم وأن يقيم مذبح تقدمه على تل المعبد، وكان هذا أول صخرة من صخور الهيكل الثالث. ولكن سرعان ما سحقت جحافل الجيوش التى بعثتها روما هذا التمرد ولقى باركُشبا حتفه فى آخر معركة من هذه الحرب التى كانت أيضا الأخيرة.

وبهذه النهاية المأساوية اختتمت هذه الحقبة من الكفاح الوطنى للشعب اليهودى واستكانت الأوضاع بعد ذلك فترة طويلة من الزمن. وخلال هذه الفترة الحافلة بالتقلبات والتغيرات العميقة عاد البعض يتعلقون من جديد بفكرة الرجاء المسيانى، أى الأمل فى مجىء مسيًّا مخلص لشعبه. عندئذ بدأ تلاميذ يسوع الناصرى يبحثون عن طرق جديدة بعيدا عن طريق الكفاح الوطنى أو الإلتزام المتشدد بشريعة الله ووصاياه الواردة فى التوراة. وفى ضوء الدروس المستفادة من الكوارث التى حلت على الأمة اليهودية، استخلصوا أن الشعب اليهودى قد فقد عناية الله به لأنه فضل تطبيق الشريعة بحرفيتها على المحبة واضعا نصب عينه إلها متجبرا.

وحدث انقسام بين فريق المتمسكين بتطبيق الشعائر وفقا للشريعة وبين تلاميذ المسيح. ولكى يحافظ أصحاب النظرية الأولى على بقائهم خارج أرض الوطن ابتدعوا لنفوسهم وصفا متنقلا يحملونه معهم فحرروا التلمود لهذا الغرض. بينما راح الفريق الثانى يتحسس طريقه فى بلاد العالم الخارجى وأرجأ مسألة المناسك والطقوس الى مرتبة الأمور الثانوية بغية شد انتباه الشعوب المؤمنة بعبادات وثنية.

وبذلك دخلت اليهودية مرحلة جديدة من تاريخها، وبعيدا عن موطنها الأصلى كان من المستحيل أن تواصل تطرفها الا بالاستناد الى حجية علماء الشريعة المتطرفة.

وعادت المعضلة التى أزمت اليهود قديما بعد تدمير الهيكل تطرح نفسها من جديد على الساحة فى بولندا فى أواخر القرن السابع عشر، وكانت تلك المشكلة العويصة بصدد الكوارث والمحن التى انهالت على رءوس اليهود المؤمنين على الرغم من وفائهم للعهد المقطوع مع الله والتزامهم بالوصايا المنزلة على موسى فوق جبل سيناء. ومرة أخرى برز على سطح مناقشاتهم موضوع فشل العلاقة بين الله وشعبه المختار .

وتعتبرهذه الحقبة بالفعل من أشد الفترات الصعبة والمؤلمة فى حياة الشعب اليهودى. حيث كانت عصابات المحاربين الكوزاك المتمردة على الحكم المركزى تخرب وتدمر مناطق بأكملها من

الشرق الأوروبى مخلفة وراءها أحياء يهودية برمتها أطلالا ورمادا. وبغية النجاة من هذا المصير المحتوم حاول اليهود التحرر من قيد أمجاد تاريخهم القديم والإنغماس فى مغامرة روحية قد تبعدهم عن متاعب الحياة الدنيا وتقودهم إلى طريق الخلاص ولقد أحدث ظهور «شبتاى زيفى» ذلك المسيًا الكاذب القادم من أزمير، فرحة عظيمة بلغت حد الهذيان فى الأقاليم البولندية المكروبة، حيث كان هذا الرجل الهابط عليهم من السماء قد جاءهم بنبأ ليبشرهم بأن معاناة الشعب اليهودى قد انتهت وبأن المستقبل مشرق أمامه . . . ولكن عندما أحضر هذا الرجل أمام سلطان الباب العالى فى القسطنطينية، وأمر باثبات قدراته الخارقة بدليل ملموس والا فسيحكم عليه بالإعدام شنقا، أنكر هذا المسيًا الكاذب كل نبوءاته ووافق على اعتناق الإسلام دينا، تاركا وراءه الطوائف اليهودية غارقة فى مشاعر الإحباط والصدمة.

وفى ظل هذا المناخ الملبد بالتجارب القاسية والمحن، استطاع مُجبرٌ قروى متواضع أن يعطى نفحة حياة جديدة لليهودية. وهكذا نشأت الحاسيدية أى حركة الأتقياء ـ نسبة الى كلمة «حاسيدم» العبرية ومعناها «الأخوة الأتقياء ــ كرد فعل لأسلوب الحاخامات المتحجرة فى الإلتزام بالعقيدة فى ضوء قياسات تلمودية صارمة تكاد تغفل عن معاهدة المحبة والرحمة والمقطوعة بين الله والبشر. ومن تعاليم الـ« بعل شم توف» أى (المعلم طيب الذكر) أنه دعا الناس للتعبير عن ايمانهم بفرح مصحوب بالألحان والرقص . وابتداء من هذه اللحظة بدأ أتباع التيار يعيشون عقيدتهم بعشق واندماج كامل وشامل مع الله الحى الموجود فى كل شىء وكل مكان ووجد تلاميذه عندئذ سعادة غامرة فى خدمة الله الأبدى بطريقة مختلفة عن أسلوب التعمق الوهمى فى النصوص والإلتزام بتطبيقات طقسية كلها اذلال للنفس.

وعلى النقيض من ذلك فقد دعى« البعل شم توف» الى حفظ الشريعة وتطبيق الوصايا بفرح . ومقارنة باليهود الأرثوذكس المنكبين دائما على النصوص لتشريحها، كان المعلم الجديد يميل الى التوحد فى الغابات والجبال ليكون قريبا من الله الذى لايرى بنعمة الصلاة التى تسمو بالروح فى مناجاة حقيقية مع الله. ونستطيع أن نقول أن اعتراضه على «تطرف» الحاخامات كان بهدف أن يجعل الدين أكثر انفتاحا وتفهما لانفعالات البشر.

ولقد انتشر هذا التيار بسرعة مذهلة كالشرارة من بولندا الى روسيا ومن رومانيا الى منطقة أوروبا الوسطى واصطدم احيانا بشدة مع تيار الحاخامات المتشددين. وحاول خصوم الحاسيدية الذين لم تستهوهم رسالتها الروحانية أن يوقفوا انتشار تيارها الصوفى ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.

وبدأت المدارس الحاسيدية الملتفة كل واحدة حول معلمها الخاص تنتشر فى أهم مراكز التجمع اليهودية إلى جانب بعض حصص الدراسة البحتة لنصوص التلمود ، أهتمت المدارس الحاسيدية بتنمية الخيال والأحلام لدى تلاميذها من خلال القصص التعليمية الهادفة التى تنمى الشعور الدينى وحب الإستطلاع الذى يحفز على اكتشاف الأسرار التى تبطنها الخليقة. إن هذه الحكايات الرمزية المتناقلة من جيل الى جيل هى التى أثرت الأدب اليهودى بدءا من «اسرائيل

زالجويل» حتى «ايليا فيسل» . ووسط رياح التصوف التى نفخها «البعل شم توف» احتلت فكرة قدوم المسيًا المنتظر مكان الصدارة وبدءا من هذه اللحظة أصبح الرجاء الوحيد للبشر يكمن فى قيامة الأموات والخلاص الذى سيأتى به المسيح لإنقاذ العالم. والواقع أن الحاسيدية لم تؤلف لاهوتا جديدا ولم تسن أية شرائع تتناقض مع وصايا التوراة، انما على غرار مافعل المسيحيون الأوائل فى زمنهم، فقد ابتعد الحاسيديم ـ أى الأتقياء ـ عن العالم المادى وما عادوا يؤملون أنفسهم بأى شىء من الحياة الدنيا بل صاروا يعلقون كل رجائهم بصدد تحقيق كل امنياتهم على الله أو على المعلم الذى يستطيع أن يلغى بأسحاره كافة المعوقات حتى اذا كانت قدرا محتوما .

من هذا المنطلق كان لابد من اعتبار أى تدخل من جانب الإنسان كفيلا بتغيير مجرى الأحداث عملا باطلا يستحق الإدانة كأية بدعة أو هرطقة . وبهذا الإنعكاف التدريجى عن ساحة الأحداث وضعت جماعة «الحاسيدم» الأتقياء نفسها على« هامش كل ما يجرى فى مجتمعات الحاضر. وتمشيا مع أسلوبهم فى التطرف فقد عارض الأتقياء بمنتهى الشدة أية محاولة استقلالية لتحرير الوطن. واستنادا الى ذلك كان لهم وجهة نظر خاصة فيما يخص قضية إحياء القومية اليهودية على أرض نشأتها. وعموما كانت جماعة «الأتقياء»، وهى تتفق فى هذا الصدد مع السواد الأعظم من اليهود الحاخاميين، تعارض بمنتهى التعنت فكرة عودة الشعب اليهودى إلى أرض أجداده القدماء .

وفى القرن التاسع عشر أثارت معاودة ترديد فكرة اعادة بناء القومية اليهودية من جديد اضطرابا عظيما وفعليا فى عقول اليهود. وفى مواجهة حجيات رجال الدين المتزمتين طرحت الصهيونية السياسية أفكارا من شأنها تهيئة الفرصة لعودة اليهود إلى أرض وطنهم القديم. عندئذ رأى الحاخامات وهم خلفاء أسلافهم الفريسيون أن سلطانهم على اليهود بدأ يهتز فجأة بسبب هذا التصميم على العودة لمعاودة العيش فى مجالهم الجغرافى القديم وكان منطقيا أن يكون الرعيل الأول من الصهاينة من اليهود المبتعدين عن الأوساط الدينية وأن يكون خصومهم بالتالى هم فئة رجال الدين الذين رأوا أن كل امتيازاتهم وهيبتهم كآباء روحانيين بدأت تترنح. وقبيل نشوب الحرب العالمية الثانية، أعرب المعلم«موشى بلاو» وهو أحد قيادات حركة «أجودات اسرائيل» المناهضة للصهيونية ، عن قلقه صراحة مما أسماه «بالإحتكار» الذى يزعم الصهاينة ممارسته على الشعب اليهودى برمته، كاشفا بذلك عن مدى تخوف رجال الدين من فقدان نفوذهم على هذا الشعب حيث قال :«إن الصهاينة يكسرون قاعدة يوم السبت المقدس ومع ذلك يصرون على فرض نفوذهم على اليهود. اذ يعتبرون أنفسهم دائما من أصلح الناس. ويفضل استخدامهم لمدلول القومية بمفهومها الجديد وسط المجتمعات اليهودية ــ حيث أن التعريف السابق لهذه الكلمة كان مستوحى من الديانة اليهودية والتوراة ـ استطاعوا أن يستحوذوا على تلك المجتمعات لصالح حركتهم التمردية على التوراة والوصايا. ومن ثم ألغوا جميع الفوارق التى كانت تميز بين اليهودى

الناموسى المؤمن والآخـر الذى أجل بالتزامـه بفرائض الدين وتسـببوا فى نزاع حـول تعريف هوية الشعب اليهودى».

ومع أول نجـاحات للصـهيـونية واسـتيطان جـالية يهـودية كبـيرة فى فلسطيـن تجددت المجادلات القديمة بحدة وتبـلورت هذه المشاحنات حول توجه الدولة المقترح تأسيسـها فى المستقبل وموقـعها الجغـرافى ومحل الدين فيهـا. ولـم يتخلف أى تيار من التـيارات المؤثرة فى الماضى عن الإشتـراك فى هذا الجدل حيث دارت المجـابهة بين أنصار فكـرة الدولة المنصهرة فى مـحفل الأمم وأتباع نظرية الخاصية اليهودية والناموسيين المتطرفين. واحتدم الصراع أحيانا فيما بين هذه الأطراف الثلاثة الى حد الـلجوء الى العنف وعلى الرغم من تلاشى الإمبراطورية الرومـانية منذ زمن طويل الا أن اليهود كانوا ولايزالون منقسمين فيما بينهم.

لاشك أن اغتـيال اسحق رابين قد أذهـل العالم بيد أن هذا التصـرف الطائش المبنى على دوافع سياسية ودينية معا كان مسبوقا بعـدد آخر من التجاوزات الإنفعالية التى ميزت الفترة الحديثة من تاريخ القومية اليهودية منذ عهد مـوسى الذى قتل عبدة صنم العجل الذهبى، والملك «حزقيا» الذى فرض عبادة الإله الواحد على جميع أسباط اسرائيل، والسيكير حاملى الخناجر الذين طعنوا رئيس الكهنة فى أورشليم، ونحن نعلم أن حـركات التطرف لاتثبت قـدرتها إلا إذا اقترن نشـاطها بالعمل السياسى، حيث أنه فى حالة انتفاء رغبتها فى السلطة، واكتفائها بمجال الدين، فإنها تحكم على نفسـها بالإنغـلاق داخل معابـدها لممارسة نفـوذها على رعاياها المعـدودين الذين غالبـا ما يكونون من مؤيديها . ومـن هذه الجرائم ما حدث لشخص يدعى «ياكـوف دى هعان» الذى كان شخصية غريبة وبصـفته صحفيا وشاعرا، فقد خاض بفكره فى أيديولوجيـات مختلفة ومتناقضة. بداية كان عـضوا فى الحزب الإشـتراكى الهولندى لكن الحـزب نبذه لأنه نشر رواية جنسـية، ثم استهوته الصهيـونية لكنه تخلى عنها نهائيا لينضم الى أكثر التيارات الأرثوذكسـية اليهودية تزمتا. ولدى اقتناعـه آنذاك بأن القومية اليـهودية أيديولوجيـة كافرة حاول فى مطلع العـشرينيات تعبـئة القوى المناهضة للصهـيونية فى تحالف جامع للحركات الدينية المتطرفـة والقوميين العرب. ونظرا لأنه كان شعلة نشاط ولامعا ومقنعا ومتحدثا رسميا بلسان الطوائف الأكثر تشددا فقد كانت فيه من الميزات ما يدعو حركة مثل الحركة الصهـيونية الوليدة الى القلق. وفى شهر يونيو عام ١٩٢٤ اغتيل بمنتهى برود الأعصاب على يد اثنين من أعضاء حركة الهجانا المكلفين بتنفيذ العمليات الخاصة.

وثمة اغتيال آخر تسبب فى انقسام العالم اليـهودى سياسيا حقبة طويلة من الزمن، ففى يوم ١٦ يونيـة من عام ١٩٣٣ أطلق عـيار نارى فى تل أبيب على مـقربة من الـشاطىء . حيـث قام مجـهولان باغتـيال حاييم أرلوزرو روف رئيس القـسم السياسـى بالوكالة اليهـودية وواحد من أبرز الشخـصيات فى حـزب العمل. ولـم يُعـرف أبدا من كان القتلة الفـعليون، إذ ربما كـانوا أوغادا طائشين يبحـثون عن جريمة على سبيل التـسلية ولكن الكل أجمع على الفور بأنها تحـمل بصمة

جناح اليمين الصهيونى المتطرف التابع «لاباأهيمائير»، مؤلف ملف السيكير» الذى امتدح فيه أسلوبهم فى عمليات الإرهاب الفردى حيث كانت أمنية حياة هذا المتعصب للعنف، الناقم على الشيوعية هى احياء جماعة «الغيورين» القديمة. وفى لمح البصر ألقى البوليس البريطانى القبض على «ابراهام ستافسكى» شريك « أهيمائير» فى الغرفة كما تحفظت فى وقت لاحق على [زفى روزنبلات» وهو شاب معروف بايمانه الراسخ بالأفكار اليمينية. وبعد مرور شهرين على هذه الواقعة أعلن «دافيد بن جوريون» أمام لجنة النشاط الصهيونى المجتمعة فى براغ يقول: «فى فلسطين توجد جماعة تنتمي للحركة الصهيونية، وهى جزء من حزب كبير وتتبنى الإغتيال السياسى أسلوبا وكنت شخصيا لا أعرف مدى أهميتها العظيمة. وهذه الجماعة نفسها هى التى دبرت ونفذت عدة هجمات بنجاح نسبى».

وقضت المحكمة البريطانية بعد ذلك بعدم ضرورة اقامة دعوى ضد« روزنبلات» وأخلت سبيله ووجهت التهمة الى «ستافسكى» لكن محكمة الإستئناف العليا قضت ببراءته لعدم ثبوت أية شبهة جنائية حوله. اذا كانت هذه القضية قد أخذت هذا البعد من الأهمية واذا كانت لاتزال تؤثر فى الضمير الإسرائيلى فذلك لأنها كانت فى لب الحوار الأساسى حول مستقبل الدولة. حيث اتضح بالنسبة للجميع أن هذه الجريمة الغامضة كانت تخفى وراءها صدامات حامية بين مفاهيم متعارضة وكان هذا يبرر بدون شك سبب قصر الإدانة فى هذه الواقعة المؤسفة على «أبا أهيمائير»، مُنَظِّر الجماعة الذى حكم عليه بالحبس لمدة ثمانية عشر شهرا فى السجون البريطانية بتهمة «التحريض على الثورة» ضد نظام الإنتداب وبعد مرور ثلاثة وستين عاما على هذه الجريمة وفى يوم اغتيال رابين رئيس الوزراء، إذ بأرملته تبوح بأن هذه الأجواء المشحونة بين رجال الدين والعلمانيين وبين اليمين واليسار تذكرها بفترة فضيحة قضية «أرلوزو روف».

والحقيقة أن الفجوة التى حدثت بين التيارات اليهودية المختلفة وبين أطروحاتهم المتباينة بصدد طريقة تعمير الأرض المقدسة لم تسد أبدا فيما بعد، ففى يوم ١٠ فبراير من سنة ١٩٨٣ وأمام مكتب مناحم بيجين، رئيس الوزراء آنذاك ، تظاهرت آلاف مؤلفة من عناصر «حركة السلام الآن» من أجل التنديد بالحرب التى شنتها إسرائيل على لبنان والمطالبة باستقالة آريل شارون وزير الدفاع وبسرعة تدخلت عناصر من اليمين المتطرف وقامت بمظاهرة مضادة لتقويض المسيرة وألقت قنبلة يدوية على المتطرفين اليساريين حيث لقى واحد منهم يدعى إميل جريفزويج مصرعه على الفور بينما أصيب عشرة آخرون غيره ولم يعثر أبدا عن أثر للجناة المسئولين عن هذا الهجوم.

وفى عام ١٩٨٩، لوحت جماعة صغيرة أطلقت على نفسها إسم «السيكير» أى حملة الخناجر بأنها ستتسبب فى اشعال شرارة الحرب الأهلية من جديد بين اليهود بعضهم البعض ثم هددت بالنيل من كل الذين يشتبه فى خيانتهم لقضية القومية اليهودية. ومن خلال سلسلة من

الهجمات التى يغلب عليها الطابع الرمزى أكثر من القدرة على الأذى، حاول أعضاء هذه الحركة ترويع بعض الشخصيات اليسارية المرموقة. فقاموا بإحراق باب شقة مديرة أحد معاهد بحوث استطلاع الرأى لأنها تورطت بنشر نتائج دراسة تفيد بأن أغلبية الإسرائيليين يؤيدون فكرة التفاوض مع منظمة تحرير فلسطين. كما أحرقوا سيارة الأديب «دان الماجور» ودمروها انتقاما منه على آرائه حول الأطفال الفلسطينيين الذين يقتلون برصاص الإسرائيليين، كما فجروا قنبلتين حارقتين الأولى فى الفيلا الخاصة «بدوف تابورى» عمدة «بتاح تيكفا» الذى صرح لأحد دور السينما بتشغيل عروضها فى يوم السبت المقدس. والثانية فى مسكن «عموس شوكن»، صاحب صحيفة «هاآرتس» الذى اتهم بخدش «حياء المجتمع وقيمه».

لقد أعرب الكاتب «عموش أوز» عن تخوفه من هذا الشطط الذى استشعر خطورته على الشعب اليهودى برمته قائلا:

«إن هذه الطائفة المسيانية الصغيرة متبلدة المشاعر والمفتقدة للرحمة والمنبعثة من غياهب الماضى الغابر للأمة اليهودية تهدد بتدمير كل مانعزه ونقدسه لتفرض علينا مذهبا داميا وباطشا ومجنونا. هناك من يعتقدون - بدون وجه حق - أن هذه الطائفة تناضل لتحفظ لنا سيطرتنا على الخليل ونابلس وأن كل مبرادها هو أن تصبح إسرائيل دولة إسرائيل الكبرى وهذا الهدف السامى يبرر من وجهة نظرها أسلوبها فى استخدام كافة الوسائل لتحقيقه بما فيه سفك الدم. إلا أن مسألة المحافظة على أرض إسرائيل التوراتية ليست سوى حجة للتغطية على هدفها الحقيقى ألا وهو فرض وجهة نظرها القبيحة والمشوهة عن الأمة اليهودية على الدولة الإسرائيلية. وإذا كانت تريد تشريد العرب فذلك لكى تستبد بعد ذلك باليهود لتلزمنا جميعا بالسجود لانبيائها الكاذبة البربرية: إن ذلك سيؤثر حتما على سمات الحضارة اليهودية لأن قناع الوطنية الذى تتستر خلفه هذه الطائفة يخفى فى الواقع تعصبا يهوديا يضاهى تعصب حزب الله فى قسوته وعدائه للحرية».

وحدث بعد ذلك استشراء فى الحركات المتطرفة ومغالاة فى تشددها. وكلها تحلم بقيام دولة إسرائيل الكبرى بنفس مجد عصرها الذهبى فى عهدى الملك سليمان «ويوحنا هركانوس» وتحقيقا لهذا الهدف فهى مستعدة لمحاربة اليهود المنفتحين على الثقافات المختلفة وسائر شعوب العالم الأخرى، ففى الماضى البعيد سفك «السيكير» ' دم رئيس كهنة هيكل أورشليم وفى الحاضر المعاصر اغتالوا رئيس الوزراء . وفى كلتا الحالتين كان هدفهم دائما هو عزل المجتمع وعدم اختلاطه إمعانا فى رفضهم لمبدأ الإختلاف من أصله.

فالتاريخ يعيد نفسه ومعركة اليهود الأرثوذكس المتشددين ضد دور عرض الأفلام السينمائية بالقدس تعيد الى أذهاننا جهاد الأسمونيين فى أورشليم قديما والذى يعكر صفو احتفالاتها

بالمسابقات الرياضية المستوحاة من الحضارة اليونانية. وهكذا نلاحظ أن المتحمسين لفكرة دولة إسرائيل العظمى يتحدثون بنفس منطق الصدوقيين الذين كانوا يفرضون سلطان الأمة اليهودية على سائر شعوب المناطق المجاورة فى القرن السابق لميلاد المسيحية. لذا يعتبر الكهنة المناهضون للصهيونية خلفاء، إن صح هذا القول، للفريسيين المتحصنين داخل الهيكل والمتشددين لجعل الشريعة الموسوية السلطة الأولى والوحيدة التى تنظم كل جزئية من شئون الحياة الدنيا، كما يذكرنا تحديدا الإنقسام فى الرأى بين إسرائيل والطوائف اليهودية بنفس المشاحنات التى حدثت فى عصر الملك هيرودس عندما عضد يهود المنافى (البلاد المجاورة) الوالى على أورشليم فى قمعه لثورة أغلبية يهود فلسطين الذين دفعتهم سياسته لاسترضاء الإمبراطورية الرومانية.

وطوال حقبة السبى الممتدة ظلت هذه الصراعات الدفينة خامدة حيث انعدمت علة وجودها نظرا لاحتياج اليهود الماس إلى تعبئة كل قواهم من أجل الحفاظ على ذاكرة أمتهم وعقيدتهم من التلاشى. ومن اللحظة التى وافق فيها المعلم الحاسيدى الحكيم «يوحانان بن زكاى» أن يفر من أورشليم مختبئا فى نعش، هربا من الرومان إثر محاصرتها بغرض أن يؤسس مدرسة فى «يبنة» وهى مدينة صغيرة قريبة من الساحل، يكون قد أعلن بشكل رمزى تلاشى اليهودية الوطنية وبنهاية هذه التمثيلية المرسومة باتقان مدروس أمكن استخراج مسوغات جديدة للهوية اليهودية وفى «يبنة» أولا ثم فى قلب مراكز تجمع يهود الشتات بدأت اليهودية تغير جلدها لتلبس قميص الحراس الساهرين على حفظ الرسالة الإلهية، فوضعت حدا فاصلا بين الشق العقائدى والشق الأسطورى وحصرت نفسها فى مجال الروحانيات فقط، ولكن عندما عاودت اليهودية التفكير فى مجالها الجغرافى أدركت أن صراعاتها القديمة لم تندمل بعد.

وقد انتهت تلك الحروب بتدمير هيكل أورشليم وسبى عدد كبير من سكانها. وفى الوقت الحالى يحاول البعض العثور على مخرج لهذا المأزق من خلال تعاون أصحاب النوايا الطيبة الذين هم على استعداد للتغاضى عن انقساماتهم الداخلية على الرغم من الأحقاد والحروب التى استغرقت حقبا بهدف التصالح بصرف النظر عن نبرة الوعيد والكراهية التى يستخدمها المتطرفون التابعون لكل طرف.

إن استئناف نفس طابع الصراعات التى دارت قديما تحت قبة الهيكل لايحرك ساكنا فى يهود الشتات الأرثوذكس المتشددين فمن وجهة نظرهم فترة السبى لم تنته بعد. وحتى يأتى يوم الخلاص بانتهاء الأزمنة سيظلون متمسكين بحقيقة أخرى ، تلك التى عاشوها منغلقين فى جحور الجيتو التى يجد المسيا فى يوم تجليه شعبه طاهرا نقيا ومستحقا لأن يقوده بنصره فى نهاية المطاف لتسلم الأرض الموعودة.

الفصل الثانى

العودة الى الإنغلاق
أو تنامى التيار الأرثوذكسى المتشدد فى فرنسا

يعتبر المعلم «حاييم ياكوف شلامية» نعم المرشد الروحى والسند بالنسبة لأعضاء. طائفته الصغيرة بالحى الحادى عشر فى باريس . وطوال فترة حديثى معه والمكالمات تنهال عليه عبر الهاتف . مرة فتاة من الراغبات فى اعتناق الديانة اليهودية تستفسر عن مصير طلبها. ومرة أخرى رب أسرة عاطل يطلب منه أن يصلى من أجله، وثالثة ربة منزل تستشيره ، من شدة حرصها على فرز اللبن عن اللحم طبقا لما أوصت به الشريعة، كيف تطهر خرقة من القماش مخصصة للأوانى المخصصة للأطباق اللبنية بعد استخدامها بدون قصد لتجفيف الأطباق الخاصة بالوجبات الدسمة. . وفى كل مرة يجيب المعلم بصبر على استفسارات محدثيه بصرف النظر عن انفعالاته غيظا كانت أم اهتماما أم سعادة.

واستهل كلامه معى شخصيا عن الإختلاف. الإختلاف الموجود بين الأغيار (بمعنى الأمم) واليهود والآخر القائم بين اليهود واليهود. ولم يخف تكدره بصدد الحشود السائغة من الناس الذين يزعمون الإنتماء لليهودية وفى نفس الوقت يدعون الى التحرر من نير الشريعة الموسوية حيث قال:

«لابد أولا من تعريف ماهية الفرد اليهودى خاصة وأن هذا التعريف قد أدخلت عليه مغالطات كثيرة مما يستوجب منا أن نعيد الأمور الى نصابها، فالاختلاف بين اليهودى وسائر الأمم الأخرى هو بسبب التوراة التى أنزلها الله على الخلق منذ ثلاثة وثلاثين قرنا من الزمان فَقَبِلَهَا شعب اسرائيل بينما نبذتها سائر الشعوب الأخرى. ومعنى ذلك أن اليهودى يكن امتنانا للخالق الذى وهبه الحياة وخلق له العالم وحدد له نصيبه فى الدنيا، أما بقية البشر فهم يتميزون عن الشعب اليهودى بأنهم، تصرفوا على أساس أن كل انسان له مطلق الحرية فى تحديد خياراته يفضلون تنفيذ رغباتهم ويرفضون تسليم مصائرهم للمشيئة الالهية، انما أهم شىء بالنسبة لليهودى هو أن يستقدم أرادة الخالق على ارادته كمخلوق . وانطلاقا من هذا المفهوم الأساسى، علينا أن نعرف ما اذا كنا طوال فترة هذا السبى الذى تحملناه على مدى تسعة عشر قرنا من الزمان مازلنا نحيا كيهود. وهذا يتوقف على تفاعلنا مع عنصرين: **الأول:** وهو أساسى ــ ويتمثل فى خضوعنا لمشيئة الله **والثانى:** وهو ثانوى ــ يتلخص فى صدامنا مع الأمم. والواقع أنه فى ظل الصخاب التى

نمر بها فى فتـرة سبينا فى المنافى، تجدنا مـعرضين لخطورة أن ننسى تراثنا فنذوب فى المجتـمعات الأخرى ثم نتلاشى وهذا الإستـيعاب له وجهان: **الأول**: محظور اذا كان يتم على حـساب ايماننا بالـله، **والثـانى**: ليس مسموحا به فقط بل إنــه مطلوب بالفعل اذا طلب منا أن نساهم بمجهودنا لصقل ثقافة وحضارة البلد الذى نقـيم فيه، ان هذا الإختلاف بين المحظور والمطلوب لم يكن يفهم أبدا كما ينبغى مما أدى إلى ظهور خليط من المفاهيم الغريبة عند اليهود نتيجة للأفكار التى استعاروا بعضها من اليهودية والبعض الآخر من الخزعبلات والبعض الثالث من الوثنية . . . عندئذ ظهرت حركات فكرية مجـردة من الجوهريات اليهودية حيث زعم روادها أن المهم بالنسبـة للفرد اليهودى هو أن يكون صهيونيا أو صاحب رسالة انسانيـة أو عضوا فى الحركة اليهودية الثورية الكبرى . . . وطبعا كل هذا تم دون أدنى مراعـاة لواجب الطاعة العمياء لله؟ والنتيجـة أننا وصلنا الى مفاهيم تنسب جزافا لليهود مـثلا عندما يتحدثون عن التحررية أو الإلحاد أو العلمـانية فاننى لا أفهم ماهى العلاقة التى تربط تلك المفاهيم باليهودية ؟ وعندما يختار أى فرد يهودى السير فى هذه الإتجاهات فلماذا يجد حرجـا فى أن يعترف بأنه قد ترك شعبه؟ فاليـهودى الحق هو الذى يعيش بطهارة على هدى التوراة واحـترام الوصايا واليـهودى الحق أيضا هو الذى يقدم مـشيئـة الله على شىء آخر . والآن وقد وصل الأمـر ببعض الناس الى حـد الظن بأن اليهـود الذين ظلوا على هامش المجـتمع وبأنهم يمثلون أقليـة متطرفة . . . وعندما تصل الأمور الى هذا الحـد لابد من الصمت لأن الكلام لم يعد مجديا».

ان لهجـة المعلم «شلاميّـه» ليست بجديدة على مـجتمع اليهـود الفرنسـيين . حيث أن فى جميع العصور كـانت فئة من الأرثوذكس المتشددين تحاول تحريك المياه السـاكنة فى الطائفة اليهودية لإعلاء فلسفة العزلة والإنغلاق فى عقول أعضائها.

بعد طردها من المملكة الفرنسية فى أواخر القرن الرابع عـشر لم تتمكن الجالية اليهودية من لم شملها مرة أخرى بمعنى الكلمة إلا عقب اندلاع الثورة الـفرنسية بأفكارها التحررية العظيمة التى شكلت مفاهيم العالم الجديد. فبعد أن أصبـح هؤلاء اليهود مواطنين بموجب مبادئها، حاولوا فى بادىء الأمر أن يندمـجوا فى وطنهم الجـديد وكان شغلهـم الشاغل هو أن يقنعوا البـيئـة المحيطة بتقبلهم بعد صـقل يهوديتهم بشعار الجنسية الفـرنسية المكتسبة. واستطاع نابليـون أن يستغل بمهارة هذه الطموحات فى مـحاولة لتذويب الشخصية الإسـرائيلية المتجنسة فى وطنها الجـديد، كما كان يرمى الى تجريد العقيدة اليـهودية القديمة من قيودها الجامدة ليجعل منهـا «ديانة موسوية» خاضعة لنظام الدولة .

وبدءا من هذه الفـتـرة أصبح الحـاخامـات أعـوانا للسلطة ومـهمـتـهم، المحددة بمرسـوم امبراطورى، تتلخص فى «تذكرة الناس فى كل المناسبات بالإلتزام بالقوانين وبوجه الخصوص بتلك التى تـتعلق بمسـألة الدفاع عن الوطن. . . وبإقـناع الإسرائيليـين بأن الواجب العـسكرى واجب

مقدس مع اخطارهم بأنهم طوال فـترات تكريسهم لهذه الخدمة معـافون بحكم القانون من الإلتزام بالفرائض الدينية التى قد لاتتناسب مع أداء هذا الواجب»

بيد أن هذه اللوائح التى كانت تستـهدف اضعاف نفوذ رجال الدين وكـسر نير الفرائض لم تكن بالشىء الكافى فى نظر الإمـبراطور. فلجأ بعد ذلك الى تطويق اليـهود فى اطار هيئة رقـابية شبيـهة بالتى كانت تفرض وصايتـها بالفعل على الطوائف الكاثوليكيـة والبروتستانتيـة، فتم انشاء مجلس ملـى مركزى فى باريس وخـمسـة عشر مـجلسا فرعـيا فى الأقـاليم لمتابعـة أحوال الدين والمؤمنين داخل مـعابد أطلق عليـها اسم المعـابد المليـة. وفى إطار هذه المعابد الجـديدة طلب من الحاخامات أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لإبعاد المعتقدات القديمة،عن عقول المصلين وعندما أصروا رغم كل هذا على استـمرار الفصل بين الرجال والسـيدات أثناء اقامة شعـائر الصلاة، ثار الكونت نيكولا فروشوه مأمور قسم «السين» فقال باسـتنكار: » ان حاخاماتكم جهلة ومشعوذون ويبدو أنهم يتلذذون، من كثرة انكبابهم على التلمود، بسلب عقول شعب الرعية (المصلين) ليستمروا على هذا النحو من العته».

ومنذ ذلك الحـين لم يتوقف أبدا الصـراع، الذى كـان يشتـد أو يهدأ حـسب الظروف بين التقليديين والأرثوذكس المتشددين، عن تحريك اليهود الفرنسيين دون هوادة، وظل فريق المتحجرين المتمسكين بحرفية العـقيدة يعارضون توجهات الحاخامات المليين المتفتـحة. وبصفة عامة ظلت كل محاولاتهم غير مجدية. ونظرا لمحدودية عددهم فلم يكن فى استطاعتهم أن يفعلوا أى شىء سوى رفع أصواتهم للشكوى الا ان هذا لم يكن له أى تأثير فعلى على مستقبل الطائفة.

وفى عام ١٨٥٦ عقـد المجلس الملى المركزى فى باريس مؤتمرا دعا فـيه القيادات الحاخـامية ولقد تضمن برنامجه الموضوعات الآتية:

تعديل برامج التعليم الدينى واخـتصار وقت الشعائر وادخال موسـيقى الأرغن فى المعابد. وعبثا حاول «سليمان كلاين» رئيس كهنة كولمار وزعيم تيار المتشددين الأرثوذكس أن يتصدى لرياح التحديث المجتـاحة. وبعد فترة وجيزة بعث برسالة مـستفيضة الى مؤسسى المدرسـة الحاخامية فى برلين ليحكى له فيها عن تكدره من تصرفات اليهود الفـرنسيين المؤسفة وقال: «يوجد حاخامات ـ عددهم قليل المجد لله ـ يكسرون قاعدة حفظ السبت وحتى ان لم يفعلوا ذلك فمن المعروف أنهم كسروه علانيـة حيث يجدف بعضهم على الملأ ضد التلمود. فى حين ينبـذ فريق آخر كل الوصايا الحاخامية. ويقوم فريق ثالث باضافة أو حذف بعض الشرائع وبالتمرد على الأعراف القديمة وذلك دون أن يوجه لهم المجلس الملى المركزى أى لوم. انهم يضطهدوننى لأننى أرفض الحداثة».

وبالرغم من كل الاحتجاجات العاصفة التى تزعمـها الحاخام الأكبر، كانت الطائفة اليهودية الفرنسية تمضى فى سبيلها نحو التطور بينما كان المجـتمع الفرنسى برمته يتجه نحو الانفتاح. وبناء

عليه وافق كل من مجلس الدولة والأكاديمية الطبية والجيش على قبول عدد من اليهود فى صفوفهم، كما تم تعيين البارون «جيمس دى روتشيلد» قنصلا عاما فى النمسا وشخص آخر يدعى «فرناند هالفن» قنصلا عاما فى تركيا. ولقد كتبت صحيفة «الوثائق الإسرائيلية» تقول بانبهار: «استقبل جلالة الإمبراطور وجلالة الإمبراطورة فخامة البارون دى روتشيلد صباح اليوم الذى شرف بالافطار مع أصحاب الجلالة». وبمناسبة حفل زواج جوستاف نجل البارون كتبت صحيفة [العالم الاسرائيلى» تقول بأسلوب غنائى ومشاعر جياشة: «بعثت كل من فرانكفورت وفيينا ونابولى (ايطاليا) وانجلترا سفيرا على الأقل الى هذه الأسرة العظيمة التى يفوق بريقها الأسر المالكة».
وهكذا بدأت اليهودية تندمج فى أرقى الأوساط العالمية بالرغم من استمرار اعتقاد بعض الناس بأن اعتناقهم الأديان الأخرى كان، على حد قول الشاعر «هنرى هان» هو «تذكرة دخولهم» فى محفل الطبقات الارستقراطية. «فأشيل فولد» اعتنق البروتستانتية ليصبح وزيرا و «جاك أوفنباخ» تعمد كاثوليكيا حتى يستطيع توصيل فنه الأوبرالى للأسرة الامبرطوارية الثانية فى عهد نابليون الثالث.
بيد أن هناك يهودا آخرين رفضوا مثل هذا التنازل حتى يظلوا أوفياء لشىء ما. وكان الشاعر «أوجين مانويل» من بين هؤلاء. مع العلم بأن بعض الأصدقاء نصحوه بنية صادقة بأن تغيير عقيدته سيفتح له ابواب الشهرة.. ومع مجاهرته بعدم ايمانه إلا أنه كان لايتوانى عن ترديد استنكاره للفكرة قائلا: «تغيير عقيدتى.. تصوروا انهم عرضوا على هذا الإقتراح.. وزعموا أنه من الحكمة أن أتخلى عن عقيدة لا أؤمن بها لأعتنق عقيدة أخرى لا أدين بها من أصله.. أعتقد أن دم ابراهيم لا يجرى هباء فى عروقى» بيد أن هذا الموقف لم يمنع الشاعر أبدا من التغنى بمزايا اختلاط الحضارات فى قصائده ومن هذه الأبيات:

«ثلاثة شعوب أصقلونى بما يلزمنى لأحيا:

الرومان والإغريق وشعبى العبرانى العريق

روما علمتنى القانون لأن كتابها مدرسة.

وأثينا «الجمال» وأورشليم «يهوه إلهها».

هذا، ولا تزال آثار بعض القرارت والتصرفات المهينة التى تحملها اليهود فى عصر الامبراطورية الأولى قائمة فى نفوسهم، منها على سبيل المثال قرار الإمبراطورة أوجينى بتعديل رسومات المعبد الجديد حتى لا يكون له منفذ رئيسى على شارع أوليفييه (شارع شاتو دان حاليا) بل يظل منفذه من باب جانبى فى حارة لافيكتوار الضيقة، واعتراض «جول فافر» فى الجمعية الوطنية على قرار تعيين «الحاخام الأكبر، خليفة وسليل قتلة يسوع المسيح» فى المجلس الأعلى للتعليم العام. إنما كل هذا اعتبره اليهود بمثابة أصداء لعهد من الماضى ولى وانتهى.

وفى نهاية القرن التاسع عشر شيد اليهود الفرنسيون معابد شامخة على طراز الكنائس. وكانت موسيقى الأرغن وفرق الكورال المختلطة تصاحب بألحانها مراسم الشعائر فى المناسبات والأعياد بينما كان الحاخامات يلبسون ثوبا أسود على غرار القساوسة الكاثوليك. وفى هذا الصدد روى الأديب «جابريال أستروك» فى قصة سيرته الذاتية، ذكرياته عن أبيه، حاخام معبد باريس الذى كان موقعه فى شارع بوفوه فى نهاية القرن الماضى، على النحو الآتى: «كان أبى يساير عصره. وكان لايخفى استياءه من استمرار حفظ السبت، فى عصرنا الحالى، للعبادة فقط، مما كان يضطر بعض المؤمنين الى المفاضلة بين المعبد ومتطلبات حياتهم العملية».

واستطاعت اليهودية فى اقليم ألزاس أن تصمد على هدى قدوة الحاخام كلاين: ففى عدد كبير من القرى كان المعبد والمدرسة يتكاملان فى حفظ العقيدة حية فى القلوب وفى جعل مسألة الإلتزام بالفرائض قاعدة سارية عن اقتناع على جميع شعب الطائفة.

ولم يلبث هذا العالم التقى الصغير أن يتلاشى مع اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى وتواجده فى الخنادق حيث توجه جيل من الشباب اليهود الذين انضموا سواء بالتطوع فى صفوف الجيش الفرنسى أو بالخدمة فى صفوف القوات الألمانية، الى الجبهة قبل تشبعهم الكامل بتعاليم التوراة. وبانقطاع شباب هذا الجيل لمدة أربع سنوات متصلة عن مصادر الإيمان الحى فقد ضعف ايمانهم وتخلوا من ثم نهائيا عن الإلتزام بالشعائر التى تلاشت بسبب الطامة الكبرى .

ومع هذا فقد ساهمت الحرب العالمية الى حد ما فى «تطبيع» وضع اليهود فى فرنسا بعد انتهاء كابوس فضيحة «درايفوس المؤرقة. حيث أذهل ولاء الجنود اليهود المطلق وبسالتهم أكثر من شخص من اعداء السامية الذين لم يكفوا ـ من قبل ـ عن التنديد بأعلى حناجرهم بخيانة اليهود. وفى كتابه «الأسر الدينية المختلفة فى فرنسا «كرّم المؤلف «موريس باريس» ، رئيس رابطة الوطنيين وأحد الخصوم اللدودين لليهود إبان فضيحة درايفوس ذكرى هؤلاء المقاتلين بسرده لبعض أعمالهم البطولية واختتم مدحه بالحديث عن رغبة اسرائيل المتحمسة فى الإمتزاج بالروح الفرنسية».

والرمز الدال على هذا الإنصهار بين اليهودية وفرنسا كان عندما سقط «ابراهام بلوك» رئيس حاخامات مدينة ليون، شهيدا على خط الجبهة فى تانترو فى اقليم الفوج فى أحد أيام السبت من عام ١٩١٤ بينما كان يحاول انقاذ الحالات الحرجة من المائة والخمسين جنديا الذين أصيبوا بوابل القصف المركز عليهم منه معسكر الألمان. وجندى من هؤلاء المنازعين، اذ ظن أنه كاهن كاثوليكى، طلب منه أن يعطيه صليبا. . فراح ابراهم بلوك يفتش عن مطلبه الى أن عثر عليه وأودع الصليب فى يد الجندى المحتضر. وبعدها بثوان معدودة دوت قذيفة وانفجرت فى الجندى والحاخام اليهودى والصليب ومزقت جسديهما أشلاء وفتتت الصليب وبصدد هذا المشهد كتب «باريس» يقول : «ان صورة الحاخام العجوز وهو يعطى للجندى الذى يحتضر علامة الصليب

الأبدية للمسيح الذى صلب ستظل محفورة فى الأذهان مدى الدهر «وعلى أثر هذه العبارة رسمت لوحات ونظمت قصائد، وكتبت روايات وشيد نصب تذكارى لتخليد نبل تصرف الحاخام للأبد حيث عمد البعض على تفسيره كمؤشر لقرب حدوث اخاء وطيد بين الأديان.

وفى ظل هذا المناخ الجديد لم يكن يوجد أى مكان لتيار اليهود الأرثوذكس المتشددين. ويحكى أنه عندما عين «جاكوب كابلان» كاهنا لأول مرة فى «ملهاوس» فى سنة ١٩٢٠ على وجه التقريب ـ وهو الذى أصبح فيما بعد رئيس كهنة باريس ـ جاء رئيس الطائفة ليزوره، الا أنه فى الواقع كان يريد أن يستفسر منه عن الموضوع الذى اختاره مرءوسه المبتدىء لخطبة ليلة الجمعة . . . وعرف أننى .

«سأتحدث عن قواعد النظام الغذائى ومطابقتها مع المسموح والمحظور فى الشريعة الموسوية».

فتكدر عند الرد وقال :

ـ ابتعد عن هذا الموضوع بالذات، لأن مساعدى لديه محل جزارة يبيع لحوما غير مطابقة للشريعة وعلى اية حال معظم أعضاء طائفتنا لايتبعون هذه القواعد . . .

ـ اذن سأتحدث عن قدسية يوم السبت.

ـ إنك تهرج .. قدسية السبت ؟ كل الحاضرون .. سيثورون ضدك.

ـ فى هذه الحالة سأتناول موضوع تعليم الأبناء . . .

ـ إياك لأن كلهم يتعلمون فى مدارس علمانية.

ـ عم تريدنى أن أتحدث أذن؟

ـ أمامك العقيدة كلها تحدث عنها بوجه عام».

وعلى نقيض الأرثوذكس المتشددين كان اليهودى الفرنسى يفلسف دينه من منظور اجتماعى بممارسة أعمال البر والتكافل . ففى يوم عيد الغفران (يوم كيبور) كان الموظفون العموميون من اليهود يذهبون الى المعبد بالقبعات وأفخم السترات لدفع العشور (التبرعات) التى تخصص لإخوانهم المساكين. وهكذا أخذت اليهودية الغربية تتطور الى حركة فضفاضة للأعمال الإنسانية.

وكانت الفكرة الرئيسية التى شغلت الطوائف اليهودية فى البلاد السمحة هى سرعة التحرك لاغاثة اخوانهم المضطهدين، من هذا المنطلق شهدنا انفجارا هائلا فى عدد المنظمات التى أسست بقصد اغاثة المكروبين فى كل المناطق البعيدة. وهرع «التحالف الإسرائيلى العالمى» الذى تأسس فى باريس، لبناء مدارس فى شمال افريقيا. بينما هيأت جمعية التوطين اليهودية فى نيويورك الفرصة

لتهجير يهود الشرق، وانبرت اللجنة الأمريكية المشتركة لتوزيع المعونات فى مختلف الأنشطة الخيرية وفى روسيا نفسهـا أسست منظمة النظام والتأهيل والعمل بهدف تأهيل الشبـاب اليهود على الحرف والصناعة والزراعة .

لكن الحرب العالميـة وما أعقبـها من احتلال ثم ترحيل لليـهود الى المنافى كل هذا أدى الى قلب تلك الترتيبات الهـادفة رأسا على عقب. وبعد عمليات الإبادة الجماعـية، رأت طائفة اليهود الفرنسيـين انه من الضرورى أن تعيـد ترتيب أوراقها ووجد عدد كـبير منهم فى الإلتـزام السياسى سبيلا للتـعبير عن هويتهم، ففريق من كـانوا نابعين أحيانا من صفوف حركـة المقاومة السرية ابان الحرب العالمية أو منتمين ، فى معظم الأحيان لفلول اليهود المهاجرين من روسيا أو بولندا، إعتقدوا أنهم سيجـدون فى الإستالينية فجر العـهد الجديد الذى يحلمون به، فى حين اتجـه فريق آخر من اليهـود الى الصهيونيـة فى محاولة للبحث عـن تحقيق استـقلاليتهم من خـلالها. وهكذا راحت الطائفة اليهودية تبحث عن مكان لنفسها فى العالم الجديد الذى بدأ يطل برأسه من بين الأنقاض.

فى عام ١٩٨٤ حـصل المخرج «ريتـشارد دمـبو» على جـائزة أوسكار أحسن فـيلم أجنبى وجائزة قيـصر أحسن قصة وجـائزة «لوى ديلوك» عن اخراجه لفيلم «قـفزات خطرة» الذى يتناول بصورة معبرة مصير اليهود من خلال رحلة حـياة علاّمة سوفييتى فى فنون لعبة الشطرنج. ونظرا لتدينه الشديد فقد كان هذا المخرج السينمائى يلتزم بأصول دينه أثناء التصوير حيث كان يأمر باطفاء الكاميرات مسـاء يوم الجمعة احتراما لقـاعدة حفظ يوم السبت للعبادة ومع صـباح يوم الأحد كان يبدأ تشغيلها من جديد.

ورحلة «ريتشارد دمبو» فى الحياة هى النمـوذج النمطى لرحلة جيل اليهود الذين نشأوا مثله فى فترة فتور العقيدة اليهوديـة فى ظل المجالس الملية وخاضوا بعد ذلك تجربة المغامرة والذهاب الى اسرائيل وعـندما أحسـوا بخيـبة الأمل انجذبـوا بسهولة للدوران فـى فلك تيار اليـهود الأرثوذكس المتشددين. وبما أنه نشأ فى أسـرة تقليدية ونما وترعرع فى بيئة غارقة فى «حلم أحـلام الصهيونية» على حد تعبيـره، فقد أمضى أول أجازة له فى الخارج، فى اسرائيـل. وهو فى الرابعة عشرة من عمره وكان ذلك فى عام ١٩٦٢ .

«كانت اسرائيل فى تلك الفترة بلدا رائعا ومختلفا كل الاختلاف عن فرنسا. لكن شعورا ما بداخلى لا أعرف له سـببا جعلنى أحس بالغربة فـى هذا البلد. وفى الحركة الصهيـونية التى كنت منضما اليها كانوا يحدثوننا كثيرا عن الشيوعية، ومنظمة المقاومة للعمل السرى، ويحفظوننا أناشيد وطنية الا أن كل هـذا لم يكن له صدى فى وجدانى لأنـنى لم أكن أتصور عالمى المثـالى على هذا النحو ولم أكن أتخيل أن يكون الـكيبوتز (المزرعة الجماعـية) هو محل اقامتى. فـما الذى جعلنى أخوض فى كل هذا دون التوقف لحظة للتفكير؟ ربما يكون السـبب الجوهرى على حد اعتقادى هو

ابتعادنا عن مساحة المجازفة فلم نكن مجرد تروس فى آلة تعمل وتتحرك انما كنا نقوم باسترجاع نماذج قديمة، أى أننا كنا نعيد توظيف ما كان موجودا. حيث ان نظام المزرعة الجماعية كان موجودا بالفعل فماذا نعمل بعد ذلك؟ كررنا التجربة نفسها على نطاق أوسع؟. بهذه الطريقة كان المستقبل أشبه بخزانة الحفظ. وفى لحظة بلوغ الهدف لا يكون فى وسعنا إلا تكريس كل وقتنا للدفاع عن الشكل الموجود بداخلها واستنساخ صور منه. أى أننا نعيش على غرار النبتة التى تحافظ على دورة حياتها بتكاثر الخلية الحية.. لكن الإنسان على النقيض من ذلك يحتاج الى مشروع جماعى أو فكرة ذكية لتحريكه. وفى اسرائيل شعرت بأن مايتبقى لى من العمر لابد أن أستغله حتى النفس الأخير فى عالم لا يعرف الحدود. وأيقنت أن المغامرة الوحيدة التى تتسم بهذه المواصفات هى مغامرة العقل فى سعيه وراء العالم والمعرفة والحد الوحيد فى بحور العلم الواسعة هو ما نستطيع الوصول اليه، كما التقيت هناك بناسك صينى يعلم اليوجا، وكدت أتعلم اللغة الصينية.. ولكن الى جانب كتيب تعليم اللغة الصينية، اشتريت كتيبا آخر للغة العبرية حيث كنت مقتنعا فى قرارة نفسى بتعاليم المعلم العلمانى «ليون أسكنازى» حيث كان هذا المربى قد أثبت لكل هؤلاء الجامعيين الذين يزعمون حسن المنطق لأنهم استطاعوا أن يفهموا فلسفة كانت، أنه يوجد مجال آخر للتبحر الفكرى من خلال التوراة التى لا تعتبر مجرد دستور من الطلاسم المبهمة التى عفا عليها الدهر بل سياقا تتبلور فيه صورة كاملة للنفس البشرية بكل أبعادها الجسدية والنفسية الاجتماعية والروحية.. وأيقنت أن التعمق فى البحث عن الذات يحتاج بالضرورة الى قيم ومعرفة وعدم انزلاق المرء فى تاليه الذات وعبادتها أو فى تدمير نفسه بادمان المخدرات. وفى نفس الوقت لم أفكر فى استشارة رجل الدين بخصوص أى شىء. حيث اننى لم أسمع أبدا فى المعابد التابعة للمجلس الملى التى ترددت عليها فى طفولتى، أى شىء من شأنه أن يهز نفوسنا ويستقطبنا بعيدا عن الفوضى المهيمنة علينا خاصة وأن رجال الدين كانوا يقومون فقط بدور حراس الرعية بأصواتهم المبحوحة أسوة بكلاب الحراسة الذين لا ينبحون. وفى سنة ١٩٧٢، عندما كنت فى سن الرابع والعشرين من العمر، تعرفت أخيرا على المعلم «روتنبرج» الذى كان معلما قديرا مثل معلمى الأجيال الماضية ولم يكن من فئة رجال الدين».

***

ان المعلم العلمانى «حاييم ياكوف روتنبرج» الذى ذكره «ريتشارد دمبو» كان أول من نشر تيار الأرثوذكسية المتطرفة فى فرنسا. وقد تعلم فى المعاهد الدينية ببولندا فى فترة ما قبل الحرب العالمية وهو الأمر الذى زوده حتما منذ لحظة وصوله الى باريس فى سنة ١٩٦٤ بقدرة السيطرة على النفوس بدون منازع. وكان منظر هذا الرجل بلحيته الطويلة المشتعلة بالشيب، ووجهه النحيف وعينيه اللامعتين يوحى لمن يراه أنه آت من عالم آخر برسالة من بشر انطفأ نجمهم. وكانت الأرثوذكسية اليهودية المتشددة شبه منعدمة فى داخل الديار الفرنسية حيث كان بعض المعلمين

العلمانيين من كبار السن الذين نجوا من معسكرات الموت، يأتون الى باريس ويحاولون زرع المدارس والمعاهد الدينية والمعابد فى أراضيها ولكن من شدة يأسهم من جسامة الأعباء التى تتطلبها منهم هذه المهمة كانوا يعرجون طريقهم صوب اسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية. وعكف المعلم «روتنبرج» وبصبر على تكوين خلية من أفراد الطائفة اليهودية. وبعد حين أصبح المعبد الكائن فى شارع بافيه، ذلك المبنى غريب الشكل الذى شيد على الطراز الزخرفى السائد فى مطلع القرن العشرين، معقلا للتطرف الدينى اليهودى، ان حفنة العجائز الذين كانوا يجتمعون آنذاك فى صحن هذا المعبد حتى لا يطأون بأقدامهم المعابد الأخرى المتفرنسة حيث كانت تدوى باللشناعة نغمات موسيقى الأرغن فى الأعياد، كانوا يمثلون البقية المتبقية من المتزمتين الخارجين توا من كهوف الجيتو. وعندما دخل «ريتشارد دمبو» لأول مرة فى المعهد الدينى بشارع «بافيه»، لم يجد فيه سوى ثلاثة طلبة ملتفين بتقوى حول معلمهم. ،ورحب الحاضرون فورا وبحرارة بهذا الشاب حيث كان يجسد فى عيون هذا التجمع الصغير أول علامة مبشرة عن قرب عودة كل طوائف الشعب اليهودى الظمآن للامتلاء بالقيم الروحية. ونظرا لتعامله السابق مع الحركات الصهيونسية واختراقه الخاطف للحضارات الأجنبية كان «دمبو» يمثل بالنسبة لهذا اللفيف من المؤمنين المتشبثين بالكتاب والشعائر عالما مجهولا. وبالرغم من غموضه كان ينطق بوجود الله.

ويتذكر «ريتشارد دمبو» موقفا تعرض له ويرويه بلسانه قائلا: «كنت كلما دعيت الى مائدة المعلم أطالب بسرد الحكاية التى عايشتها . . كان ذلك فى الصحراء الغربية حيث أمضيت ثلاثة أسابيع مع قبائل الطوارج وخلال هذه الفترة حرق طفل اصبعه وكان الجرح متقيا. فقمت بتطهير الجرح بقدر ما استطعت وأعطيته قرصين من السلفا ولم يكن لدى سوى انبوبة واحدة من هذه الأقراص . وفى اليوم التالى لم اجدها اذ كانت قد سقطت سهوا من علبة أدويتى. . عندئذ أخذت أتضرع الى الله وأقول له «ياربى لا أجدها أطلب منك شيئا لأجلس ولكن لابد أن أعثر على هذه الأنبوبة من أقراص السلفا ليس لشخصى ولكن لهذا الطفل الذى تتعرض حياته للخطر» . . وفى صباح اليوم التالى بينما كنت أتجول وسط الحجارة توقفت لحظة عن السير بدون سبب ووجدت الأنبوبة ملقاة أمامى وسط الحجارة.

هذه الحدوتة كانت السبب فى ارتفاع أسهم «دمبو» وسط عالم اليهود الأرثوذكس حيث كانت ترمز بالنسبة لحفنة اليهود المتعصبين المتقوقعين فى معقلهم بشارع «بافية» الى الأمل فى اطلالة أزمنة حافلة بالأمجاد على الشعب اليهودى فى المستقبل. ألم تكن هذه القصة كافية لتؤكد أن الله الحق يمكن أن يتجلى فى أقصى المناطق النائية من كوكب الأرض.

فكانت هذه الحدوتة بمثابة علامة مشجعة ومنشودة لأن المجموعة الصغيرة الملتفة حول المعلم «روتنبرج» كانت مثار ارتياب شديد من قبل القيادات اليهودية الرسمية ولا يزال يذكر «الياهو أوزان»، المدير الحالى للمدرسة الخاصة بهذه الطائفة ، جو الشك والنفور الذى كان يخيم على الأرثوذكس اليهود. ويروى بهذه المناسبة هذه الذكريات:

«عندما حضر المعلم «روتنبرج» الى باريس لاحظ أن اليهود المتدينين وخصوصا الطلبة الذين كرسوا أوقاتهم للتعمق فى التوراة، كانوا يعاملون كـطفيليين ينمون على حساب المجتمع: وبسرعة شعر بمعـارضة شديدة حيال وجـوده وعلى مضض وافق المجلس الملى علي تعيينـه كاهنا فى أحد المعابد واقتنع أنه لاينبغى أن يطمع فى أكثـر من هذا الوضع. وعندما أخطر المجلس بنيته فى فتح معهد دينى حـتى يتسنى لكل فرد حسبمـا تمكنه مشاغله أن يكرس فيه جزءا من وقـته ليعرف دينه أحدث مطلبه دوى انفجار القنبلة.. وأخـذوا يرددون أنه ينوى تفريخ مزيد من الطفيليين... وفى هذه الفتـرة تحديدا كان من الصعب على أى واحـد من الذين يكرسون وقتهم لدراسـة التوراة أن يعترف بذلك... ان المعلم روتنبرج مر بفترة فى منتـهى القسوة بسبب مشاحناته مع المجلس الملى الذى كان يراه بمثابة خطر على استقرار الطائفة اليـهودية. لكنه دأب على مواصلة معركته ليس من أجل عدم اهمـال مطلبه بشأن دراسة التـ راة وحسب بل أيضا من أجل أن تتيح مـثل هذه الدراسة الفـرصة لمن يجـتازها للتـدرج فى السـم الإجـتمـاعى. وأخيـرا نجح فى قلب الموقف على رأس معارضيه وأثبت أن التوراة تطهر القـلب وتنقى العقل وتدخل البهجة فى قلوب الناس... واليوم وقد مضت خـمس سنوات على رحيله نجزم بأنه انتصـر واستطاع أن يغير نظرة المجتـمع للمتدينين اليهود.

من الصحيح أن الـنظرة السائدة حيال الأرثوذكسـية اليهودية فى السـبعينيات هى اعـتبارها بمثابة شطط بسـيط وساذج من قـبل بعض الطوائف المغرمة بالإنجـذاب نحو الماضى. وطبـعا هذه الطوائف كانت من الناحيـة التاريخية تعتـبر جزءا من مكونات صورة المجتـمع الفرنسى ككل منذ قرابة قـرنين من الزمان. الا أنه كان، على مـايبدو، محكوما على تلـك الطوائف بأن تبقى على الهامش ومستبعدة للأبد.

ومن الصحيح أيضـا أن الجيل الذي ولد بعد الحرب كان يسعى الى تحقـيق غاياته من خلال طائفة يهودية نشطة ومتفاعلة. اذ كان يريد أن يعبـر عن يهوديته بعزة وفخر بعيدا عن طرق الدين. فكانت بعض القضايا مثل مـساندة اسرائيل والمعركة من أجل الطوائف اليهودية الحـبيسة فى الأتحاد السوفييتى والحرب ضد أعداء السامية وتخليد عمليات الإبادة فى ذاكرة التاريخ، والنهوض بمختلف أبواب الثقافة اليـهودية، تشكل معا جوهر هوية هذا الجيل. ويكفى أن نستـرجع الآن ما كان ينشر فى صحف الطائفـة فى ذلك الحين لنتأكد من مـدى التصميم على صـقل خاصية مـتميزة لليـهود الفرنسيين تتطلب منهم أن يكون لهم أدب وشعر ومسرح خاص يعبر عن هويتهم. وكان ذلك فى نفس الفتـرة التى كان يستقطب فيـها «إليا فـيسل» الى محـاضراته شـباب هذا الجيل من اليـهود الشغوفين باضفاء مضمون على يهوديتهم، حيث كـان يشعل حماس جيل بأكمله بأشعاره الصوفية المستـوحاة من عبق الماضى المستكين كما كان يـعبىء القوى النابضـة فى المجتمعـات حتي تمارس نفوذها كل بطريقتـها من أجل إطلاق سراح يهود الإتحاد السـوفييتى وكان يحـيى أيضا فى ملاحم حزينة وعميقة أمجاد أعمدة الحاسيدية الأوائل. فماذا تبقى من كل هذا؟.

لقد اختفت اليـهودية المتفاعلة الآن بتلاشى القضايا الكبرى . فـما الذى يصح التمسك به اذن ؟ ان قيام الهوية بالكـامل على ذاكرة التاريخ لايكفل لها الإستمرار طـويلا فى هذه الحالة فما هى المعركة التى تستحق خـوضها؟ هل تكون ضد شخصية مريضـة من شاكلة القس«بيير» الذى يهذى وهو فى خريف العمر بكوابيسه القديمة عن «جـماعة الضغط الصهيونية»؟ . أم ضد [باتريك سباستيـان» مؤلف الإسكتش الساقط عن «جان مارى لوبان »؟ كلاهما هدف هزيل اتـاحة مجتمع يؤرقه حرصه على مراعاة الإستقامة السياسية في كل مواقفه .

ان الفراغ الوجودى الذي غرقت فيـه طائفة اليهود الفرنسيين أسفر أحـيانا عن تآلفات غريبة وانحرافات ملفتة للنظر. فكانت حركة «فى صميم الإتصال» ـ اختصارها الكودى«أسيه سيه»ACC ـ تقيم الدنيا وتقعدها وتتهم بالتشنيع أية وسيلة اعلاميـة تصفها بطائفة مهرطقة الا أنها كانت تنتهج فى ذات الوقت بعض ممارسات هذه النوعية من الطوائف حيث كانت تستقطب المتوترين عصبيا من ضغوط الحياة والمستضعفين والمرضى وتبيع لهم ـ بمبالغ فادحة ـ جلسات علاج وهمى عن طريق الحوار مـعهم وتتربح من ترويج عـبوات السفـوف السحرى لهم وتغلـف كل هذا الدجل بحديث مشوش عن أهمية قوة الإرادة فى عمليـة الشفاء . ورئيس هذه الحركة تدعى [«كلير نوير»، والدها كان من الذين تم ترحـيلهم ابان الحرب، وهي لاتنكر هذه الحـقيقـة بل تجعلها مـحورا لرسالتـها فتبلور حولها بطريقة مذهلة تراكمات عـجيبة للربط مثلا بين السرطان والنازية. وباستطرادها فى التوغل فى تلك الفلسفة المريبة الى أقصى حد حتى وصل بها الأمر الى عقد ندوة فى «أوشويتز» التى تحولت، بموجب تحويرها العـجيب للمضامين المقترنة بها، الى مكان رمـزى لمقاومة الأمراض الجسمانيـة وقهر الهموم النفسيـة واعداد لا بأس بها من اليهود الضالين (المشـوشين) اعتقدوا أنهم عـثروا، فى هذا الأسلوب العـلاجى الذى يداوى الداء بالداء على طاقـة الأمل التى سـتجـعلهم يعاودون التعبير عن هويتهم بأسلوب جديد.

يرى «حاييم مـوزيكانف»، مدير الـ «كريف» وهو المصـطلح الكودى للمجلس التمـثيلى للمؤسسـات اليهودية فى فرنسـا، أنه حدثت بالفعل صحـوة دينية فى الطائفة اليهـودية كما لوحظ أيضا تباعد متزايد لبعض اليهود عن دينهم:

«فاليهود الذين كانوا يعربون عن هويتهم من خـلال مظاهر أخرى بعيدة عن الدين كمساندة اسرائيل والتضامن مع اليـهود المضطهدين، والحفاظ على ذاكرة الأمة اليهـودية، لايقرنون أنفسهم بالضرورة بالتـعريف الدينى للطائفة والخطر الحـقيقى الذى يطل برأسه يكمن فى وجـود فريقين متعايشين تحت مظـلة الطائفة وهما فى حقيقة الأمـر عالمان متوازيان ومتنافران. فـمن ناحية نجد فريق الذين يعتبرون اليهودية كيانا ديـنيا فقط وبعض هؤلاء لم ينشأوا أحيانا على فكرة التسامح مع الآخرين. وتجدر الإشارة بهذه المناسبة الى أن بعض المدارس اليـهودية تتبع سلوكيات تليق بالقرون الوسطى حيث قـامت بسحب كتاب لتـعليم اللغة الإنجليزية لأنه كـان يحوى بين صفحـاته صورة

فتيات ب (الميني.جيب) ومن ناحية أخرى نجد فريق اليهود المعتدلين الى حد ما فى تمسكهم بالدين والتقاليد حيث تعلموا دينهم بأسلوب التلقين. وعندما يحدثهم البعض عن قواعد الدين الملتزم يزوغ رشدهم ويشردون. ومن المحتمل جدا أن يصل الأمر بالبعض منهم الى حد الإبتعاد عن الطائفة . . . ولست أعرف ما اذا كان يصح أن نلصق بهذه الظاهرة لفظ تمزق أم شرخ أو فجوة، لكن على الأقل يوجد خطر سوء فهم ملموس بين هذين العالمين . . ومن الضرورى أن نفكر فى طريقة للتقريب بين هذين القطبين. اننا نتحدث دائما عن وحدة الشعب اليهودى وهو تعبير ظريف وايجابى ولكن ما الذى نفعله من أجل تحقيق هذا الهدف ؟ هل وضعنا برامج ثقافية ومناهج تربوية تفى بهذا الغرض؟ هل بادرنا بأنشطة من شأنها تهيئة ظروف الحوار فى مناخ من التسامح بين أعضاء الطائفة اليهودية؟ وبسبب كثرة الإنشغال بالقضايا الطارئة الملحة والظروف البيئية المحيطة الراهنة نسينا أن نعد مشروعات تعمل على تكتل صفوف وجهود الطائفة. فبالنسبة لأقلية محدودة من الطائفة لاتوجد أية مشكلات لأن شغلهم الشاغل هو الإلتزام بدين الله ولكن الطائفة لا تنتهى عند هؤلاء الأغلبية الباقية التى تتمثل فى كل الذين حادوا قليلا حاليا عن الطريق. ومن أجل انقاذ اسرائيل واخوانهم اليهود المهددين عبر العالم، كان اليهود الفرنسيون مستعدين فيما مضى لتنظيم كل الندوات الممكنة والمشاركة في كافة المظاهرات التى تخطر على البال، والمواظبة على نشر البيانات الواحدة تلو الآخر . ونتيجة كل هذا فان اليهود تمكنوا من انقاذ وشد عود اسرائيل التي أصبحت بلدا قويا . . أما نحن فماذا نفعل الآن؟ ان أكبر تحد يواجهنا ونحن على أعتاب الألفية الثالثة هوأن نعثر على المضمون الذى سنعطيه للهوية اليهودية فى دول المهجر . . . ».

وما بين الأرثوذكسية المتشددة واللامبالاة، أصبحت السمة الجديدة التى تميز الطائفة اليهودية الفرنسية تكمن فى توجهها الصريح الى التفرق بين هذين القطبين. أما عناصر الوسط المشوشة المكونة من اليهود الذين كانوا يعتبرون انفسهم من الطائفة فيما مضى لأنهم يأكلون طاجن السمك البلطى أو الكسكسى ليلة الجمعة فهم يبتعدون تدريجيا عن تلك الطائفة التى يشعرون بالضياع وسطها. واذا تمادى هذا التوجه فلن يكون أمام اليهودية الفرنسية سوى طريقين اما طريق الإندماج والذوبان أو طريق الإنغماس في الدين الى درجة التعصب ، أما مذهب الأثنينية وهو الإختيار الثالث الذى تفضل الأغلبية الأخذ به فهو طريق الإعتدال والوفاء والذى قد ينفع فى اعطاء مدلول ومضمون للعناصر الشديدة التى تبحث عن هوية ليهوديتها وحتى تتحقق التصورات فان العودة الى الدين تعكسها الأرقام على النحو الآتى. ونظرا لعدم وجود أرقام محددة محصاة بالأساليب العلمية فاننا سنعتمد على تقديرات «جان شارل زربيب»، المسئول عن قطاع الشباب التابع للصندوق الإجتماعى اليهودى الموحد. اذ يرى هذا المسئول أن أكثر من نصف اليهود الفرنسيين الذين يتراوح عددهم مابين خمسمائة ألف وسبعمائة ألف لم تعد تربطهم أية صلة

بالطائفة والربع الثالث يتصلون بها للرسميات (فى حالات الإنجاب أو الوفيات) والربع الأخير يشكل حجز زاوية التشدد فى الطائفة بيد أن الزاوية منفرجة للغاية لأن «جان شارل زربيب» ضمن فيها أيضا كل الذين لا يذهبون للمعبد إلا مرة واحدة فى السنة فى يوم الإحتفال بعيد الغفران. فى حين ترى كاترين جارسون الصحفية بجريدة «الحوادث اليهودية» Actu alite juive أن فئة المتشددين الأرثوذكس تضم فى حقيقة الأمر ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألف شخص فى فرنسا وهذا الرقم قد لا يمثل أكثر من ٢٪ من عدد اليهود الكلى الموجود فى فرنسا، إلا أن هذه النسبة فى سبيلها الى التزايد بسرعة حيث ان أكثر من نصف عدد التلاميذ المترددين على المدارس الدينية اليهودية ينتمون لأوساط غير متدينة.

فهؤلاء اليهود التائبون جاءوا اذن من مختلف الاتجاهات. وكلهم من الجيل الذى عاش الوهم ابان احداث مايو عام ١٩٦٨ فراحوا يبحثون عن طريقة لتحقيق الحلم الكبير الذى استولى عليهم فى مجالات أخرى. حيث وجد بعضهم طريقة فى قطاع الأعمال والسوق الحرة بينما راح فريق آخر منهم يبحث عن جذوره اليهودية فانضم للمعاهد الدينية. وبعض الذين استهوتهم فيما مضى التروتسكية والستالينية والماوية وسائر التيارات اليسارية الأخري وجدوا في التلمود والإلتزام التام بالشرائع الموسوية ملاذا يعوضهم عن احباطهم. وأمام دخول مثل هذه العناصر في الطائفة يتظاهر أولو القوم اليهود بالذهول اذ يستخلصون من تحول تلك العناصر الى العقيدة اليهودية الدليل الدامغ علي تفوق المشيئة الإلهية بما يفيد بأن كل هذا يحدث بسماح من الله علما بأنه من البدهى لايوجد شيء أقرب الى الفكر اليهودى المتشدد مثل العقيدة اليسارية الكاملة حيث أن القالب مماثل فى الحالتين: اذ نجد نفس ترتيب الأفكار فى نفس الإطار الجامد، ونفس الإلتزام المطلق والأعمى بالقواعد ونفس الإنتماء للنخبة المحدودة التى تمسك بمفاتيح الحقيقة فى كل من المذهبين، أن هؤلاء المتعصبين لـ « الليلة العظمى» سابقا يناضلون الآن بنفس حماس نضالهم السالف من أجل أن يعجلوا بحدوث الحل الحتمى الذى سيكلل التزامهم بالنصر. فبالأمس كان لابد من تعجيل شيوع الماركسية باعتبارها الحل المعصوم من الخطأ الذي سيعجل بحتمية حدوث الثورة الشاملة فى العالم. أما الآن فالمقصود هو تهيئة الظروف المواتية لتجلى المسيًّا المنتظر الذى سيأتى حتما. وهم دائما النخبة المطلعة على الأسرار، التى تلم ببواطن الخطة الكبرى التى تتجاوزهم والتى يشكلون طلائعها .

وكما هو واضح، فان التناقض لا يكمن دائما حيثما نتوقع وجوده. والأرثوذكس على سبيل المثال لايكفون عن التدليل على تحضرهم من خلال استخدامهم البارع للإنترنت والحاسب الآلي. والواقع أن رجال الدين اليهودى يستخدمون بغزارة التسهيلات التى تتيحها التكنولوجيات الحديثة وانشرحت صدورهم حينما أدخلوا نصوص التلمود وتفاسيرها على شاشات الكمبيوتر. وهذا يوضح أن الدقة شبه العلمية لاستخدامات الكمبيوتر تتطابق تماما مع حاجة الأرثوذكس الماسة

الى التطور فى بيئة محكومة بالإرشادات. فعلى غرار الشريعة الموسوية، شاشة الكمبيوتر محكومة بحدود لايمكن تجاوزها، شأنها فى ذلك شأن التقليد الدينى الذى يوضح فيه سهم صغير بيسر الصراط المستقيم للمؤمن

كما يوضح أيضا مدى طبيعية وتوقيعه ومنطقية أن يكون معظم أساتذة الشريعة، الذين تعلموا خارج نطاق المعاهد الدينية اليهودية، من خريجى الكليات العلمية المتخصصة فى أدق فرعيات العلوم البحتة . اذ يجدون فى تطبيقات قواعد الدين الجديد بحذافيرها نيرا حديديا بديلا ومطمئنا.

وبدون هدف أو تخطيط شعر جيل العقد الأخير من القرن الحالى بأنه استعاد هويته الضائعة لدى انضمامه للتيار الأرثوذكسى المتشدد. ومقارنة بالأسلوب الرتيب الممل لعدد كبير من حاخامات الطائفة فقد أبهر بسهولة تيار التعصب الذى تنحصر رؤيته القاصرة المنغلقة بالسير فى اتجاه واحد جيل هذا الشباب المشتت. ولقد لمس المعلم «اسحق ويل» مدير المعهد الدينى اليهودى فى « (اكس لى بان)هذه التقوى الدينية الناشئة حيث انه بناء على تشجيع من الأهالى، تتزايد الآن اعداد التلاميذ الذين يتركون مدارسهم فى سن الرابعة عشرة من عمرهم لتكريس كل وقتهم لدراسة العقيدة اليهودية.

ومما سهل ظهور مثل هذه الاتجاهات المتطرفة هو وجود أغلبية من السفارديين القادمين من شمال افريقيا بعاداتهم وموروثاتهم الطقسية المتأصلة فى وجدانهم، فى قلب الطائفة اليهودية الفرنسية. والحقيقة وبدون مواربة يقولها صراحة المعلم «جيرار ريزاك» مدير معهد الطلبة الدينى فى باريس: «بدون جالية السفارديين ما كان وجد يهود متدينون فى فرنسا».

من الصحيح أن قدوم هذه الجالية اليهودية من شمال افريقيا قد أحدث تغييرا عميقا داخل الطائفة. وتحت وطأة شعورها بالغربة فى فرنسا، هذه الدولة التى تجهل كل شىء عنه، فقد أحست هذه الجموع بأثر الصدمة الثقافية عليها فور وصولها، ونبراسها الوحيد فى هذا البلد كانت الطائفة اليهودية ولم يشعروا بوجودهم فعلا الا فى اطارها. لكن تمسكهم بالطقوس كان أشد بكثير من تمسك معظم اليهود الأشكناز بها لذا من أجل ارضاء هؤلاء القادمين الجدد حدثت طفرة كبيرة فى أعمال البنية الأساسية والإنشائية لتشييد محلات لبيع الأغذية المطابقة للشريعة ومدارس ومعابد.

واليوم ٩٠٪ من تلاميذ المدارس الدينية اليهودية الموجودة فى فرنسا هم من السفارديين. واذا كانوا يلبسون السترات والقبعات الكبيرة السوداء على الطريقة الليتوانية فان أغلبهم من منطقة المغرب أساسا. ونستطيع أن نتعرف من خلال ظاهرة هذا التطابق الغريب على آثار الصدمة الناجمة عن عمليات الإبادة الجماعية التى تعرض لها اليهود على يد النازى. ونظرا لأن الطوائف السفاردية قد رحمت من هذه التصفية فان أبناء أجيالهم التالية جاءوا ليحلوا مكان اليهود الذين أبيدوا جميعا

فى المحارق البشرية فى أوشويتز. لقد أرادوا بذلك أن يسدوا الفراغ الذى أوجدته عمليات الإبادة الجماعية وأن يأخذون نصيبهم من قدر الشعب اليهودى فيتحملوا لاحقا عبء المأساة التى عاشها هذا الشعب ويتشبهوا بالنموذج الذى رسموه فى أذهانهم للضحية. وتمشيا مع هذا التصور فقد بلور أعمدة اليهود السفارديين فكرة أكثر تعقيدا بصدد أعمدة اليهود الإشكناز الأكثر تطرفا. واعتقدوا بذلك أنهم عثروا على النموذج الأصيل لليهودى الطاهر فنبذوا بالتالى اسلوب عبادتهم التقليدية الهادئة الذين تربوا عليها فى منطقة شمال افريقيا ليذوبوا شكلا وموضوعا فى أشد تيارات الأرثوذكسية الليتوانية تطرفا.

ويعتقد المعلم «زيزاك» أن النموذج السفاردى كان سيتلاشى بعد انتقاله من مكانه الأصلى وأعرب عن هذا الرأى بقوله : «فى شمال افريقيا كان الصدام شبه منعدم مع المجتمع العربى. أما هنا فعلى العكس فان الصدام مع البيئة المحيطة شديد جدا ومن ثم مطلوب منا أن نصقل عقيدتنا جوهريا وأن نتعمق فى دراستها لأن التوسع في معرفتها أصبح أساسيا ، لقد عشت سبع سنوات فى « كريتاى» واستطعت أن ألاحظ خلال هذه الفترة أن الذين كانوا متوسطين دينيا فى الدار البيضاء أو من غيرها من المدن العربية أصبحوا أكثر تدينا فى فرنسا . . . فهناك كانت مسألة اتباع قوانين الشريعة فى الأمور الغذائية تصرفا تلقائيا أما هنا فان الإلتزام بهذه القواعد أوبقاعدة تكريس يوم السبت للعبادة يتطلب الإلمام بفحواها . ومن هنا كانت ضرورة أن نبدأ بدراسة المنبع نفسه.

أما الأستاذ . «يوسف فنتون »، رئيس قسم الدراسات العبرية بجامعة استراسبورج فيعرب عن أسفه لتضاؤل التراث السفاردى قائلا:

«أن حرارة تقوى السفارديين أثناء الصلاة واقبالهم بتفاؤل على الحياة وتمسكهم القوى بعقيدتهم كل هذا اختفى مع ذوبانهم فى تيار الأرثوذكس المتشددين اذ حدث ذلك نتيجة لفصامهم عن ماضيهم فى شمال افريقيا بسبب هجرتهم وصدامهم مع البيئة الجديدة، فانفصالهم عن تراثهم لم يعوضه زمام الأسرة حيث أن الخلية الأسرية فقدت جزءا من قدرتها على السيطرة علي أبنائها فى المجتمع العصرى الذى تعيش فيه . ووصل الأمر الى درجة أن أبناءهم الملتحقين ببعض المدارس اليهودية فقدوا احترامهم لطقوسهم الموروثة وعدد كبير من هؤلاء الشباب يقولون الآن لآبائهم: (كنتم تلتزمون بالشعائر بطريقة روتينية وبدون وعى أما نحن فنرجع الى النصوص لنفهم سياقها) اوفى لمح البصر نبذوا كل موروثاتهم الأصيلة التى أتوا بها من شمال افريقيا. حيث تخلي السفارديون عن كل تراثهم من الألحان والعادات والشعائر الخاصة بمواسم الأعياد كما كانت تؤدى فى موطنهم الأصلى بغرض محاكاة النموذج المستورد من ليتوانيا.

بيد أن هذا «الإنسلاخ» لم يكن كاملا في الواقع حيث أنهم غيروا الظاهر (شكل ملبسهم) لكنهم ظلوا أوفياء للجوهر الأساسى. لأن الجذور الثقافية للسفارديين مستمدة من التوراة ذاتها وسمعت من المعلم دانيال هيمان ، مدير المعهد الدينى اليهودى بحى «ايينيه سورسين» أنه عندما يفضل واحد من أبناء العائلات الاشكناز أن يكرس نفسه لدراسة التلمود يقع هذا الخبر كالكارثة على الأسرة بينما ابداء نفس الرغبة قابل بالتهليل والفخر . . . فى الأسر السفاردية .

ان الشرخ الموجود بين اليهود الأرثوذكس وبين اليهود التقليديين يكاد لايحس به عند السفارديين اذ أنهم يعترفون بوجه عام بوجود قواعد راسخة للسمو الدينى بصرف النظر عن بعدهم عنها سواء بسبب التزاماتهم المهنية أو ظروف الحياة والدليل على ذلك أنه عندما يأتى بعض الحاخامات السفارديين الأرثوذكس من إسرائيل الى فرنسا لإلقاء بعض المحاضرات فان جمهور الحاضرين لا يضم المتطرفين فقط بل خليطا من مختلف النوعيات التى حضرت لتستقى بعض الحكمة من هؤلاء القمم الرفيعة وبوازع الموروثات من العادات الباطلة بالإضافة الى التقليد كانت هذه الحشود تنتظر بالساعات حتى تحصل على أى حرز أو بركة من يد هؤلاء الوعاظ لتجلب لها الحظ.

ورأينا كيف نما نشاط تجارى، بالمفهوم الصريح لهذه الكلمة، ومتخصص فى هذه النوعية «من احراز البركة حول شخصية الشيخ المعلم«اسرائيل أبو حصيرة» الذى يلقبونه باللغة العربية «باباصلًى» حيث أن هذا الحكيم المغربى قد ذهب للحج فى القدس ووافته المنية فيها فى سنة ١٩٨٤ . ان صورة هذا الشيخ الوقور شاع توزيعها بين الناس أسوة بأى مشروب شائع من المياه الغازية، كما نراها ملصقة على الشمعدانات أو الميداليات، ومقبرته أيضا تحولت الى مزار مقدس ويحرص بعض اسلافه على تنظيم الرحلات للراغبين فى زيارته بكل دقة كما يحرصون أيضا على تخليد سيرته.

لقد ترك «باباصلًى» فى وجدان الناس صورة رجل حكيم ذى قدرات خفية كان يصنع معجزات بقوة صلواته، فكان المرضى والنساء العقيمات والبؤساء يستردون الصحة والخصوبة أو الثروة بفضل تضرعه وشفاعته من أجلهم لدى الخالق. ومعجزاته لاتحصى. ويحكى أنه حدث ذات يوم في المغرب وفى مدينة «تفلت» تحديدا أن وجد هذا المعلم الوقور نفسه جالسا فى إحدى المناسبات الرسمية الي جانب حاكم كان معروفا باضطهاده لليهود. وكل واحد كان يرتعد داخليا خوفا من هذا الطاغية المستبد فى اقليمه، ومع ذلك فقد حضر الجميع ليحيوه بكل احترام. . أما بابا صلًى فلم يكتف بالامتناع عن مصافحته بل وبخه بشدة وقسوة لمعاملته السيئة للطائفة اليهودية: فتوعده الحاكم وقال له وهو غاضب: «سيأتى اليوم الذى سأنتقم فيه من وقاحتك!.

لكن باباصلًى طمأن بهدوء تلاميذه المرتعدين قائلا: سترون بعيونكم، فى القريب العاجل سيطلب مني أن أصفح عنه».

وفور عودة الحاكم الى داره أصابته الرعشة وحار الأطباء الواحد تلو الآخر فى علاجه واخذ المرض يتفاقم، وأيقن الحاكم أن الله يعاقبه لأنه تطاول على رجل صالح وقديس. فأوفد رسولا الى باباصلىً لكى يستسمحه ويطلب منه المغفرة ويؤكد له انه لن ينال أبدا من اليهود الموجودين طرفه. عندئذ وافق هذا الشيخ الوقور على أن يباركه وشفى الحاكم بعدها.

ان هذا القصص الشعبى عن التصوف ليس سوى شكل من السُّنَّة ويمكن تطبيقه على عدد لا بأس به من المعلمين. وفى المقابل يأخذ تقديس هذا المعلم المغربى بعدا آخر عندما نعلم أنه كان نصير أشد أشكال التطرف الظلامى حيث تصدى بعنف لمشروع منظمة «الرابطة الإسرائيلية العالمية» بشأن افتتاح مدرسة فى مدينة «تفلت» التى يعيش فيها، والسبب فى هذا الرفض أن تلك المدرسة ما كانت ستكتفى بتعليم الديانة اليهودية فقط بل كانت تنوى أيضا تزويد تلاميذ هذا الإقليم الجنوبى من دولة المغرب بتعليم كان سيساعدهم فيما بعد على مزاولة مهنة تدفع عنهم شبح البؤس. لكن معرفة ثقافات مختلفة ربما كان سيبعد هؤلاء التلاميذ عن الدين ولم يتردد باباصلّى عن توجيه أقصى اللعنات لكل الذين حاولوا الإتصال بمندوبى «الرابطة». وأثناء غياب المعلم فى احدى السفريات تحينت المنظمة اليهودية الفرصة واستأجرت مبنى وافتتحت فيه المدرسة المرذولة. وعند عودته هاج وماج باباصلّى كالعاصفة وتنبأ بأن الموت سيضرب فى نفس العام الإهالى الذين تهوروا فى ارسال ابنائهم الى هذه المدرسة الشيطانية! وما كان بعد ذلك إلا أن اضطروا هذهٔ المدرسة الى إغلاق ابوابها. ولكن سكان «تفلت» اليهود اضطروا أيضا الى أن ينتظروا طويلا قبل أن يتمكنوا من الهرب من حى «الملح» الذى كان مأواهم فى تلك المدينة.

***

ان سيرة باباصلّى المخلدة بعناية. وحب ساعدت تيارا معينا من اليهود السفارديين على الاختلاط فكرا وفعلا بتيارات العالم الأشكنازى الأشد تطرفا. ومنذ فترة تقريبا لوحظ فى الطوائف الأشكنازية والسفاردية معا ازدياد تعقيد وتفشى الأرثوذكسية المتعصبة بشكل مخيف فى مسألة الشعائر والطقوس.

ولا شك أن هذا الالتزام المحموم باحترام الشريعة اليهودية يستوجب ـ بطبيعة الحال ـ انغلاقا وانطواءً خطيرا على الذات أولا ثم فرزا لكل الذين لا يلتزمون بشكليات تطبيقها بعد ذلك. والظاهرة الصريحة لهذا التوجه الجديد لا تزال تتمثل حتى هذه الساعة فى أنعدام التفاهم بين المتناقضين واصرار كل منهما على موقفه. فرجال الدين يأخذون قالب التطرف بينما يتحول التقليديون المسالمون الى علمانيين مناضلين. وهكذا تشوه نموذج اليهودية الفرنسية نتيجه لهذا السعى المتصوف الجنونى عن الطهارة الافتراضية والأصالة الوهمية للعنصر اليهودى المقتبسة من الماضى البعيد الذى يعاد تفسيره بمنظور عاطفى من منطلق الحنين لهذا الماضى.

وقد تمسكت اعمدة التيار الأرثوذكسى بقوة بهذا الإيمان المتعمق ونقوة أتباعهم الجدد فى اقتحام جميع آليات الطائفة. وهذه المسألة غاية فى البساطة خاصة وأن المثقفين المنفتحين على العاصمة لا يشغلون بالهم بنشاط الطائفة الداخلى حتى يتفرغوا لأعباء التمثيل الخارجى حيث أن المشاركة فى الندوات أو البرامج التليفزيونية، وتأليف الكتب ونشر المقالات تعتبر من الأنشطة المشبعة جدا على المستوى الشخصى أكثر من مواجهة المشكلات نفسها. ومن ثم فقد تركوا جميع مواقع السلطة الحقيقية وخصوصا المجمع الأعلى لليهود (وهى المحكمة العليا للأمة اليهودية) وأيضا الكلية الإكليريكية لكل الذين يسعون الى تسيير نظام العزلة والإنغلاق.

ويشعر بشدة«شمويل تريجانو» مدير مدرسة الدراسات اليهودية ومؤلفة العديد من الكتب حول مستقبل اليهودية الفرنسية، بقبضة هذا التيار الأرثوذكسى المتشنج علي الطائفة ويعبر عن ذلك بقوله:

«ان العودة الى العقيدة اليهودية فى حقبة الثمانينيات طغت عليها بصمة الأرثوذكسية المتطرفة وهو الأمر الذى أسفر بالتبعية عن عدم شرعية نموذج «اليهودية المتحضرة» الذى شاع بعد الحرب العالمية الثانية ... فكانت يهودية ذات سرعتين هى التى استقرت ولكن لائحة الجناح الأشد تطرفا فيها هى التى أصبحت القاعدة العامة ومصدر السلطة فى نفس الوقت».

ونفس الملاحظة أبداها البروفيسور «فنتون» قائلا نظرا لأن أرثوذكس التيار الليتوانى هم الأكثر التزاما والأكثر ديناميكية فقد تقلدوا مواقع رئيسية في الطائفة. واستتبع ذلك تشدد واضح خصوصا في مجال التعليم وحضرت أحد اجتماعات نظار المدارس اليهودية، فكان ٩٠٪ منهم من العالم الأرثوذكسى المتشدد الذى يفرض تعليما موجها على تلك المنشئات.

وفى المدارس اليهودية أصبحت مادة التربية الدينية بالفعل فى أغلب الأحيان من اختصاص مدرسين ظلاميين ومتحجرين من خريجى المعاهد الدينية الإسرائيلية. ويدخلون فى فرنسا الفكر الليتوانى بروحه المنغلقة في وجه الحضارة الأوروبية ويلقنون لأجيال من التلاميذ أنهم لكى يكونوا يهودا بمعنى الكلمة لابد أن يلتزموا بهذا النموذج من الإنغلاق والإنطواء على الذات. وفى العام الماضى حدث لأستاذ تاريخ يدرس اثنتين من كبريات المدارس التقليدية في باريس بأن وجد نفسه مستهدفا من عصابة حاخامات هذه المدارس.. لأن الفاجر كان يريد أن يعلم التلاميذ أن الشريعة اليهودية قد تطورت عبر العصور ... وتلك فضيحة بالنسبة لرجال الدين الذين يغرسون فى العقول أن الشريعة السماوية ثابتة لاتتغير. ولقد ضغط هؤلاء على أولياء الأمور حتي يحتجوا على هذه الجريمة المقترفة في حق الدين القويم، كما نصحوا أيضا التلاميذ بعدم حضور هذه الحصص التى تدنس الثوابت المقدسة. واضطر المدرس ازاء هذه الحملة أن يتراجع ويكتفى بتركيز حصصه حول تاريخ مدينة القدس فقط.

وفى المدارس الأرثوذكسية تبدو اللهجة أكثر سفورا بالطبع «فالياهو أوزان»، مدير مدارس الطائفة الأرثوذكسية اليهودية التى تضم ثمانمائة تلميذ في باريس والمنطقة التابعة لها، يقول صراحة ان اختيار التلاميذ يتم بناء على مواصفات محددة بعناية حيث يتعين على الأمهات أن يغطين شعورهن وفقا للسنة اليهودية والشرط الأهم ألا يكون لدى الأسر تلفاز.

ويستطرد «الياهو أوزان» كلامه قائلا: «الكل يعرف الآن أن التلفاز يخرب النفوس . اذ يواظب يوميا على تلقين العنف للأطفال . . إن نقضنا لهذا الجهاز ليس خيارا دينيا إنما من أجل مصلحة النشء تربويا حيث نعلم من خلال أحاديثنا مع زملائنا العاملين فى مدارس أخرى أن الأطفال الذين يتسمرون بالساعات أمام الشاشة الصغيرة يحضرون مجهدين الى المدرسة فى اليوم التالى. وأى استاذ علم نفس مجبر الآن على مواجهة حالات الضغط النفسى والإرهاق والعدوانية ومشاعر الحسد والغيرة التى تتولد في نفوس الأطفال من جراء مشاهدتهم للإعلانات. . إن التليفزيون هو السبب في كل هذا . . . ولكن من الصعب ان نلزم الجميع باحترام هذا الرأي لأن البعض سيصيحون بأعلى حناجرهم للتنديد بتطرفنا. . حيث انه من السهل جدا على أي شخص أن يحور موقفنا ليجعله مادة للسخرية اذا أراد ذلك. . ».

من المؤكد أنه لم يعد هناك حاجة لإثبات كم السلبيات التى تتضمنها بعض البرامج التليفزيونية بيد أن هذا الإصرار على نبذ الشاشة الصغيرة لا ينبع دائما من مجرد «الحرص على سلامة تربية النشء» اذ أن هذا الانفتاح على العالم يعتبر منفذا للافلات من طرق التوراة المستقيمة، والأرثوذكسية تدعو تحديدا لنبذ العالم واحتقار التعليم العلمانى.

ويعرب البروفيسور «فنتون» عن قلقه بهذا القول: «ان الطائفة اليهودية يمزقها انقسام عميق اليوم. وعدت شخصيا لأعيش فى استراسبورج بعد غيبة سبعة عشر عاما عن هذا البلد وصدمت ايما صدمة عندما وجدت انها طائفة غريبة عليّ فعندما تركتها كانت هذه الطائفة متسقة تماما أما الطائفة التى أراها الآن فهى منغلقة وممزقة شيعا وطائفيا».

وحدث فى استراسبورج تحديدا أن تجاسر أحد الكهنة من فوق منبره وصرح أمام شعب المصلين المذهولين بأن اليهود الليبراليين أسوأ من النازيين: «لأن هؤلاء فحموا أجسادنا فى حين أن الليبراليين يفسدون ارواحنا».

ويرى البروفيسور «فنتون» أنه من الضرورى التحرك من أجل التصدى لهذا التيار الشارد وبناء على كلامه: «ان هذا العالم يدعو الى الانغلاق وهذا التوجه يعتبر دخيلا على اليهودية الأصيلة لذلك يتعين على اليهود أن يتكتلوا فى جبهة واحدة لافتضاح هذا الشكل من الممارسة الذى لا يمثل على أية حال سوى ركن بسيط من اركان اليهودية الأشكنازية، كما أنه لايمت بصلة لسمات اليهودية البولندية التى كان يؤمها تيار الحركة الحاسيدية الذى كان الى حد ما أكثر تفهما لمفاهيم الصهيونية وأكثر تقبلا لفكرة تطوير «الحالاخا» (أى مجموعة القواعد والشرائع التنظيمية لحياة الأفراد مدنيا و دينيا). كما كان وبصفة خاصة بعيدا كل البعد عن هذا الزهد الشديد الذى نلمسه فى خريجى المدارس الدينية الليتوانية. هذا بصرف النظر عن عالم السفارديين الذى يتميز أيضا بأصالته..».

ولد "الحاخام آلان ميشيل" فى مدينة نانسى. وبعد أن أمضى عشر سنوات فى اسرائيل عاد إلى فرنسا لمدة عامين بغية تنظيم طائفة مطابقة لنموذج المحافظين الأمريكيين المؤيدين لفكرة تطوير الشريعة اليهودية. وفى حديثه عن طبيعة الطائفة التى ترعرع فى أحضانها فى هذا الإقليم يذكر أنه: "كانت تعيش فى نانسى طائفة صغيرة لا تعرف من الدين إلا القليل. وكان عمى صاحب محل جزارة يبيع اللحوم المسموح بأكلها طبقا للشريعة اليهودية حيث كان زبائنه يلتزمون بهذه القواعد بحكم التقليد وليس أكثر. خلاصة القول انتهى به الأمر بأن أفلست تجارته.. فراح يعمل بعد ذلك فى محل جزارة عادى وعدد لا بأس به من زبائنه داوموا على التعامل معه فى موقعه الجديد وكل احتياجاتهم من اللحوم أخذوا يشترونها من هذا المحل. حيث شعروا بذلك بأنهم يحافظون على التقليد الموروث. والواقع أن الطائفة التى عرفتها كانت منفتحة وأى شخص كان يشعر بالارتياح فى مجتمعها أيا كانت أراؤه أو طريقة تطبيقه للعقيدة اليهودية. والكهنة كانوا يفضلون بالتأكيد أن يكون شعب الطائفة جميعهم متدينا لأن هذا واجبهم. ومع ذلك كانوا يتحدثون مع كل الناس. والآن قرر الأرثوذكس الجدد فرز (وهو التعبير الدينى عند اليهود ومعناه استبعاد) كل اليهود المختلفين عنهم.. فاليهودى من منظورهم هو الذى يلتزم بقواعد الدين وفقا لمعاييرهم وإلا فلا يمكن اعتباره من هذه الملة بمعنى أنه إما أن يكون يهوديا ملتزما وإلا فلا وجود له بالمرة. ومبدأهم المطروح بشكل قاطع يقتضى من الفرد اليهودى أن يسعى دائما إلى مزيد من الزهد والتقشف ولا شك أن هذا السعى الدءوب لبلوغ أقصى درجات الأرثوذكسية يؤدى تلقائيا إلى استبعاد كل الذين يرفضون الدخول فى هذا السباق، ان رؤساء الطائفة المجذوبين إلى تيار الأرثوذكسية يفضلون أن يكون عدد أعضائها محدودا شريطة أن يكونوا مطابقين للمواصفات المرسومة فى أذهانهم عن اليهودى الحق بدلا من أن تجمع أعدادا من اليهود من مختلف التوجهات. ومن الصعب إحكام السيطرة عليهم حيث نسى هؤلاء الرؤساء أن الحرية لم تلزم أحدا من اليهود بالاحتفاظ بهويته وعقيدته بل جعلت هذه المسألة اختيارية. وبمنتهى البساطة يريد الأرثوذكس أن يعيدوا عزله عن العالم وانغلاقه . لقد تسبب هذا التيار المتشدد بعد عشر سنوات من إحكام قبضته على الطائفة فى تعجيل انصهار عدد كبير من أعضائها فى نسيج المجتمع المحلى، فاشتداد نواة الأرثوذكسية أحدث قوة طرد جبارة فى محيط الطائفة. قد يرى البعض أن ظاهرة الإنصهار كانت ستتفشى حتى فى حالة عدم وجود هذا التيار الدينى المتطرف المتحكم، لكننى لا أظن أن هذا الرأى صائب بل أعتقد أن العكس هو الصحيح".

وحتى عهد قريب كان مفتاح نجاح الطائفة اليهودية الفرنسية يكمن فى اتساع قاعدتها وانفتاحها وتسامحها بحيث يستطيع أى فرد أن يجد نفسه فى وسطها. وعلى مدار قرن كامل لم تتمكن الحركة الليبرالية رافعة راية اليهودية العصرية، من الانتشار فى فرنسا. وإذا كان من الممكن أن يظل الفرد ليبراليا مع استمرار تردده على المعابد الملية فما الذى يضطره إلى تكوين جماعة موازية ؟

وحفاظا على هذا التوازن بين مختلف التوجهات الموجودة فى الطائفة لم يكن المجلس الملى يعين كهنة للطائفة الا من طلبة الكلية الأكليريكية فى باريس. وإزاء النقص فى عدد المستعدين لتحمل أعباء هذا المنصب وظهور بعض التيارات الظلامية، وافق المجلس على تعيين خريجى المعاهد الدينية القادمين فى معظم الأحيان من اسرائيل فى هذه المناصب. ويشير المؤرخ "فيليب بوكارا"، الذى كان يتابع غن كثب التغيرات التى تشهدها الطائفة، إلى المساوئ التى أفرزتها تلك السياسة بقوله:

"ثمة كهنة الآن يتميزون بضيق أفقهم إلى حد مخيف وبعدم الإلمام بأى قدر من الثقافة العامة أو حتى بمبادئ الحديث باللغة الفرنسية السليمة وكل رصيدهم من المعرفة هو التلمود الذى حفظوه عن ظهر قلب وليس إلا . . . ولأول مرة أرى شعوب الطائفة التى تخجل من كهنتها وبدلا من الافتخار بالذين يفترض أن يكونوا لسان حالهم فانهم يحجبونهم عن الظهور".

ويشرح الكاهن الرأسى "امانويل شوشنا"، عميد الكلية الأكليريكية حتي سنة ١٩٩٠ العلاقة بين تعدد الطوائف الصغيرة وزيادة عدد الكهنة المعينين من خارج هذا الحرم فيقول:

"إن أعضاء هذه الطوائف الصغيرة تعين فى منصب كاهن شخصا تطلق عليه هذه الصفة لمجرد أنه أجدر منهم في تفسير التوراة. فيعتبرونه كاهنا مقارنة بجهالتهم. . ومن البديهى أن يكون الطالب الذى أمضى عامين دراسيين في المعاهد الدينية أكثر دراية بشئون الدين من أغلب أعضاء تلك الطوائف ولكن إذا سئل تحديدا بشأن شرائع معينة فمن المحتمل جدا الا أن يكون ملما بها. وعندما كنت عميدا للكلية الأكليريكية كان مبدئى ألا يشعر أى كاهن تخرج فيها بأنه أقل من الذى أمضى ثلاث سنوات دراسية فى المعاهد الدينية. بل ينبغى أن يكون أكثر معرفة منه لأننا كنا نوفر أيضا التعليم الشامل اللازم لمن سيكون مسئولا عن إمامة جماعة من الناس".

يدرس رافائيل الديانة اليهودية. وقد تعلم فى المعاهد الدينية لكنه لم يرغب فى الالتحاق بالكلية الأكليريكية رغم انجذابه للكهنوت لأن أهم شئ من وجهة نظره هو الإلمام بالنصوص المقدسة أما كل المواد الأخرى فهى حشو فارغ وعلى حد قوله: "فى الكلية الأكليريكية، تدرس مواد مختلفة لا تمت بصلة للتوراة مثل فن الحديث وفن إدارة وتنظيم شئون الطائفة. ومن المحتمل أن يكون هذا المنهج نافعا إنما توجد فيه ثغرات غير موجودة فى برامج المدارس الدينية. على أية حال، فإن القيادات الدينية، وهى صاحبة الكلمة العليا فى شئون الدين، لم تتخرج فى الكلية اللاهوتية بل فى المعاهد الدينية!.

ونقلا عن "روجيه برج"، الذى دون تاريخ الحاخامية الفرنسية فى كتاب صدر له بنفس العنوان، هذا الرأى الذى يقول:

"لابد ألا يكون الكاهن فى هذا الزمان واعظا فقط بل ينبغى أن يكون متخصصا فى الأنشطة الإجتماعية ومرشدا للشباب والمساجين والجنود ومتأقلما مع المشكلات المتولدة عن الجوانب المستحدثة فى العلاقات بين اليهود والمسيحيين أو بين الطائفة اليهودية والسلطات المحلية لأن حسن تدبير شئون المجتمعات إداريا وماليا يؤثر على نشاط الكهنة واستمرارية الاحتياج إليهم". وكلها أعباء يمقتها خريجو المعاهد الدينية الأتقياء حيث انها تتطلب احتكاكا دءوبا ومتصلا بالعالم العلمانى وبالأنشطة الحية التى قد تبعدهم عن انعكافهم عن دراسة النصوص المقدسة. وهذا يوصلنا فى النهاية إلى هذه الخلاصة غير المنطقية ألا وهى أن الطائفة اليهودية الفرنسية، بالرغم من اشتداد تأثرها ببصمة التيار الأرثوذكسى، تتضاءل أمامها فرص العثور على رجال دين بالمفهوم السليم لهذه الكلمة، حيث أن اليهودى الأرثوذكسى لم يعد يكترث على الاطلاق باحتياجات الطائفة التقليدية ولا يعنيه كثيرا التواجد بين الصغار أو الشباب ليزودهم بمبادئ العقيدة الأولية التى قد تساعدهم إلى حد ما على مقاومة اغراءات العاصمة. ومن ثم تستمر الأرثوذكسية على وضعها كجزيرة منيعة فى حين أصبحت سائر دور العبادة اليهودية الأخرى شاغرة من الكهنة والمؤمنين.

وفى عام ١٩٨٧، اتفق كبار الناخبين في المجلس الملّى ـــ وجميعهم من كهنة ومسئولى الطائفة ــ على منح منصب رئيس الكهنة فى فرنسا "لجوزيف سيتروك"، قاصدين بهذا القرار ضم "حامى حمى الأرثوذكسية" إلى هذه المؤسسة العريقة وان كان هذا الأخير ينفى عن نفسه هذه الصفة موضحا ذلك بقوله:

"بدلا من وصفى بأننى أرثوذكسى أفضل أن تعتبرونى" ملتزما "لأن رجل الدين الذى لا يكون مثلا يحتذى به أو مراعيا للقيم الروحية والاجتماعية طوال أيام حياته لا يمكن أن ينظر إليه بعين الجدية أو الإحترام. حيث أنه فى اللحظة التى يغطى فيها اليهودى رأسه "بالتليث" استعدادا للصلاة فانه يحرص على عدم جرح شعور جاره لأن حدود التزامه أمام الله هو احترامه لوجود الآخرين. من هذا المنطلق، إذا كانت الأرثوذكسية يقصد بها التعصب الأعمى وعدم السماحة فإننى أؤكد عندئذ أن هذه الأرثوذكسية غريبة على تماما".

ولكن ابان إعادة انتخاب رئيس للكهنة فى سنة ١٩٩٤، صرح "جان كان" رئيس المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا آنذاك قائلا بدون مواربة "ثمة حوار يجرى حاليا علي مستوي الطائفة بين أصحاب فكرة تحديث العقيدة وأتباع تيار الدعوة إلى التقوقع أى بين أنصار التسامح وأنصار الانغلاق".

والواقع أن هذه الانتخابات قد أشعلت الصراع بين المتدينين والمعتدلين حيث وجد هؤلاء أن رئيس الكهنة الجديد سيكون خطرا على استقرار الطائفة وجرى انتخابه فى جو مشحون بأقصى

درجات التوتر. حيث تم توجيه اللوم إلى رئيس الكهنة على مقاطعته لمدارس الطائفة وايداع أبنائه فى مدارس أرثوذكسية ومساندته لبعض المعاهد الدينية المتطرفة وقطع جميع الجسور مع المثقفين والجامعيين. والحقيقة أن جميع الموازين اضطربت منذ أن ترأس المجلس الملى رجل يدافع عن فكر جماعة من الناس عاشت دائما فى معزل عن نطاق هذا المجلس".

وإذ كان المعلم "ليون اسكنازى" يعيش الآن فى القدس فإنه يواصل مراقبته عن كثب لانفعالات الطائفة اليهودية الفرنسية ويبرز الفجوة القائمة بين الطائفة عموما وبين هيئة رجال الدين المغالية فى تشددها الأرثوذكسى بقوله:

"يوجد الآن على رأس الطائفة اليهودية الملية حاخامات تتطابق أفكارهم وآراء تلاميذ المعاهد الدينية الذين اقتبسوا نموذجهم من المجتمعات القديمة لبلدان اوروبا الوسطى ذلك يتمثل فى تقوقع اليهود على ذواتهم فى الوقت الذى يفترض من حيث المبدأ أن يكونوا جزءا لا يتجزأ من نسيج الأمة الفرنسية".

ولكن من وجهة نظر "جابريال فدناى"، رئيس لجنة الرعاية الإجتماعية الإسرائيلية فى باريس إذا كان المجلس الملى قد انجرف نحو التشدد فذلك حدث تحت ضغط من المؤمنين الطامحين إلى القيم الأصيلة والحقيقية. وعلى حد قوله:

"على أية حال تلك هى الأفكار التى تجول فى الأذهان فى الوقت الحالى. فالحركات الدينية تتحرك بسرعة وفعالية أكبر الآن خاصة بعد أن رأى الناس جميعاً مثل هذه الحضارة تنهار أمامهم وآمنوا بجبروت المال ونظام الاستهلاك ثم حدثت الأزمة فأراد الناس أن يتشبثوا ببعض القيم الحقيقية فمن منهم كان منتميا لحسن الحظ للعالم اليهودى يعرف أن لديه كما من القيم تستحق الدراسة، من هنا كانت العودة إلي الأصول فى كل الديانات والحضارات بما فيها اليهودية. والذى يحدث فى هياكل المجلس الملى ما هو إلا استكمال لهذا التحول".

وهو تحول مدهش وتوضحه هذه الحكاية. كانت امرأة شابة إبنة لأم اعتنقت الديانة اليهودية تحت مظلة المجلس الملى فى باريس فى الخمسينيات، وكانت هذه الشابة تحتاج من أجل اتمام عقد زواجها الشخصى إلى الوثيقة التى تثبت دخول والدتها فى الديانة اليهودية.. فتوجهت اذن إلى إدارات المجلس الملى المختصة .. التى رفضت تسليمها الوثيقة المطلوبة! حيث أصبحت ـ بدون سابق انذار ـ الشهادة التى تثبت اعتناق الأم للديانة اليهودية لاغية ولا أثر لوجودها. وشرحوا لها الأمر بمنتهى الجدية قائلين:

"لا شك أنك تعلمين أنه فى الفترة التى أعقبت الحرب كانوا يقبلون دخول المستجدين فى العقيدة دون مراعاة لاستيفاء هؤلاء المستجدين لكل الشروط التى يتطلبها الدين...".

ومع هذا لا يزال المجلس الملى من منظور أنصار الأرثوذكسية المتشددة هو حصن اليهودية العرفية. ولا تخفى إحدى الأمهات المتدينات من الحى التاسع عشر بالعاصمة باريس غضبها إزاء انهيار آمالها حيث صرخت تعبر عن إحباطها قائلة:

"إن جلوس رئيس الكهنة الجديد على كرسيه كان يعشمنا بأن الأمور ستنصلح لكن هذا الانتخاب لم يؤت بثماره المنشودة، لقد أسمعنا خطبا شيقة وكلمات حلوة وفى النهاية لم يتغير أى شئ أو بمعنى أصح ما حدث يكاد لا يذكر بالمرة.

" لأن المتدينين اعتقدوا أنه سيبدأ بتطهير المجلس الملى من الداخل لكنه لم يفعل أى شئ فى هذا الصدد. ونحن فاض بنا الكيل وطفح لأن كل آليات المجلس الملى يشغلها هؤلاء الذين يريدون تجميد الأوضاع على حالها: .

ونفس الرأى ردده المعلم "دانيال هيمان"، مدير إحدى المدارس الدينية، بقوله:

"إن اليهودية الملية لم تكن أبدا عقائدية بل مجرد كيان إدارى لتنظيم شئون الطائفة. وموقف آل الكهنوت الرسمى يرمى دائما إلى الابتعاد عن إثارة المشكلات والنتيجة أن الشعب لم يعد يجد مرجعا يستند إليه ولم يعد يحتاج إلى سماع خطب عصماء تدافع عن العقيدة لكنه وافق على دراسة عقيدته بدون هدف محدد وبدون عقد مقارنات بينها وبين هذا أو ذاك. . . ".

وحتى لو افترضنا أن رئيس الكهنة فى فرنسا محاصر من ناحية يمينه (أى الكهنة) ــ وهذه حقيقة وليس افتراضا ــ وأنه يبذل جهودا مشكورة ليظل المرشد الروحى لكل اليهود الفرنسيين فإن ميوله الواضحة نحو التيار الأرثوذكسى يتيح الفرصة للمتطرفين منهم لرفع رءوسهم. وحملة عجيبة من الخطابات التى يرسلها متطرفون مجهولون تنتشر الآن فى الطائفة اليهودية. حيث وصفت هذه الرسائل مدير إحدى المدارس بأنه أسفل السافلين، وشبهت مناضل صهيونى بعماليق، ألد عدو للشعب اليهودى فى العهد القديم، وهددت بالنيل من أحد الكهنة لأنه متساهل جدا. . والطائفة المثالية التى تتحدث عنها هذه الرسائل طائفة منغلقة لا تحتمل رياح التجديد التى تأتى بابداعات خلاقة. وتمشيا مع هذا الأسلوب فى التفكير ورد فى كتابات الحاخام جيل برنهايم الذى كان فيما مضى ضمن المرشحين لمنصب الكاهن الأعظم فى فرنسا انه لإحكام السيطرة على الناس، لابد من الغاء عقولهم واستبعاد أى واحد منهم يحاول تشغيل عقله".

وبعيدا عن هذا الصخب، وفى جو من الانغلاق التام، أخذت الأكاديميات التلمودية تترعرع فى كل أنحاء البلاد فى باريس ومرسيليا وفى استراسبورج وغيرها من الأماكن.

وهكذا أسس المعلم "دانيال هيمان" فى سنة ١٩٧٨ مدرسته الدينية فى "إيبينيه ــ سور ــ سين" فى ضواحى العاصمة باريس. وتضم هذه المدرسة خمسة وسبعين طالبا نظاميا بعضهم سيلتحق بالجامعة بعد بضع سنوات والبعض الآخر سيواصل دراساته المتخصصة فى المراكز الإسرائيلية.

وإذا كان بعض رجال الدين أو المعلمين قد تخرجوا بالمناسبة من "إيبينيه" فهذا لا يعنى أن هدف المعاهد الدينية هو تفريخ هذه الفئات المتخصصة. لأن دراسة الشريعة اليهودية هدفها الوحيد هو توطيد العلاقة بين الإنسان والله وليس لإدارة شئون الطائفة. وفكرة أن تعكف المدرسة الدينية على تخريج مهنيين متخصصين تعتبر من الجنون فى رأى المعلم هيمان، لأن قيادات الغد ينبغى أن

تبرز من خلال احتكاكها المستمر بالنصوص المقدسة. وفى القرن الماضى فى بولندا كان المرشحون للكهنوت المقبلون يتم اختيارهم من بين أفضل العناصر الموجودة فى الأكاديميات التلمودية. ولكى يوضح لنا فلسفته بالنسبة لهذه الدراسة روى لى المعلم "هيمان" هذه الحكاية: "فى يوم من الأيام توجه رئيس الطائفة لمقابلة مدير إحدى الأكاديميات المشهورة وطلب منه بالإسم أحد الطلبة لتعيينه كاهنا. لكن الطالب الذى وقع عليه الإختيار صاح مندهشا: أنا أخشى هذه المسئولية...

فقاطعوه قائلين:

لهذا السبب اخترناك ولو كنت ركزت طموحك على هذا المنصب لكنا رفضناك." أما المعلم" يهوشوع جرونشتاين" وهو مدير إحدي الأكاديميات التلمودية فى مدينة نيس، والمدرس السابق لمادة الرياضيات. فقد وصف لنا بعد انخراطه فى التيار الأرثوذكسى حالة التغيير التى أصابت هذه الأجيال الشابة المنجذبة نحو طريق الدين القويم قائلا:

"فى الماضى كان الناس يجلسون بالساعات فى قاعات المحاضرات يستمعون فقط لما يقال دون أن ينتقلوا أبدا إلى مرحلة الدراسة بمعنى الكلمة. إنما الآن فقد قرر عدد كبير الخوض فى النصوص بمجهودهم الشخصى وأدركوا أنه لابد من التفرغ الكامل لمدة عامين أو ثلاثة اعوام لإجراء مثل هذه الدراسة والاستفادة، ليس بهدف أن يصبحوا كهنة لأن التعليم الذى يحصلون عليه ليس تعليما وظيفيا فهؤلاء الشباب سيعملون فى مجالات مختلفة تماما. عندى على سبيل المثال طلبة كانوا يدرسون قبل الالتحاق بالأكاديمية الكمبيوتر أو القانون وانقطعوا مؤقتا عن هذه الدراسات التخصصية بيد أن كثيرين منهم سيتوجهون بعد ذلك إلى إسرائيل لأنهم أصبحوا بعد هذا التعمق أكثر تدينا والتزاما صارما بفروض الدين يتطلب منهم العيش بأسلوب معين من الصعب انتهاجه فى فرنسا".

ويشير المعلم "جرونشتاين" إلى أن إحدى خصائص الأرثوذكسية اليهودية الفرنسية هى: رحيل اليهود المتدينين الأكثر التزاما بقواعد عقيدتهم إلى البلاد التي توجد فيها هياكل تنظيمية سليمة لأمثالهم. وهكذا باختيارهم العيش فى إسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية أو انجلترا فقد تنازل هؤلاء عن تنمية وجودهم فى اطار هيكل تنظيمى جامع لليهود الأرثوذكس فى فرنسا.

ونقلا عن كلام الصحفية المتدينة "كاترين جارسون" إن اليهود الأرثوذكس الفرنسيين عجزوا عن بلوغ هذا المستوى التنظيمى الذى نشهده فى البلاد الأنجلو ساكسونية ومن المرجح أن يرجع السبب فى ذلك إلى تخلف العقلية السفاردية عن العقلية الفرنسية فالسفارديون أناس تعودوا على الفردية الشديدة وبما أنهم لم يألفوا العيش جماعة فبالتالى لم يطوروا بنياتهم الأساسية فعدد مدارسهم ومعاهدهم التلمودية محدود ويتحملون أقصى العناء عند شراء احتياجاتهم من السلع الغذائية طبقا للمواصفات التى تسمح بها الشريعة. فالأرثوذكس يرفضون تناول اللحوم التى تخضع لرقابة أجهزة المجلس الملى وعلاوة على ذلك لا توجد تقريبا مطاعم تصلح لأن يذهب إليها أى

رجل أعمال فى صحبة عملائه . . . ولا توجد هنا أحياء كبيرة للمتدينين مثلما تتوفر فى انجلترا أو أمريكا. فتلك هى الأسباب التى تجعل عددا كبيرا من الذين يتوبون ويرجعون إلى الدين يغادرون البلاد . . وإذا حدث وظلوا فيها فأبناؤهم هم الذين سيرحلون عندما يكبرون" .

كما تستشف أيضا «كاترين جارسون» من عجز الأرثوذكس الفرنسيين هذا الأثر الذى تركته بصمة الطبيعة السفاردية. تلك التى لم تألف جو الصراع التصادمى بين اليهود بعضهم وبعض حيث تقول فى هذا الصدد:

«ان السفارديين لم يخوضوا عبر تاريخهم تجربة الصراعات الداخلية التى عرفتها المجتمعات اليهودية. ففى دول شرق أوروبا اعتاد اليهود أن يصطدموا باخوانهم الليبراليين والشيوعيين وأنصار الحركة الثورية اليهودية الكبرى (حركة سرية) والصهاينة. . وكانت الصراعات تحتد بين المتعارضين الى درجة الحقد المتبادل وتصفية البعض للبعض الآخر. كل هذه المحن لم يعرفها اليهود فى بلدان شمال افريقيا لهذا كانت جماعة اليهود الفرنسيين الأرثوذكس القادمة من هذه المنطقة أكثر استكانة وأكثر ألفة من سائر الجماعات اليهودية الأرثوذكسية الأخرى الموجودة عبر العالم.

والنقطة الوحيدة التى فاتتنا نحن الأرثوذكس أنه لكى يكون كياننا متينا ومتماسكا، لابد من وجود سلطة عليا قادرة على توحيد صفوف تياراتنا الدينية المختلفة لتصبح ذات وزن وقادرة على الافصاح عن مطالبها بصوت عال».

والواقع أن الأرثوذكس الفرنسيين بالرغم من تجاوزاتهم لايزالون أرحم بكثير من أقرانهم الأمريكيين أو الإسرائيليين. اذ يعتبرون متطرفين من الصف الثانى. حيث ان تقوقعهم لا يقارن على الإطلاق بجو الانغلاق الموجود فى القدس أو فى بروكلين، وفكرة العيش فى الجيتو هنا ـ فى فرنسا ـ انما تدور فى مخيلتهم فقط، انهم يحاولون تقليد الرموز الشهيرة ولكن تعوزهم الإمكانات حيث انه لا يوجد لدى أى واحد منهم النية الصادقة ليعيش فى عزلة داخل أحياء مخصصة لليهود أو منقطعا تماما عن عالم العلمانيين. والذين يفكرون بهذه الطريقة يغادرون البلاد للعيش فى مكان آخر. لأن فى فرنسا موضوعات مثل العمل والدراسة تضطر العلمانيين الى التدخل فى شئون المتدينين حيث أن رفض الالتحاق بالجامعة وهو أحد المبادئ الأساسية بالنسبة للمتطرفين اليهود لا يمكن أن يمر بسهولة داخل الأراضى الفرنسية. علاوة على أن نفوذ التيارات الأرثوذكسية الموجودة فى المجلس الملى انما يبرهن بمنتهى الوضوح على أنه حتى التيارات الأكثر تزمتا ترفض فكرة الانسحاب للعيش فى عالم مواز وترضخ للتعامل مع هياكل الطائفة المنظمة، ان هذه الظروف قد تكون بمثابة فرصة متاحة بالنسبة لتيار اليهود الأرثوذكس الفرنسيين، وقد يساعدهم هذا الوضع المتميز فى ابراز نموذجهم الخاص.

وللأسف لا يلتفت اليهود الأرثوذكس الفرنسيون الى مميزاتهم الخاصة بل يحدقون بغيرة الى أكثر الرموز صرامة وتقشفا وزهدا. . ولكن صبرا، لأنهم فى الطريق الى هؤلاء النماذج العظام. . خاصة وأن بعض البوادر المقلقة تشير الى ذلك. ففى الآونة الأخيرة، تم تشكيل مجمع حاخامى

أعلى، جميع أعـضائه من الكهنة اليهود الأرثوذكس وقـد شكل خصيصا ليكون بمثـابة سلطة دينية عليـا الى جانب المجلس الملى. على أية حـال لا يوجد حـتى الآن أى بديل آخر بالـنسبة لـهؤلاء الشبـاب المنجذبين الى الإيمان الصلب حيث لا تـوجد هنا حركات أرثـوذكسية خـالصة ومنفتـحة وسمحة فى ذات الوقت من نمط حركة الأرثوذكسيـة الأمريكية الجديدة على سبيل المثال ولا يوجد أيضا على الإطلاق رواد عظام قادرون على تغيير مسار هذه اللهفة المحمومة الى التقوقع والانغلاق وعلى إرساء دعائم نموذج خاص للأرثوذكـسية الفرنسية، إن رعيل المعلـمين التلموديين القدامى قد ولى عهده وما يبـقى هو جيل الذين كانوا فى سن العشرين أو الثـلاثين من العمر فى سنة ١٩٤٠ ان هذا الفراغ يجـبر المؤمنين الى تعليق أنظارهـم على البلدان البعيـدة ليقـمصوا سلوكـيات نماذج مستعارة من مجتـمعات مختلفة عنهم كل الاختلاف ولكنهم يعتبرونها مـرجعيتهم الوحيدة. وليس من المستبعد أن تسلم الأرثوذكـسية الفرنسية آذانها فى الغد القـريب لغواية حركات التطرف الوافدة عليها من الخارج.

الفصل الثالث

العام القادم فى القدس

أو اسرائيل فى عيون فرنسا

جويل عمره أربعة عشر ربيعا، وبالنسبة لهـذا التلميذ الذى يتعلم فى مدرسة «أقيبا» اليهودية فى استراسبورج إن إسرائيل هى طبعا قلب اليهودية النابض وبلد الموعد منذ آلاف السنين. . . وحدث مؤخرا أن عالمه المأثور كاد يتحطم فجأة وينهار لأن معلمه شبه الصهيونية بالنازية أثناء الشرح عندما قال «اذا كانت كارثة الإبادة قد حطمت على رأس الشعب اليهودى فإن الذنب فيما حدث يقع على عاتق الصهيونية وعلى أية حال فإن الصهاينة فى الوقت الراهن لا يتصرفون بشكل أفضل من النازيين فى عصرهم.»

واذ توجس ولى أمر التلميذ أن ابنه أساء فهم كلام معلمه، توجه الى المدرسة على الفور لمقابلة هذا المدرس الذى كرر على مسامعه نفس الكلام المرعب بمنتهى الهدوء فقابل بعد ذلك مدير المدرسة ليرفع له شكوى ركز فى فحواها على نقطة أن نفس هذا الكلام لو كان تردد فى مدرسة غير يهودية لكان استحق عليه المدرس الإحالة الى مجلس تأديب والى الاستغناء عنه على الأرجح. ووعده المدير الذى كان محرجا بعض الشئ بمعاقبة المدرس. . الا أنه لم يتخذ أى اجراء ضده.

وثمة مفهوم جديد نابع من عالم اليهود الأرثوذكس يشق طريقه الآن بين الطائفة اليهودية الفرنسية ذلك الذى يرمى الى نزع طابع الشرعية الدينية عن دولة إسرائيل. وباسم «المسيًا» الذى سيرفع» بيمينه راية للأمم ويجمع منفيى إسرائيل ويضم مشتتى يهوذا من أربعة أطراف الأرض». (اشعيا ١٢ : ١١).

أصبحت الصهيونية بمثابة ايديولوجية خربة جاءت لتعرقل مخططات الرب لتخليص شعبه المختار. وفى ضوء هذه الصورة المبسطة يعتبر الإسرائيليون بالإجماع كفارا مستعدين للتفريط فى تركة اليهود السماوية ومن ثم فان الشعب اليهودى المتدين حقا لا يوجد الا فى معابد المهجر، لقد ولى الزمن الذى كان يفتخر فيه ـ بكبرياء ـ الإسرائيليون بكيانهم الوطنى ويرفضون أى تشبيه يربطهم بيهود المنفى. وبذا تكون الرسالة قد فهمت والآية انقلبت حيث أصبح الآن متدينو المهجر هم الذين يجزعون من فكرة أن تكون هذه الدولة المغامرة هى مرآتهم.

***

ومع ذلك كانت الطائفة اليهودية الفرنسية قد توصلت الى اتفاق ضمني رضائي بعد نشأة دولة إسرائيل وباستثناء بعض الشراذم الهامشية من الأرثوذكس المعادين للصهيونية أو من الصهاينة المتطرفين كانت الطائفة اليهودية المنظمة (أي الخاضعة للمجلس الملي) تساند بهدوء حكومة اسرائيل المنتخبة ديمقراطيا، كما دأبت الحاخامية المليّة منذ عهد طويل على تأييد فكرة توطين اليهود في أرض إسرائيل. وكان الصهاينة الأوائل يحظون بمناصرة أعضاء المجلس الملي لهم وكان البارون ادمون دي روتشيلد أول من أعطى دفعة لتنفيذ هذه الفكرة بدعمه المادي لبناء بعض المستوطنات في فلسطين.

واذا كان المؤرخون يتفقون - بوجه عام - على النقيض من ذلك على ابراز فتور موقف الحاخامية الفرنسية حيال الأفكار التي روجها «تيودور هيرتزل» فهذا يرجع الى أنهم يحكمون على الصهيونية من منطلق الاعتبارات السائدة حاليا. لأنه في الواقع لم تقصد تلك القيادات الطائفية تشجيع هجرة رعاياهم من اليهود المؤمنين لأنه لم يكن يطرأ ببال مخلوق أبدا أن يحقق في التو واللحظة حلم الأمنية السعيدة المعتاد ترديدها في كل عيد فصح اثناء تبادل التهاني: "العام القادم في القدس"، انما كان مقصودهم فقط هو تهيئة الفرصة لتوطين فلول اليهود، الذين كانوا ضحية للفقر والإضطهاد على يد أعداء السامية في بلدان شرق أوروبا، في القدس. وحدث في عام ١٨٩٧ أن وجه الكاهن الأعظم في فرنسا "زادوك كان" رسالة صريحة الى أول مؤتمر صهيوني عقد في بازل قال فيها: "إن عدم متابعة نشاط الحركة الصهيونية باهتمام يعتبر من الأنانية المفرطة" وخليفته الفريد ليفي كان يعتبر بدوره دعم المستوطنات اليهودية بالمساعدات عملا من أعمال البر والتكافل وعلى حد قوله: "إن اليهود الفرنسيين يعرفون أن إخوانهم اليهود المضطهدين لا يريدون سوى وطن بديل يضمهم في هذا البلد المسمى فلسطين المرتبط في أذهانهم بكم من ذكريات تراثهم الديني... ويتمنون أن يتحقق هذا الحلم لإخوانهم البؤساء ويأملون في أن بلدنا العزيز فرنسا رمز الحرية والعدل سيساهم في مسألة تنفيذه". أما عن إسرائيل ليفي"، رئيس الكهنة في فرنسا حتى عشية الحرب العالمية الثانية فقد وجه نداء مدويا لجمع التبرعات اذ قال فيه: "نتمنى أن تهتم كل جماعة من الطائفة بتشكيل لجان وأن تشن حملة دعائية نشطة في كل الأوساط الاسرائيلية (بمعنى اليهودية) حتى تكون طائفة اليهود الفرنسيين ممثلة بشكل مشرف في فلسطين اليهودية".

وهكذا كان كهنة المجلس الملي ينتهجون موقفا يميزهم عن موقف اجنحته المناقضة: الاندماجيين من ناحية، والأرثوذكس من ناحية أخرى، الذين كانوا يرفضون قطعيا - لأسباب مختلفة تماما - هذه الوطنية الجديدة. حيث كان فريق الإندماجيين على قناعة بأن علة احتقار اليهود أصبحت من ذكريات الماضي وأن أبواب المجتمع أصبحت مفتوحة لهم على مصاريعها وكان اليهود الفرنسيون يريدون المشاركة في مسيرة التقدم. واذا بالصهيونية تأتي بدون روية لتذكر هؤلاء الأعيان أصحاب القبعات الفاخرة بأنهم ينتمون لنفس الشعب اليهودي أسوة ببؤساء الجيتو الأوروبيين الشرقيين وأن فرنسا ليست بالنسبة لهم سوى وطن بالصدفة البحتة. أما عن الأرثوذكس فكانوا

مذعـورين من الخطب النارية للرواد الأوائل المصمـمين على دخول أرض الموعد المقـدسة بإرادتهم البشرية.

وبصورة عامة كان مفهوم الصهيونية فى حد ذاته وهـدفها غير مفهومين لغموضهما، وينقل لنا الشاعر "أندريه سبير"، وهو من أشد المتحمسين للصهيونيـة كما فهمها اليهود الفرنسيون، الجو العام الذى ساد فى عام ١٩٧١ خلال الجلسات التى خصصتها اللجنة المحلية للدراسات الإجتماعية والسياسية للمسألة الفلسطينية". حيث كانت المغالاة فى إبـراز الخاصية العرقية المستشفة من بيانات الحركـة الصهيونيـة تبعث القلق فى نفوس أصـدقاء الطائفة اليـهودية. ومن الأسئلة التى طرحـها شخص يدعى "لابراديل" وهو أسـتاذ فى القانون الدولى العـام: "ما هى العناصر التى تعتـزمون اعادة توطينهـا فى فلسطين ؟ هل هى أفضل العناصر وأنشطهـا ؟ فى هذه الحالة فإنكم ستـحرمون الشعوب التى آمنت بالحـرية ومارستها من وجـود هذه العناصر اليهودية الكفء بينهـا وتسعون فى الوقت نفسـه الى حرمان تلك العناصر من مـواصلة اثبات وجودها. كـلا لا يمكن أن نسايركم فى هذا الصدد. لأن من هذا المنظور لن تخرج الصهيونية عن كـونها شكلا من أشكال معاداة السامية. ونحن لا نظن أن تكون مثل هـذه الروح مذهبنا. فنحن مصـممون كل التصـميم على الاحتـفاظ بهؤلاء الذين دعوناهم الى ديارنا والذين ساهموا فى اثرائنا ثقافيا واقتصاديا".

ومع ذلك ظلت الصهيونية تواصل بلورة عقيدتها وشغلت فرنسا مكانة خاصة فى تاريخها. ففى باريس تحـديدا وفى غرفة بأحد فنادق شـارع كامبون، كـان "تيودور هيرتزل" قد حـرر كتابه المؤسس للدولة اليـهوديـة والذى صدر تحت عنوان "الدولة اليـهـودية"، وفى باريس أيضا عـاش "مكسى نوردو" وهو واحد من أكثر الدعاة المتحمسين لنهـضة الأمة اليهودية، وفى نفس العاصمة كذلك وفى القاعة الخلفية لمقهى البانتيون الكائن فى قلب الحى اللاتينى كان "فلاديمير جابوتنسكى" يسهر على تأسيس الصهيونية الإصلاحية التى كان هدفها البلشفى يرمى الى إقامة دولة يهودية على ضفتى نهر الأردن. ولكن فى فرنسا نفسها، فـحتى الشباب المتحمس لفكرة إعادة بناء وطن لليهود لم يكن يؤيد فى أغلب الأحـيان فكرة الـنزوح الى اسرائيل بل يفـضل مواصلة كـفاحـه فى بلاد المهجر. وتعددت الصحف والجمعيات والمقابلات من أجل مساندة مسعى اليهود فى فلسطين ولكن دون أن يفكر هؤلاء الصهاينة الفـرنسيون أبدا فى الانضمام الى رعـيل الرواد الأوائل وسط حجارة الصحارى القاحلة.

وفى الأيام المتممة لعـام ١٩٤١ وفى صالة معبأة بالدخان لأحد محـال بيع البيرة فى مدينة ليون، تم تأسيس "حـركة الشبيـبة الصهيونيـة" التى أخذت على عاتقهـا مسئوليـة النشاط السرى المكثف طوال فتـرة الحرب. وبرغم الصعاب، نظمت انعـقاد الإجتمـاعات وحصصا لتـعليم اللغة العبرية وأخرى فى مادة التـاريخ، كما تحملت عبء التوعية السيـاسية وأرست خلايا للانقاذ، وتم تهريب ألفى طفل الى الأراضى السويسرية من خلال هذه الشبكة وعندما تولى مسئوليتهم بعد ذلك "الاتحاد الصهيونى" أقاموا فى أرياف جنيف مستعمرات حقيقية ليتدربوا فيها على أسلوب معيشتهم

المستقبلية فى فلسطين وبعد تحرير فرنسا إثر انتهاء الحرب، غيرت الصهيونية وجهها، حيث بدا جليا بالنسبة للجميع أن هذا البلد لم يعد الملجأ الأمين الذى لا ينتهك كما خُيِّل لهم، وأن دولة إسرائيل هى المستقبل والأمل بالنسبة لليهود الناجين من "الحل النهائى" (أى التصفية النهائية). وفى يوم ١٨ من شهر مايو من عام ١٩٤٨، احتفلت الطائفة اليهودية فى باريس فى "ڤل ديف" بنشأة دولة إسرائيل وفى هذا المكان الرمزى تحديدا، الذى سبق واعتقل فيه منذ ست سنوات مضت حشد من اليهود الذين كان قد قبض عليهم عشوائيا فى قلب العاصمة، أصبحت الراية الجديدة التى تحمل شعار نجمة داود رمزا لبقاء هذا الشعب.

واذا كانت بشائر حركة نزوح اليهود الى القدس قد انطلقت طلائعها من فرنسا فان طائفة اليهود الفرنسيين عموما اكتفت بمواصلة مؤازرتها من بعيد لجهود بناة الدولة الجديدة وانجازات هذه الدولة فيما بعد، إلا أن دوافع هذا التعاون قد اختلفت. اذ لم يعد القصد مثلما كان فى الماضى هو الإسراع لإغاثة شعب يهودى بائس يبحث عن مأوى انما من أجل الدفاع عن بلد أرادوا أن يكون تجسيدا لهويتهم. وأيا كان توجه الحكومات المتعاقبة على هذا البلد فقد كانت طائفة اليهود الفرنسيين تتباهى بكبرياء بانتمائها الشرعى ومن ثم كانت تساند قلبا وقالبا ـ وأحيانا بصخب ـ سياسة الحكومة الإسرائيلية.

بيد أن كل هذه الرواسخ سرعان ما تطايرت بعد التوقيع على اتفاقات أوسلو فى عام ١٩٩٣ وبدءا من هذا التاريخ كان لابد من اختيار أحد الأمرين: إما مساندة سياسة حكومة رابين او نبذها تماما مع ضرورة اتخاذ القرار وحسم الموقف بدون أى لبس.. ولقد شجع الجدل الذى أثير فى هذا الصدد جناح اليهود الأرثوذكس للإفصاح بعزم وصراحة عن معارضتهم لتلك الدولة الجانحة عن الشريعة. وحظيت هذه النبرة الصارمة بالقبول لدى جيل الشباب المنجذب نحو التشدد الدينى. وبذلك يكون آخر روابط اتساق الطائفة اليهودية قد تمزق فى خضم المعارك السياسية وبسبب ظهور التيار الأرثوذكسى وسطها، وكان تماسكها قد تأثر قبل ذلك نتيجة انهيار القضايا الكبرى التى كانت تلتف حولها.

لاشك فى أن عناصر الطائفة المنظمة (أعضاء المجلس الملى) ظلت أمينة على ولائها للصهيونية وعلى مساندتها الدائمة للوجود الإسرائيلى. ورغم ميوله الأرثوذكسية، كان "جوزيف سيتروك" رئيس كهنة الطائفة اليهودية الفرنسية يؤكد، كلما استطاع ذلك، على تضامنه مع اسرائيل الى حد أنه كان يخلط فى شطحاته الحماسية بين شعب الله المختار وبين الإسرائيليين وفى أعقاب هزيمة فريق كرة القدم الفرنسى أمام الفريق الإسرائيلى فى مباريات تصفيات كأس العالم أعرب عن سروره مهللا بفرحة قائلا: "إن داود هزم جليات وعاشت الطائفة هذه الفرحة بفخر وعزة، فالفريق اليهودى فريق عظيم والفائدة الروحية التى خرجت بها من هذه المبارة أنه اذا كان قد استطاع أن يحرز هذا الفوز فكيف نشك عندئذ فى مجئ المسيًا ؟".

أما "هنرى هادنبرج"، رئيس المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا فقد أعرب عن رغبته فى "تجسيد" الحوار بين اسرائيل ويهود الشتات قائلا: "إننى مقتنع بأن الطائفة لن

تتمكن من الحفاظ على هويتها اليهودية وتوصيل تراثها التاريخى والثقافى إلا إذا رسخت روابطها بعمق مع إسرائيل. "

وفى نفس الوقت ولزيادة تعقيد كل شئ، لم يعد يخفى بعض المثقفين الإسرائيليين ضيقهم ازاء تلون أمزجة يهود المهجر وأعربوا صراحة أنهم يتمنون من أعماقهم أن تحدث قطيعة نهائية بين إسرائيل وشعب المهجر اليهودى. وفى هذا الصدد صرح الأديب الإسرائيلى ا.ب. يهوشوع أمام الجمعية العامة للمؤتمر اليهودى العالمى فى جلستها المنعقدة فى القدس فى شهر يناير من عام ١٩٩٦ بقوله: " إننا لم نعد فى حاجة اليكم . . . ولسنا فى حاجة الى أموالكم حيث إن الطبقة المتوسطة فى مجتمعنا تتيسر أحوالها وتغتنى فى زمن قياسى. إذا أراد أحدكم أن يزور إسرائيل، على الرحب والسعة، ولكننا فى غنى عنكم كمهاجرين لأن بلدنا يعانى بالفعل من الاكتظاظ السكانى ومعدلات الزيادة مستمرة باطراد وأصبحنا فى غنى أيضا عن نفوذكم السياسى لأن إسرائيل أمة صاحبة سيادة وقادرة على تصريف أمورها بمهارة لحل مشكلاتها".

ولقد طير هذا التصريح عقول شيوخ الطوائف اليهودية المهاجرة الذين كانوا يكرسون جهدهم الكبير لرتق العلاقات المتهالكة بين إسرائيل ويهود المهجر المتدينين ومن المؤكد أننا لا نسمع فى فرنسا حدة الأساليب المعادية للصهيونية التى تستخدمها الحركات اليهودية المتطرفة الموجودة فى أمريكا وفى الأحياء الخاصة بالمتطرفين فى القدس لأن تيار اليهود الأرثوذكس الفرنسى مستغرق ببسيط العبارة فى الشعور باللامبالاة تجاه إسرائيل. ويشهد على ذلك ما قاله "الياهو أوزان"، مدير المدارس الأرثوذكسية فى هذا الخصوص: "ماذا عن اسرائيل ؟ اننا لا نتطرق لذكر أى شئ عنها فى حديثنا. ولا ننقل لأبنائنا أى خبر بخصوصها لأن هذا لا يدخل فى برامجنا التعليمية أو فى مناقشاتنا. لاشك أننا عندما نسمع أن بعض النواب هناك ينادون بإلغاء تلاوة بعض الصلوات فى المدارس زعما بأن هذا يعتبر نوعا من الضغط الدينى، فإننا نبكى حسرة. . . ولكن نحن الموجودين هنا فى فرنسا لسنا مطالبون بالتدخل فى مثل هذه الأمور".

ويشرح المعلم "دانيال هيمان"، مدير المدرسة التلمودية الموجودة فى "ايبينيه ـ سور ـ سين" السبب الذى يجعل اليهود الأرثوذكس الفرنسيين ينقمون تماما على الدولة اليهودية فيقول "إن مرجع القوانين شولهان أروخ ينقض المغامرة الصهيونية بالطريقة التى نفذت بها لأنه لا يوجد أى مبرر لشن حرب ضد العرب لتوطين يهود علمانيين مكانهم. . أما حاييم وايزمان، أول رئيس لدولة إسرائيل، فقد رأى أن اليهود الأرثوذكس هم عفار عصور السبى، ومخلفات العيش فى المنافى، تلك الأشياء التى يتعين على الشعب اليهودى أن ينفضها ويتخلص منها. لذلك أعلن أن الأمة اليهودية الجديدة ستكون على غرار سائر الأمم الأخرى. ومنذ البداية، انقسم الصهاينة الى فريقين: فريق من كانوا يسعون الى التعايش الطبيعى مع الأمم بالعلمانية والتمثيل النيابى السليم وفريق من كانوا يريدون، قبل أى شئ آخر، تعمير أرض اسرائيل باليهود، إن هذا الخلاف كان يخيم دائما على المؤتمرات الصهيونية وفى قلب إسرائيل شكل هذان التياران جناحى اليمين

واليسار. فاليمين لم يهتم أبدا بالتفكير فى النواحى المجتمعية وشغله الشاغل كان منحصرا فى الأرض. أما اليسار فكان متحمسا على النقيض بمسألة التواجد فى محفل الأمم وبروتوكولية التمثيل الدولى لدى الأمم المتحدة، ومن المؤكد أنه لاستكمال هذا البرنامج كان لابد من وجود أرض ولكن لم تكن هى الهدف بل مجرد الوسيلة.

أما عن اليهود الأرثوذكس فهم يعارضون كلا التيارين السابقين حيث أن تطبيع وضع السبى مسألة مرفوضة فى نظرهم فلسنا مسبيين بناء على رغبتنا ولن نفلت من السبى بإرادتنا. من هذا المنظور هل يحق الكفاح من أجل الدولة بموجب تطبيع سطحى لوضعنا ؟ وهل يحق أن نتخلى عن عقيدتنا ونسلك سبيل العلمانية لننقذ أنفسنا من السبى ؟ كلا طبعا... إن اليهود الأرثوذكس كانوا دائما وعلى أية حال متخلفين نوعا ما عن بقية ركب الشعب. نحن مرتبطون بأرض إسرائيل المقدسة، إنما ليس بسبب الأهداف التى رسمتها الصهيونية.. اننى لا أظن أن اسرائيل هى الحل بالنسبة لسبى الشعب اليهودى وإلا لن نكون جنينا أى شئ فكل ما فعلناه هو أننا حركنا المشكلة فقط من مكان الى مكان آخر بالجيتو الرحب الذى أوجدناه بأيدينا وبدلا من تبعيتنا للقياصرة الروس أصبحنا تابعين الآن للأمريكيين أو خاضعين لإعتبارات أخرى.. "

ونقلا عن المعلم "جيرارزيزك"، مدير معهد الطلبة فى باريس، فان الدولة ليست سوى نتاج فارغ من صنع البشر:

"واعتقد أن الإنسان لا يسمو بفكره الا اذا أفاق من غفلته واستعاد صوابه حيث أن ارتقاءه الى مستوى الحكمة والتأمل لا يتأتى الا عندما يتخلص نهائيا من أوهامه... إن الإيمان بالدولة بعد طول معاناة الشعب اليهودى يعتبر من الغباء ! وهل يتعين على الإنسان أن يتخم رأسه بخليط كثيف من المفاهيم حتى يشعر بوجوده ؟ إن فهم الإنسان يبدأ فى الإرتقاء عندما تسير الأمور على نحو مختلف تماما مع هذه المعايير. فى هذه اللحظة يتحتم عليه الرجوع للتعمق فى النصوص المقدسة ولكن الى أين ستقودنا هذه الدراسة ؟ دعونا ننتظر النتيجة ! ان هدفنا الحالى هو الانعكاف على الدراسة وحسب. "

ومن وجهة نظر رفاييل، مدرس المواد الدينية، فان عالم اليهود الأرثوذكس الموجود فى إسرائيل هو الذى يحفظ البلد من بطش الله عندما يغضب غضبا عظيما وهذا كان من المحتمل حدوثه بسبب كفر الصهاينة: "فى بلد الطهر لابد أن يكون سلوك البشر مستقيما. للأسف، إن الذين يعيشون فى إسرائيل لا يسلكون دائما بطهارة وإذا أخلوا بالتعاليم الواجب الالتزام بها على هذه الأرض المقدسة فانها ستلفظنا... لقد حدث بالفعل أن تزلزلت الأرض فى بعض الأماكن وشعرنا من الفياضانات التى حدثت أيضا بتدخل الرب. ان سبى الشعب اليهودى فى عصور الماضى بدأ بهذه الطريقة، إذ عندما عرج اليهود عن تعاليم التوراة لفظتهم الأرض حتى لا

ينجسوها! واليوم بفضل وجود هؤلاء المتدينين الأبرار نشعر بتوازن، ولهذا السبب لم تطرد الأرض سكانها بعد.. "

ويعتقد المخرج السينمائى "ريتشارد دمبو" من جانبه أن قدسية أرض إسرائيل تستحق أسمى معانى الإحترام كما تستحق أن تنسج من أجلها أهدافا مستقبلية محددة وكما يقول: "اعتقد أنه إذا كان الهدف من العودة الى أرض اسرائيل هو تجريد هذه الأرض من يهوديتها وجعلها أمة عادية كسائر الأمم، أمة تشق طريقها بإرادتها كأن تطلق صاروخا فى الفضاء مثلا، فإن هذا الهدف أجوف ولا أعيره اهتماما. إنما العودة للعيش فوق هذه الأرض تستوجب منا أن نحترم شرائعها. واذا كانت هذه الأرض تخصنى (حسب شرع الله) فمعنى ذلك أننى مكلف فيها بإنجاز مهمة ليس فى مقدور أى مخلوق غيرى إنجازها. فعلينا بتلبية المطلوب منا وتلبية هذا الواجب لا يحتاج الى تأسيس جيوش ، حيث أن الهدف المقصود من وراء وجود إسرائيل، والمغزى من دورها الريادى كداعية لهداية الإنسانية، هو أن تقيم دعائم الدولة اليهودية الجديدة تلك التى ستثبت أن مفهوم الدولة المتعارف عليه ينبغى تجاوزه وأن الهدف الأهم هو التركيز على القيم الروحية التى تكفل للإنسان حياة أبدية".

وكما هو واضح فإن تيار اليهود الأرثوذكس ينفس عن عدائه للصهيونية بطرق مختلفة. ولكن الفكرة الثابتة التى تستشف من كل الطرق تقوم على أساس أن المخلص المنتظر "المسيًّا" هو وحده الذى سيقدر على إعادة لم شمل شيع الشعب اليهودى المتشتت ليعيش على أرض الموعد التى ستصبح أرضه. ومن هذا المنظور فأى تهاون فى مقومات الدولة اليهودية يعتبر إثما. ومع هذا فقد حتم الواقع والضرورة التهاون فى بعض الشروط. إن معظم شيوخ التيار الأرثوذكسى الحاليين يعلنون أنه بما أن عملية الخلاص قد بدأت فنحن بصدد مرحلة انتقالية قد تفسر بل وتبرر عودة جزء من الشعب اليهودى ليعيش على أرضه. من المؤكد أن المرور بتلك المرحلة لا يعفى الدولة القائمة المغالية فى علمانيتها من ذنوبها لكنه قد يساعد، على الأقل، فى ضوء النصوص المقدسة فى توضيح سر غموض صمتَ الله الرهيب الذى أغرب وجهه عن اليهود الذين قرروا أن يحسموا مصير أمتهم بأيديهم.

وتعضيدا لأطروحة الخلاص المسيًّانى، استخرج بعض المعلمين التلموديين من كتب التراث نبوءة تفيد بأن المسيًّا المنتظر سيأتى قبل يوم السبت أى قبل اليوم السابع. وبإقامة مقارنة بين الأسبوع الرمزى المذكور فى هذه النبوءة وبين دهور التقويم اليهودى استنتج فريق من الحكماء أن المخلص المنتظر سيتجلى قبل حلول الألفية السابعة. وبما أن الألفية السادسة على وشك الانصرام فاننا نمر منطقيا حاليا بمرحلة الاضطرابات التمهيدية السابقة لمجئ المسيًّا. وقد تبدو هذه المرحلة طويلة جدا

بحسب التقويم البشرى لعنصر الزمن. . . وسنضطر إلى أن ننتظر أكثر من مائتين وأربعين سنة أخرى قبل بزوغ فجر سنة ٦٠٠٠ علينا!

وإلى حين مجئ المسيًا، جمد اليهود الأرثوذكس مسيرة التاريخ وراحوا يتشبثون بأساطير العصور اليهودية القديمة وفى استرا سبورج أعرب البروفيسير "يوسف فانتون" رئيس قسم الدراسات العبرية بالجامعة، عن استنكاره لهذه التقوى الخارجة من كهوف الماضى قائلا:

"ان اتباع هذه المدارس التلمودية الليتوانية الذين يتزايد عددهم باطراد مازالوا يحملون فى وجدانهم معتقدات القرى اليهودية التى شبوا عليها فى بلدان وسط أوروبا، إنهم يعيشون حتى الآن بعقلية القرية التى لم تتفهم بعد أبعاد الفكر الصهيونى. ويواصلون ترديد نفس العبارات النمطية التى شاعت عن الصهيونية فى فترة انطلاقتها الأولى. ويغفلون تماما الحديث عن صواب أفكارها ونجاحها ووجود الدولة الإسرائيلية فى حين أن جميع الجذور المحيية لليهودية التراثية (التوراتية) التى يتمسكون بها ويدافعون عنها ليست موجودة فى فرنسا أو أمريكا وإنما فى إسرائيل! علما بأن الفكر الصهيونى تحديدا هو الذى ساعد فى تركيز هذا العدد الضخم من الأكاديميات التلمودية فى إسرائيل."

***

وعلى نقيض عالم اليهود الأرثوذكس المتشددين، انجذب شبيبة حلف "البيطار" نحو تيار الصهيونية المتطرف، وباسم نفس السنّة والعقيدة اليهودية انبهروا بقوة ونضالية الشعب اليهودى. ومن مواقع تواجدها فى باريس وضواحيها ونيس ومارسيليا سهرت بعض الجماعات التابعة لهذا الحلف على إشعال الروح النضالية وزرع الأمل فى النفوس لتحفيزهم على تحقيق حلم دولة إسرائيل الكبرى التى ستغطى مساحتها ضفتى نهر الأردن. ونظامية هذه الحركة مستوحاة من النظامية العسكرية حيث تلتزم يوميا بتحية العلم وترديد النشيد العسكرى الآتى:

من قلب الوحل ورماد القبر
. بالدم والعرق سينهض شعب
عظيم، شريف الأعراق وصارم. . . .

إن البطل الرمزى لهذه الوطنية اليهودية اسمه "جوزيف ترامبلدور"، جندى الصهيونية العنيد، الجسور بين الشجعان، الذى استبسل وسقط بشرف من أجل الدفاع عن المستوطنات اليهودية الموجودة فى فلسطين. وفي سنة ١٩٠٤ انضم وهو فى الرابعة والعشرين من عمره إلى صفوف الجيش الروسى إبان حربه ضد اليابان. وبسرعة أصبح هذا الشاب الجسور الحليق الحازم بطل فرقته إذ استطاع أن يستعيد العلم الذى استولى عليه العدو أو يرد قنبلة كانت على وشك الإنفجار إلى صفوف الأعداء. . . . واضطر إلى بتر ذراعه اليسرى بعد إصابته فى إحدى المعارك لكنه استأنف القتال قبل اتمام شفائه من الجراحة وردا على اشفاق رفاقه على مصيره تحداهم فى نزال شريف وأثبت لهم بأنه مع كتعه لا يزال أقواهم.

إن هذا الجندى الباسل كان متدينا ملتزما بأصول عقيدته. وعندما أسره اليابانيون، كان يلقن ـ وهو فى الزنزانة ـ دروسا فى الصهيونية لزملائه اليهود المعتقلين ويعدهم نفسيا لفكرة التوجه إلى أرض إسرائيل المقدسة فور إطلاق سراحهم. وبالفعل بعد انتهاء الحرب، غادر جندى الجيش الروسى المقدام امبراطورية روسيا القيصرية ليتوجه للدفاع عن أرض الموعد. ومع اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى، نادى بفكرة تشكيل كتائب يهودية لتحارب إلى جانب الحلفاء من أجل طرد الأتراك من فلسطين. فسافر إلى مصر فى محاولة لاقناع البريطانيين بالموافقة على تعزيز جيوشهم بفيلق من المتطوعين اليهود. وفى الإسكندرية تصاحب مع "فلاديمير جابوتنسكى" منُظِّر الحركة الصهيونية الثورى. وإذا كان "ترامبلدون" مقاتلا فدائيا فكان جابوتنسكى "رجلا خياليا يميل إلى رسم التصورات حيث بشر بأن تركيا على وشك الإنهيار وأن الحرب ستسفر عن تغيير جديد فى خريطة الشرق الأوسط.

وفى تصوره للتغيرات الجذرية التى ستحدث كان لابد من تواجد اليهود حتى يشاركوا في النصر ليجنوا الثمار بعد ذلك ويعيدوا بناء وطنهم القديم على أرض الأجداد. ولقد تعددت الاعتراضات فى معسكر الحلفاء على فكرة تعبئة هذا الفيلق اليهودى المزعوم. ومنذ البداية، لم يكلفوا هؤلاء الشجعان سوى تشكيل فرقة متواضعة من الخيالة لتوصيل الإمدادات للجيش المرابط فى الدردنيل. ولقد شعر "جابوتنسكى" بطعنة هذه الصفعة المهينة لروحه القتالية العالية، لكن "ترامبلدور" هدأ ألم الجرح الذى أصاب كرامة زميله قائلا:

"لا يهم من أين نهاجم تركيا لأن جميع الجبهات تؤدى إلى صهيون"! (أرض بنى إسرائيل القديمة).

وفى سنة ١٩١٧ تم أخيرا تأسيس اللواء اليهودى المنشود. ولأول مرة منذ قرابة ألفى عام استطاع اليهود أن يحاربوا من أجل أورشليم.

وانتهاء الحرب لم يكن يعني بالنسبة "لترامبلدور" الهدوء والسكينة حيث كانت الاضطهادات فى روسيا تدق على الأبواب فسافر إلى هناك لتنظيم فرق الدفاع عن النفس إلا أن جهوده باءت بالفشل بسبب الاضطرابات التى واكبت اندلاع الثورة. ولدى عودته إلى فلسطين علم هذا الجندى الذى لا يكل أن مستوطنى الجليل تتهدد سلامتهم عصابات عربية مسلحة فاتجه على الفور إلى أكثر الأماكن تعرضا للخطر فى قرية "تل حاى". وفى يوم الأول من مارس سنة ١٩٢٠ لقى مصرعه خلال هجوم عنيف ولفظ أنفاسه الأخيرة على هذه الكلمات: "ما أحلى للإنسان أن يموت فداء لبلده..."

وبعد رحيله بثلاث سنوات، تأسس فى "ريجا" عاصمة "ليتوانيا" حلف شبيبة "جوزيف ترامبلدور" الذى سرعان ما ذاع صيته تحت مختصر "بيطار". وانضمت تحت شعار هذا الحلف العناصر الأكثر تشددا للصهيونية وانتشرت حركة البيطار فى كل مراكز التجمعات اليهودية فى بلدان وسط أوروبا إلى درجة أنها عبأت ثمانين ألف شاب قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

ومن فرط إحساسهم بالفخر لكونهم يشكلون النواة التى سيلتف حولها الجيش اليهودى فى المستقبل، أقسم أعضاء البيطار رسميا بتكريس أرواحهم لإحياء الأمة اليهودية وكالوا اللعنات على رأس "حثالة اليسار" لتحقيره وهم يطوفون فى عرض عسكرى بخطوة معتدلة ومنظمة فى شوارع الأحياء اليهودية. ولما كان يلزمهم زعيما يصلح رمزا حيا فاختاروا بطبيعة الحال رفيق "ترامبلدور" القديم، "فلاديمير جابوتنسكى" الذى أصبح ـ لقمة دهشته ـ محل احترام وتقديس بالنسبة لشباب هذه الحركة، والواقع أن "البيطار" هى البوتقة التى ستفرز نخبة اليمين الإسرائيلى، فمن صفوفها خرج رجل مثل مناحم بيجين ومن ايديولوجيتها استلهم آخر سليل لهذه النخبة، بنيامين نتنياهو.

وفى فرنسا الآن، يتدرب شباب هذه الحركة على المصارعة ليسددوا اللكمات لطلبة الجامعة الفاشيين وجماعات النازيين الجدد. ولقد لخص "جاك كويفر". رئيس كتلة الليكود فى فرنسا وهى تجمع أحزاب اليمين الإسرائيلية فلسفته باختصار فى السطور الآتية: "إن مهمتنا تتركز فى محاربة أعداد السامية لنعرفهم بأن زمن الأربعينيات قد اندثر وأن اليهودى أصبح خبيرا فى فنون القتال وأن دولة اسرائيل موجودة الآن. . . وأننا أهل لتلقينه كل ذلك باللكمات وبالدق بالشاكوش على رأسه لترسيخه. ومن الآن فصاعدا ليس على اليهودى المتدين أن يخشى من اظهار هويته بتغطية رأسه بالكيب (طاقية) إنما على عدو السامية أن يحذر التعبير عن مشاعره بتصرفات انفعالية.

"ان شبابنا يعشقون الرياضة !" هذا ما قاله لى باختصار وبدون الحاجة الى مزيد من الإضافات.

ويقوم "ستيفان أوليال" المسئول عن البيطار بمهمة إعداد هذه الشبيبة للعمل، وبناء على كلامه: "ان الهدف من التدريبات هو تعويد اليهود منذ سن الرابعة عشرة من أعمارهم على فكرة الدفاع عن أنفسهم كيهود. وكل واحد عندنا يستطيع أن يقوم بعمل ملموس على الطبيعة فى حالة حدوث أية ظاهرة عدائية للساميين. . إن البيطار مستعد دائما للدفاع عن الشعب اليهودي وأينما يكون مهددا تجدنا بجواره. ونتدرب باستمرار حتى نكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أى طارئ".

وحتى فترة الثمانينيات كان نشاط البيطار الرئيسى يتلخص بالفعل فى مكافحة معاداة السامية. وكان جان بول دريتى هو المسئول، قبل سفره مؤخرا لإسرائيل، عن الـ "تاجار"، وهو الجناح الطلابى لمنظمة البيطار. وعايش تلك الفترة حيث كانت حركته مسئولة خلالها عن تأديب الجماعات التى تكن عداء صريحا للساميين بأسلوب الترويع، وهو يقول فى هذا الصدد:

"إن الحرب ضد اليمين المتطرف كانت تتحور آنذاك حول الصراع المستمر مع جماعات هامشية محدودة. . . ومن آن لآخر كانت هذه الجماعات تتصرف بشكل مخيف فكنا عندئذ نكشر عن أنيابنا وننظم حملات تأديبية فى بعض الكليات وكان هذا يكفى لوضع تلك العناصر المعادية للساميين في محلها ودرء المشكلة لمدة بضعة شهور. وبعد ذلك تغيرت لهجة أحزاب اليمين المتطرفة. وباندماجها مع "الجبهة الوطنية" في تيار سياسى كبير، تبدل الموقف، حيث أصبحت المعركة تدور على المستوى الوطنى لأنها تخص المجتمع الفرنسى ككل".

وخلال تلك السنوات، لم يعد التزام البيطار نحو اليمين الصهيونى هو قضيته الأولى ونقلا عن كلام جان بول دريتى كانت تلك الفترة أشبه بـ "مرحلة من الصراع السياسى الدفين بين الحركات الصهيونية فى فرنسا" وكان هناك آنذاك هدف مشترك فى الحقيقة ألا وهو: الدفاع عن وجود دولة إسرائيل، والتصدى لجبهة الأعداء الممثلين فى: منظمة تحرير فلسطين، البلاد العربية الإتحاد السوفيتى عدو السامية والصهيونية معا. وبعد ذلك إنهار الاتفاق الرضائى تماما وبحسب ما يذكر جان بول دريتى:

"إن التغيير حدث ببطء وابتداء من الحرب فى لبنان سنة ١٩٨٢، دب الإنقسام بين عناصر الشعب اليهودى وتفجرت مشاحنات الجدل السياسى الداخلى بينهم فى وضح النهار. . . وعبر العالم، راح بعضهم يرفع صوته ليعبر عن سخطه بحدة على تدخل الجيش الإسرائيلى فى لبنان إلى درجة أن تجرأ البعض منهم وقالوا انهم خجلون" لكونهم يهودا وفى باريس نفسها تجمع بعض الشباب فى مظاهرة أمام مقر السفارة الإسرائيلية احتجاجا على الحرب فى لبنان. وفى إسرائيل راح فريق الناقمين على سياسة حكومة اليمين يبحث عن بدلاء له في كل أنحاء العالم فاستغل يهود المهجر كرجع صدى لصوته حتى يبرز معارضته لحكومة بيجين.

ولقد هدأت هذه التشنجات نوعا ما بعد انتهاء حرب لبنان ثم عادت تتجدد فى مطلع سنة ١٩٨٧ بمناسبة اندلاع الانتفاضة. . . وهكذا أوجد اليسار الإسرائيلى شرخا فى نسيج الأمة اليهودية بسبب حرصه على الإعتبارات السياسية فقط دون أية مراعاة لقيمنا الروحية دون أن يكلف خاطره للتفكير فى مردود هذا التوجه. ونستطيع أن نقول إن ردود الأفعال التى أعقبت اغتيال رابين كانت النتيجة غير المباشرة لهذا المناخ المقيت. فغداة قتله تلقينا فى مقر البيطار عدة مكالمات تليفونية كلها تؤيد تصرف ايجال عامير. . . وحاولنا أن نقنع محدثينا ونفهمهم أننا لا يمكننا بأية حال من الأحوال أن نقف فى صف هذا الاغتيال السياسى".

وإذا كان جان بول دريتى قد اختار أن يعيش فى إسرائيل فهو يرفض كلية الدولة بالشكل الذى كان يريد اليسار أن تكون عليه:

"على أى أساس كنت سأتمم نزوحى لو كنت انصعت وراء كلام واحد مثل بيريز الذى كان يقول لنا ان إسرائيل فى الغد القريب ستكون فى محور شرق أوسط جديد وواعد؟ أية منفعة كانت ستعود على من ذلك؟ لو وضعوا لى كل الاعتبارات الإقتصادية فى كفتى الميزان فأنا أفضل فى مثل هذه الحالة أن أبقى فى فرنسا! انى أريد أن أحيا فى حضن دولة يهودية متدينة، دولة يهمنى كل ما

يجري فيها يوميا، دولة أعيش فيها فى وئام وتجانس تامين مع كل المحيطين بى حيث تكون مشكلاتنا وآمالنا واحباطاتنا وأحلامنا وتقاليدنا التراثية واحدة. . . إن ما يعنينى شخصيا هو أن أعيش فى بلد يحرص على تخليد كل ما تسلمناه من تراث على مدار ثلاثة آلاف عام من التاريخ بلد يقوم على دعائم حضارتنا ووسط شعب مستعد للدفاع عن قيمه الروحية وعاقد العزم على إحياء مجتمعه الذى تبعثر شيعا فى كل انحاء العالم فى الماضى بسبب الغزو الرومانى".

***

وكما نلاحظ، فان اتجاه الصهاينة الفرنسيين ذاته هو الذى تغير. إذ أنهم يستوردون الآن المشكلات محل الجدل فى إسرائيل، ويحولون الطائفة فى فرنسا إلى حلبة مغلقة يعكسون من خلالها بدون أدنى جدوى الصراعات السياسية الدائرة فى القدس. وبناء عليه فقد تبلور كل نشاط حركة البيطار منذ عام ١٩٩٣ حول معارضة عملية السلام وحكومة اليسار. ومن ثم هاجمت الحركة بدون أى تريث كل الوزراء ونواب الكنيست الإسرائيلى الذين انتهجوا مواقف تتعارض مع الدين، أو تعضد مصلحة الفلسطينيين، واصطادوا بالمناسبة وزيرا إسرائيليا أثناء زيارته فى باريس.

وصرح "جاك كويفر" فى هذا الصدد بقوله: لقد تغيرت الآن ملامح الخطر. فى الماضى كان من الممكن أن ينبع الخطر من عملية اعتداء صريح من شخص يكره الساميين، أما الآن فالخطر ينبع من تميع المواقف أو زيغ فى الرشد أو افراغ اليهودية من فحواها وفقا لمسعى اليساريين الذين يريدون الإفلات من ضوابط العقيدة اليهودية" . . .

وطبعا هذه المعارضة "لليساريين" يستنتج منها عودة بديهية إلى القيم الدينية. وتلك فرصة متاحة بالتأكيد أمام حركة البيطار خاصة وأن فى عالم اليهود المتدينين الفرنسيين، التيار الصهيونى الذى يغذى فى إسرائيل توجهات جناح اليمين المتطرف، ليس ممثلا بشكل تنظيمى لائق. لا شك فى أنه توجد حركة شبيبة الـ "بنيه أكيفا" التى تجتهد منذ نصف قرن لسبك الصهيونية في قالب دينى بيد أن خطها التقليدى لم يعد يتناسب مع التوجهات الجديدة للوطنية المسيّانية (أى الوطنية المرتكزة على فكرة الخلاص). ويفسر الحاخام "دانيال ليفى" كاهن معبد كرملين ــ بيساتر سابقا ــ والمعلم حاليا فى إحدى مستوطنات إقليم اليهودية والسامرة (منطقة الضفة)، هذا الفراغ قائلا:

"إن الصهيونية الدينية يعتبر وجودها منعدما عمليا خارج إسرائيل. أو أن، نظرية الصهيونية الدينية فى حد ذاتها غير معروفة فى فرنسا وأعمال المعلم التلمودى "كوك" لا توجد لها ترجمات لذلك كل الذين يريدون العودة إلى لندن ينغلقون على ذاتيتهم ويعاودون إحياء جو عزلة الجيتو.

إنما نظرا لأن الصهيونيـة الدينية تعتبر أساسا تـنفيذيا فإن أتباعها، يغـادرون صوب إسرائيل! وبينما يواصل المتدينون غير الصـهاينة وجودهم فى فرنسا، يهتم المتدينون الـصهاينة بتدريب الكوادر التى تتأهب للنزوح إلى إسرائيل " . . .

ونفس المشكلة تواجه حركة البيطار بمعنى أنه إذا كان تحفيز الشباب هو المرادف لرحيلهم فإنه يتعين فى هذه الحالة مواصلة تدريب وتعبئة قيادات جديدة للحركة بلا هوادة.

وكما يقول جاك كويفر:

"إن البيطار يتـسم بهذه الميزة العكسيـة التى تجعله بمثابة حركـة صهيونيـة جاذبة وطاردة فى نفس الوقت بمعنى أنه كلما اشتـد عوده كانت شبيبتـه فى قمة الحماس والنتيجـة هى أنهم يندفعون للهـجرة إلى إسـرائيل. فـخلال العـامين الماضـيين هاجـر ما يزيد على مـائتين وثلاثين شـابا من شبابنا. . . "

ومع هذا، ونظرا لحسن تنظيم هياكـله يستمر وجود اليمين الإسـرائيلى فى فرنسا بل ويزيد انعطافه نحو الدين. فخلال العامين الماضيين تم ترحـيل أنشطة حركة البيطار من السبت إلى الأحد تحت ضغط الشبيبـة الحريصين على احترام قاعدة حفظ يوم السبت للعـبادة. "وجاك كويفر" على دراية تامة بهذا التغيير ويعلق على ذلك التحول بقوله:

"إن أعضاء البيطار كـانوا دائما تقليديين ولكنهم غير ملتـزمين. . . . أما الآن فقد زاد تدين الحركة بفـضل الشبيبـة الذين ينضمون إليهـا. لكن هذا الالتزام يعتبـر جزءا من تقاليدنا الـتراثية. "مناحم بيجين" شـخصيا كان يلتـزم باحترام يوم السبت ويهـتم بتفسير النـصوص مع الحكماء أو الحاخـامات. . . إن جذورنا ضـاربة بعمق فى فـصول العهـد القديم ونحن نسـتمد من نصـوصه الأسانيد التى تخدم مطلبنا الخـاص بالعودة إلى أرض إسرائيل وجوهر العدالة الإجتمـاعية وجوهر الشعب اليهودى نفسه كشعب معتز بنفسه وقادر على التقاتل وعلى الدفاع عن أرضه".

إن هذه الحركـة تتقبل بيسـر مواقف المتدينين غيـر الصهاينة لكنهـا تكن كراهيتهـا الشديدة لليسار. ونقلا عن كلام جاك كويفر أيضا قوله:

"إن المشكلة من وجهـة نظرى لا تكمن فى المتدينين بل فى كـل الذين انضموا إلى اليـسار واسـتمـدوا من أفكار "كارل مـاركس" خلاصـا زائفـا. حيث إن أهم شئ الآن بالنسـبة لهـؤلاء الضالين، وأكثر ما يسعدهم هو سماع خبر يفيد بأنه قد تم تنظيم معسكر صيفى فى إسرائيل اشترك فيه اليـهود مع العرب. . . كم هم فخورون بذلك المساكين! إن كـل هذا العالم يزعم أنه يعمل من أجل السلام لكنى أظن أنـنى أدافع شخصـيا عن السلام أكـثر منهم جمـيعا! إنهم يؤيدون عـملية يطلقون عليها اسم إجرائيـة السلام إلا إنها فى الواقع عملية لتصفيـة دولة إسرائيل. . . فما الفائدة

من وجود أى عضو من حـزب العمل فى الحركة الصهيونية الآن؟ ومـاذا يفعل فى معسكرها ذلك الذى يساند عملية تشكك فى تحرير أرض إسـرائيل وفى مركزية القدس، أو ذلك الذى يتصدى لما يصـفه بأنه تطـرف يهودى كـما لو كـان هذا التطرف يطيـر الرقـاب، أو ذلك الذى يرى أن دولة إسرائيل ينبـغى أن تصبح دولة مـثل سائر الدول الأخرى؟ إن كل هؤلاء الـقوم فقـدوا معنى الحلم والإرادة. . . ومن الضرورى ان نخرج فكرة الجبس من عقول بعض اليـهود الإسرائيليين وخصوصا أعضـاء حزب العـمل حيث أن هؤلاء تحديدا نجـوا جسـديا فقط من الجبس لـكن جوهرة لا يزال معششا فى عقولهم! ويواصلون العيش كيهود فاقدى الهوية تحت أغلال حماية الدولة الراعية لهم. فهم يحتاجون إلى موافقة مسبقة من العم سام، وإلى تعضديد من الأمم المتحدة، وإلى جائزة نوبل كضـرب من ضروب التشجـيع وإلى الشعور بمودة الآخـرين نحوهم. أما أنا فـلا يهمنى أن يكون الشعب اليهودى محبوبا إن ما أريده ببساطة شديدة هو أن يكون محل احترام الجميع".

إلا أن هذه المعركة الحامية ضد اليسار فـقدت جزءا من فحواها منذ أن انتخب نتنياهو رئيسا للحكومة الإسـرائيلية ولما كان فوز الليـكود قد أعاد اليمين الصـهيونى إلى الحكم فإن هذا الأخـير مضطر الآن إلى مـساندة الحكومـة الراهنة، وتجده يواصل فى نفس الوقت نشـاطه بهدوء من أجل تحقيق حلم دولة إسرائيل الكبرى. وفى شهر أغـسطس من كل عام تطوف قافلة من الحافلات عبر أراضى اليهودية والسامرة (الضفة) لتـقل إلى الخليل ألفى يهودى فرنسى وهم يلوحون بأعلام زرقاء وبيضاء تحمل شعار نجمة داود نصب عيون الفلسطينيين المذعورة، لأن المقصود من وراء هذه المسيرة الراكبة هو إثبات استمرار الوجود اليهودى وتصميم يهود المهجر الراسخ على عدم التخلى عن هذه الأراضى المقدسـة ثم يتوجـهون بعد ذلـك لترنيم الألحان أمـام الأكاديميـة التلمودية تمجـيدا لمطوية الشريعة الموساوية بعد إخراجها من الاسطوانة المقدسة التى تحفظها. وكل هذا قبل أن يستقلوا رحلة العودة إلى باريس على متن الطائرة.

•

الفصل الرابع

أبواق صهيون

أو اليهود الأرثوذكس فى إسرائيل

توجد في القدس أكاديمية تلمودية جميع طلابها يكرسون أنفسهم لتأدية مهمة فى غاية الخصوصية، مهمة اعداد الكهنة الذين سيرسمون لخدمة الهيكل فى المعبد الكبير لدى إعادة بنائه. ولن تكون ملابس الكهنوت ناصعة البياض من نصيب هؤلاء الطلبة ذاتهم لأنهم لسوء الحظ ليسوا من سبط كوهين الذى سيكون لأسلافه فقط ميزة اقامة الشعائر فى بيت الرب عندما يستعيد بهاءه فوق جبل صهيون. أما هم فسيقنعون بأن يكونوا مرشدى خدام الرب.

وتأهبا لقدوم عصر مجد إسرائيل، يتبحر بعض الحاخامات فى تشريح نصوص العهد القديم لاستخراج أية اشارة عن التنظيم المادى للطقوس الإلهية فى مملكة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف عام مضت. وبصبر واصرار اقاموا من جديد ادوات العبادة القديمة وكوموا حطب المحرقة وأوانى الشرب والأبواق التى تعلن عن الاحتفالات.. وعلى بعد خطوتين من السور الغربى افتتح متحف صغير لعرض ادوات الطقوس والشعائر ويأمل المعلم التلمودى مناحم ماكوفى، أمين محفوظات هذه المجموعة المدهشة أن يتمكن فى يوم من الأيام من اخراج هذه الأدوات من خزاناتها الزجاجية ليحضرها إلى المعبد بعد بنائه. ويقول فى هذا الصدد:

"إن مسئولية بناء المعبد تقع على عاتق بنى شعب إسرائيل وتلك وصية من وصايا الرب ولا ينبغى أن ننتظر تدخلا إلهيا لتلبيتها. وفى الوقت نفسه نحن لا نشغل بالنا على الإطلاق بالاسلوب السياسى الذى سيساعد فى تحقيق هذه النبوءة، فنحن عاكفون فقط على الاستعدادا لهذا الحدث. ان مظاهر هذا الإهتمام الساذج بالتراث تقتصر حاليا على عرض ادوات غريبة خلف الواجهات الزجاجية تسعد السائحين عشاق تاريخ العهد القديم وتلقن المعلمين درسا فى الأشياء مدعوما بالأدوات الدالة على أبهة مدينة القدس العتيقة. لكن المعلم ماكوفى لا يشك لحظة فى أن المسجد ذا القبة الذهبية الذى شيد فى نفس المكان الذى كان الملك سليمان قد أسس فيه قديما هيكل الرب، سيهدم ليفسح المكان لمعبد القدس الجديد الذى سيستعيد أبهته وبريقه.

***

ويرى البروفيسور "دان ماهلر" أن الإفتتاح مؤخرا لتلك الأكاديمية التلمودية التى تتأسس كل برامجها التعليمية على إعادة بناء المعبد الثالث يعتبر دليلا واضحا على حالة الهذيان التى تؤثر وتسيطر على تصرفات عالم اليهود الأرثوذكس المتدينين فى إسرائيل. ومنذ نحو خمسة عشر عاما

كرس "دان ماهلر"، جراح تجميل مشهور، وزوجته صوفيا كل أوقات فراغهما وجزءا لا بأس به من جهودهما لجمعية مناهضة القهر الدينى. ولقد تم انشاء هذه الجمعية المعروفة بمناهضتها للدين لثلاثة أغراض: حث الكنيست على اتخاذ ترتيبات من شأنها الحد من الدعوة، اطلاع الجماهير على بواطن عالم اليهود الأرثوذكس، وأخيرا مساعدة الأسر ضحايا هذا القسر الدينى. ونتيجة لهذا التحرك الفعال، حقق البروفيسور ماهلر بعض النجاحات الطيبة تلك التى لا يزال أبرزها هو تصويت البرلمان الإسرائيلى على قانون يمنع نشر الأفكار الدينية فى المدارس وفى الجيش. وحتى سنة ١٩٨٦ كان مداحو التيار الأرثوذكسى يبحثون عن فرائسهم بين تلاميذ المدارس أو جنود الثكنات العسكرية وكانوا يحرضون العناصر الضعيفة منهم - دون الخوف من الوقوع تحت طائلة القانون - على الالتحاق بالأكاديميات التلمودية، ولكن منذ هذا التاريخ، استطاع حماة الحرية الفكرية أن يستندوا الى قوة القانون لوقف نشاط هؤلاء الدعاة المتطرفين.

والآن. يكرس البروفيسور "ماهلر جام" جهود معركته اليومية بصفة خاصة لمساندة واسداء النصح للأسر الممزقة حيث أن التوبة والعودة الى الدين تحدث فى أحيان كثيرة شروخا غائرة بين أفراد الأسرة الواحدة. علما بأن:

"إحدى الوصايا الرئيسية تحض الأبناء على احترام الآباء، فالوصية الخامسة تقول بالنص "أكرم أباك وأمك.." لكن عند اليهود الأرثوذكس أول شئ يأمرون به اليافع قبل توبته هو أن يقطع كل صلات الرحم بينه وبين أهله اذا رأى أنهم كفرة. وبعد القطيعة يصبح معلمه فقط مرشدا له وصاحب القرار فى كل شئ يخصه وكلمته لابد أن تطاع لأنه يمثل السلطة المتحكمة.

ان هؤلاء الشباب يخضعون لعملية غسيل المخ بمعنى الكلمة. وفى ظرف اسبوع واحد من تجنيدهم فى معاهد دينية معينة حيث يخضعون لكافة أشكال الضغوط النفسية يطرأ عليهم تغيير كلى بحيث لا يعرفهم الناس بعد خروجهم وقد هرست عقولهم وشل تفكيرهم".

ان البروفيسور ماهلر يعى كل كلمة يقولها لأن ابنه من صلبه قطع علاقته بأسرته بعد أن اختار أن يعيش وفقا لشرائع التوراة. واذا كان "دان ماهلر" لم يحدثنى بشكل مباشر عن مأساته الخاصة فانه لوح لى برسالة واردة من بالتيمور تقول: "فقدت أربع بنات وثلاثة اولاد بعد انضمامهم للحاسيديين اللوبافيتش بموجب اقترانهم بأزواج وزوجات من هذه الطائفة ورزقت باثنين وعشرين حفيدا جميعهم لوبافيتش، انه وباء أصاب أبنائى وأزواجهن وزوجاتهم وربما لن يشفوا منه، لكنى آمل فى ألا يكون الأمر بنفس الخطورة عند أحفادى. إننى لم أحضر زيجة أى واحد منهم أو مراسم طهارة أبنائهم الذكور، وعندما كنت موجودا بالصدفة لدى ولادة أحد أحفادى طلبوا منى أن أغادر المكان. وطيلة سنوات متتالية حرمونى من رؤية أحفادى لكنهم بدأوا يكبرون وأكبرهم سيحتفل بعيد ميلاده الثامن عشر ولست أعتقد أن أية قوة فى إلعالم وان كان المسيًا نفسه. لن تستطيع منعه من ترك أبويه ليزورنى".

ان هذه النوعية من الرسـائل تصب يوميا على مكتب "دان ماهلر" وفى عشيـة يوم مقابلتنا نفسه، تلقى مكالمة هاتفية من والدة شاب فى السابعة عشرة من عمره وقع فى شباك التدين على يد حاخام مـتطرف. وفى بادئ الأمر غطى الشاب رأسه بطاقـية المتدينين (الكيبـا) ثم فرض على اهل البيت الطعام حسب الـشريعة بل ومطالبه تزداد يوميا. وبالرغم من كل هذا الالتـزام فانه لا يشعر بأى رضاء: وبعد أن كان طالبا مجتهدا، منفتـحا على الناس وعطوفا، يهوى سماع موسيقى الروك والجاز الصاخبة، أصبح الآن منطويا على ذاته ومنغلقا وصامتا باستمرار وشاردا كمن ضل الطريق.

"ومن شدة قلقهـا سألتنى هذه الأم المكروبة عن التصرف الواجب اتخاذه حـيث أنها كانت مذعورة من احتمال أن تخسر ابنها تمامـا اذا امتنعت عن اتباعه حتى النهاية فى طريق تشدده الدينى المستجد. فـاستندت الى ما يجيزه القانون أولا حـتى أطلع الأم على حقوقها، فمـن حقها أن تمنع هذا الحاخام المتـعصب عن ملاحقـة ابنها القاصر. وبعـد ذلك بعثت الجمعيـة على الفور الى هذا الشاب مـعلما تقليديا عمـيق التبحر فى التلمـود ليلقنه الدين بأسلوب أكثر اعـتدالا. وبدون شك سيـعثر ذلك الشاب عن قـريب على طريق روحانى هادئ لممارسـة دينه.. ولكن للأسف قد يأتى تدخلنا احيانا بعد فوات الأوان لأن الشباب يخفـون لمدة طويلة خبر تجنيدهم فى التيار الأرثوذكسى المتطرف وذلك بناء على نصـائح الحاخامـات لهم. فهؤلاء المرسلون يتـصرفون أحـيانا فى كتـمان وسرية ويحرضـون الشباب على عدم افـشاء أى شئ لأسرهم "لاحتـمال عدم تفهـمهم للأمر". وعندما يكتشف الضرر يكون من الصعب فى هذه الحالة اقناع الضحية بالتراجع".

واستعرض "دان ماهلر" أمامى ملفات متـخمة بالرسائل والأدلة وقصاصات الجرائد. وهذه الوثائق تتبلور حول المآسى الأسرية التى تقع بسبب الدين كخلفـية أساسية فى جميع الحالات. لأن تطبيق "الحالاخا" بحذافيرها فى أواخر القـرن العشرين لا يمكن أن يسفر إلا عن مشكلات شديدة التعقيد ومرفوضة منطقيا.

ان الديمقـراطيـة الاسرائيـلية لاتزال فى مـأزق بسـبب الدين حـيث ان غـموض المـفهـوم الأيديولوجى لعـبارة "أمـة يهوديـة" يفرض على أرض الواقع سـيطرة رجـال الدين على السلطة العلمانية. وبعض مظاهر هذه السيطرة تعترى شكلا فلكلوريا لا تستـتبعه عواقب خطيرة مثل أجازة يوم السبت والعـمل فى يوم الأحد أو هيئة نجـمة داوود الحمراء بدلا من الصليب الأحـمر. ولكن هناك أشكال أخـرى من اختـلاط الدين بالدولة تضـغط بشدة على حـياة المواطنين وقـد يكون من الصعب احتمالها فى أمة عصرية.

ولاتزال صحيفـة بيانات الحالة المدنية للأفراد من اختصـاص رجال الدين، واصدار تصريح دفن الموتى لا يتم إلا بناء على إثبات الانتماء الدينى، وبناء على ذلك فـان المقابر تختلف باختلاف الطوائف الى درجة أنه تم تخصيص جبانة خاصـة للحالات المتنازع بشأنها لموتى معروف أنهم يهود

لكن الحاخامية لا تعترف بانتمائهم لهذه الصفة. وفيما يتعلق بالمشكلات المرتبطة بالزواج فان الوضع يزداد تعقيدا. إن الازواج المتزوجين من أجانب أو الملحدين بصريح العبارة لابد أن يغتربوا للتزوج ثانيا أو ثالثا. والطلاق لا يصدر، طبقا لـلقانون اليهودى. إلا بناء على رغبة الزوج فقط. واذا هجر رجل زوجته بدون أن يمنحها الطلاق فانه يستطيع شرعا أن ينجب من زوجة ثانية ولا يكفل الشرع نفس الحق للزوجة المهجورة واذا حدث وأنجبت أبناء من رجل عاشرته سرا فانهم يعتبرون لقطاء فى نظر الدين. ولاشك أن مثل هذه التفاصيل تعتبر ثانوية بالنسبة ليهود المهجر حيث ان القانون المدنى هو السارى هناك لكن عدم مراعاتها فى داخل اسرائيل يساوى لفاعلها الفرز من الديانة اليهودية.

وبعض المحاكم اليهودية الشرعية تصدر أحكامها أحيانا لصالح الأزواج وتصرح لهم بالزواج مرة أخرى دون أن تشترط عليهم تطليق زوجتهن السابقة لأسباب غير منطقية مثل عدم انجاب الزوجة ولدا يرث أباه، أو عدم فتنة منظر الزوجة أو عدم كفاءتها كربة بيت. ووصل الأمر الى حد أن الحاخامية العليا فى اسرائيل أعدت قائمة سوداء من أربعة آلاف اسم جميعها لمواطنين ومواطنات شرفاء ولكن فكرة الزواج منهم أو منهن تخضع لقيود فى غاية القسوة: حيث أن شكوكا تحوم حول جذور أسرهم اليهودية، لأن بعض السيدات يزعمن أنهن زانيات، لأن بعض النسل مفترض انتماؤهم لطبقة الكهنة ومن ثم فامكانية الزواج منهم محدودة بقيود كثيرة فتلك الحالات تشكل اسماء القائمة العجيبة إلتى استبعدت ومثلما هى الحال فى كل النظم الديمقراطية فان الزواج المدنى يتيح الفرصة للتحايل على كل المراسيم اليهودية الأرثوذكسية ولكن مثل هذا النظام غير قائم فى اسرائيل وفى كل مرة تطرح فكرة الأخذ به يثور الكهنة بحجة أن سريانه سيؤدى الى ضياع الهوية اليهودية.

وامام التطبيق الأعمى للشريعة اليهودية، تضطر أعلى الأجهزة التشريعية فى الدولة الى التدخل أحيانا لوقف بعض الانحرافات السافرة. وبموجب حكم وصفه النائب العام بأنه "ثورى" ألغت محكمة الاستئناف العليا فى شهر فبراير من عام ١٩٩٤ قرارا للمحكمة اليهودية العليا فى تل أبيب بشأن قضية طلاق اذ وجدت الأولى أن حكم الثانية كان مجحفا لأبسط مبادئ العدالة. ونظرا لأن الشريعة اليهودية تقضى بألا يؤول للزوجة فى حالة الانفصال سوى قيمة المبلغ المتفق عليه المثبت فى عقد الزواج فقد وجدت احدى الزوجات نفسها محرومة من حق الانتفاع بنصيبها من الثروة التى جمعتها بالاشتراك مع زوجها السابق أثناء حياتهما الزوجية. وبناء عليه أصدرت محكمة الأحوال المدنية حكما أكثر انصافا لهذه السيدة الأمر الذى أثار أرق السلطات الدينية كما أثار حنق الحزب الوطنى الدينى.

وفى أعقاب الانتخابات الأخيرة، صرح "شاول يعالوم" الرجل الثانى فى هذا الحزب بقوله: "نود تدعيم سلطات الكهنة فيما يتعلق بمسائل الزواج والطلاق ودفن الموتى. وسنسهر على

استمرار حفظ يوم السبت للعبادة حيث ان محكمة الاستئناف العليا قد أعطت لنفسها امتيازات أكثر من اللازم".

ومن أثر تزايد أعـداد المتدينين فى اسرائـيل على نمط الحياة اليـوميـة: التشديد عـلى جعل مطالب الأرثوذكس أوامر نافـذة على رقاب الناس، ففى الآونة الأخـيرة تم تزويد جمـيع وحدات شركة "دان" لسيارات النقل وقـوامها ألف وثلاثمائة وحدة بلافتة تنبيه طبعت عـليها صلاة خاصة لحفظ الركاب من شرور الطريق فى حين تعـاقدت شركة حجّاد المنافسة مع "مـستشار أرثوذكسى" ليتابع بعناية كل ملصـقات الدعاية الموضوعة على مركباتهـا. والأخطر من ذلك أنه عندما يكتشف خبراء الآثار مقبرة قديمة أثناء التنقيب، فانهم يضطرون الى اللجوء الى ألف حيلة حتى يتمكنوا من استكمال عـملهم بهدوء فى الموقع بحثـا عن آثار الماضى. ويضطرون أحيانا للعمل سـرا فى ظلمة الليل واخفاء جزء من اكتـشافاتهم. . وإلا سيثيرون ثائرة عالم اليـهود الأرثوذكس برمته. اذ عندما اكتـشفت فى شهـر يناير من عام ١٩٩٣ جـبانة أثرية على مقـربة من بوابة يافا فى القـدس تحزب ثلاثون ألف متدين واعتصموا فى مظاهرة احتـجاج على تدنيس حرمة الموتى، لأن الأجساد ينبغى أن تبقى راقدة فى انتظار قيامتها وفقا للوعد الإلهى فى يوم الآخرة.

وثمة مطالب أخـرى للمتدينين استطاعت أن تفـرض نفسها بشكل أو بآخـر على المجتمع: مثل إلغاء جمـيع رحلات شركة الطيران الوطنية "العـال" فى يوم السبت. وهذا القرار ينطبق على رحلات الطيران المدنى فقط أما طائرات الشحن فيبدو أنها مـعفاة من تطبيقات الشريعة، وعمليات الاجهاض المحظورة أيضا تتم بعـيدا عن الشريعة، وعمليات التشـريح الممنوعة تجرى فى سرية فى المستشفيات. وهكذا يواصل مجتمع المدنيين العلمانيين مسيرته بصمود.

والأرثوذكسـية من وجهـة نظر "دان ماهلر" هى داء حقـيقى يصيب الروح وكـبرهان على صحة كلامـه روى لنا كيف أنه اسكن فى بيته ذات يوم من الأيام شابة فى الثامنة عـشرة من العمر كانت قد فرت من بيت الأسرة، وظلت شاردة عـدة أيام قبل أن تحتمى فى داره. فاتصل دان على الفور بوالدتها لطمأنتها واذا بهذه السيدة المتدينة المقيمة فى القدس التى كنت أبلغها أخبارا عن ابنتها الهاربة تستفسر منى عن شئ واحد فقط:

"هل تأكلون فى داركم حسب الشريعة"؟

وكم من المرات أسكنت عائلة "ماهلر" أشخاصا هاربين من قـيود الدين فى فيلتهم الفاخرة بأحد أحياء تل ابيب الفاخرة. حيث يبدو أن التخلى عن الدين فى اسرائيل من قبل جيل كامل من الشباب المنتمى أصلا لـلأوساط الأرثوذكسية يعتبر من الموضوعـات محظور التطرق إليها، فى حين أن هذه الظاهرة تستدعى أن يهتم بدراستها التربويون واساتذة علم النفس: اذ يدخل هؤلاء الشباب فى مجتمع يجهلـون عنه كل شئ، فهم لا يلمون بأى شئ عـن الرياضيات والتـاريخ والجغرافـيا

وفجأة يجدون أنفسهم مقذوفين فى العالم العلمانى بدون أية مؤهلات وبدون امكانية العثور على أية فرصة عمل. وحدث أن طلب شاب عمره ثمانية عشر عاما بعد انقطاعه عن الدراسة فى المدرسة التلمودية، من "دان ماهلر" أن يرى ما هو الجبل ثم قال له: "أعرف أن هناك جبالا قرأت عنها فى الكتاب المقدس لكن عينى لم ترها أبدا".

إن هذه الثغرات تشكل عائقا حقيقيا أمام اندماج هؤلاء الشباب فى المجتمع، مما حث بعض الأرثوذكس السابقين على تأسيس جمعية تكافل كل هدفها هو اطلاع الهاربين من الشريعة التوراتية على أبسط أساسيات الحياة العادية. وأطلقوا على هذه الجمعية اسم "هليّل" وهو أحد قضاة بنى إسرائيل فى القرن الأول قبل عصر المسيحية والذى تفيد سيرته فى التقليد بأنه كان يعشق تلخيص كل مبادئ الديانة اليهودية بهذه الآية من سفر اللاويين: "حِب قريبك كنفسك".

وإذا كان بعض الشباب يتركون بصفة منتظمة المدارس التلمودية فإن هذه المدارس تمتلئ باستمرار بالطلبة القادمين من دول المهجر. وفى هذا الصدد يقول "دان ماهلر" إن يهود المهجر إعتادوا أن يرسلوا ابناءهم المتعبين، وشبابهم المدمنين والأشقياء إلى المدارس التلمودية:

"إنهم يقضون بهذه الطريقة على متاعبهم الأسرية ويخفون فى نفس الوقت الحقيقة عن الجيران والأقارب. لكنهم يفسدون علينا الحياة هنا بتصدير مشكلاتهم لنا.. إنهم يدفعون مبالغ سخية من أجل أن يتخلصوا من همومهم وبدلا من ارسال هذه الأموال لدعم المستشفيات أو سائر المرافق النافعة للبلاد فإنهم يدعمون بها التطرف الدينى".

إن إيداع الأبناء المزعجين فى المدارس التلمودية يعتبر راحة كبيرة بالنسبة لأعداد لا بأس بها من الأسر اليهودية المقيمة فى المهجر، ألا يظهر لهم عالم اليهود الأرثوذكس صورة تعتبر رمزا للهدوء والاجتهاد والحكمة؟ إنها واجهة مبهجة ومخادعة فى الواقع لأن خلفية هذه الصورة تخفى مجتمعا متعددا فيه المتمردون والمعتوهون ويضم أيضا أسوة بأى مجتمع آخر، اللصوص والمزورين والنصابين.

ثم يستطرد "دان ماهلر" كلامه قائلا:

"لكن عند الحارديم أى الذين يخافون الله جميع الحقائق مخفاة. إذ لديهم محكمتهم الخاصة، وقوانينهم الخاصة أيضا. إذ عندما يقع يهودى أرثوذكسى ضحية لشخص مثله فلا يحق له اللجوء لقسم الشرطة بل عليه أن يرفع شكواه أمام محكمة حاخامية. وأى إخلال بهذا النظام العرفى سيجلب على صاحبه أقصى العقوبات. حيث باعتباره متعاونا مع المجتمع العلمانى سيتم فرزه ونبذه من الطائفة. ومن ثم لن يستطيع أحد مكالمته أو مسايرته أو معاملته حتى باب المعبد سيحرم من دخوله واسمه سينشر فى قوائم المحرومين وسيوزع على مستوى الطائفة.. ومن الممكن

أن يستمر هذا الوضع اللعين لسنوات طويلة حسب خطورة الحكم الصادر ضده. ويصل الأمر فى بعض الحالات إلى درجة نفى المذنب من البلاد".

وتنقل الصحف الإسرائيلية بانتظام أخبار هذه الأحكام المُعيرة. ومن مدة قريبة أى فى شهر ابريل من عام ١٩٩٦ وقع بعض الكهنة الأرثوذكس اللعنة على سيدة اتهمت "بالتعاون" مع عدالة الدولة العلمانية وبموجب هذه العقوبة تم طرد بناتها من مدرستهم الدينية... أما عن سبب كل هذه القسوة فلأن هذه السيدة تجرأت وفضحت أمر زوجها إلى السلطات الشرعية بعد أن اكتشفت أن هذا المربى الفاضل فى مدرسة "بنيه براك" كان يقهر أبناءه على ممارسة الجنس معه.

***

وفى المهجر، كان اليهود يعيشون فى العصور الماضية منغلقين على انفسهم داخل أحياء سكنية خاصة بهم وكانت هذه الأحياء تعرف باسم الجيتو فى المدن الأوروبية و"شتيتل" فى قرى وسط أوروبا و"الملح" فى منطقة شمال افريقيا وكانت علاقاتهم محدودة للغاية مع العالم الخارجى. وحتى أواخر القرن التاسع عشر كانت الغالبية العظمى من يهود بولندا تتحدث اللغة العبرية بطلاقة والبولندية بركاكة، أما عن يهود شمال افريقيا فعدد بسيط منهم كان يلم باللغة العربية فى حين كانوا يستخدمون اللغة الفرنسية فى حياتهم العملية، ويتحدثون بلغة يهودية معربة فى منازلهم. وكانت البيئة المحيطة بهم سواء كان مجتمعا إسلاميا أو مسيحيا، والتى كانت تعاديهم أحيانا وتحتقرهم دائما، تجسد فى عيونهم بسهولة معنى الأذى وتشكل تلقائيا حاجزا منيعا قادرا على حث الفضوليين من داخل الطائفة بتجاوزها لاستطلاع الأمور على حقيقتها، أما فى إسرائيل فالجوار المباشر لليهود الأرثوذكس لا يضم أعداء للساميين ومن ثم الانجذاب إلى العالم الخارجى لا يلغيه الخوف من وجود أناس مؤذيين متربصين لهم خلف أسوار الجيتو، حيث أن هؤلاء الناس برءوسهم المكشوفة ووجوههم التى بدون لحى هم يهود أيضا. وبرغم اختلافهم فهم متشابهون. وبعد زوال الحواجز الجسدية، أصبح الحديث عن العزلة والخصوصية ليس به مضمون لأنه فقد أهم مبرراته. ولكى يحمى عالم الأرثوذكس نفسه فإنه يتقوقع ويتشبث بقواعد تزداد صرامتها وتطرفها كل يوم باعتبارها الضمان الوحيد لاستمرارية هويته الدينية الأصيلة. ومن هذا المنطلق تم انشاء جيتوهات جديدة أكثر انغلاقا خاصة وأن خطر الاندماج مع البيئة المحيطة أصبح أكبر الآن. ومن باب التيسير أو نتيجة الكسل الذهنى أو بحكم العادة تطفو على السطح أحيانا الصور النمطية القديمة، لذلك فقد رأى السيد "كوبى أمستر"، المستشار القانونى لرابطة مكافحة التشهير، وهى جمعية أرثوذكسية، أنه من المهم الحديث عن "ممارسة معاداة السامية" بصدد الهجوم الأيديولوجى الذى يقع على المتدينين داخل إسرائيل.

***

فى ضواحى تل أبيب توجد مدينة صغيرة اسمها "بنيه براك"، يقطنها مائة وأربعون ألف نسمة كلهم من الأرثوذكس.. وعدد الدكاكين فيها أكثر من المقاهى وفى يوم السبت تنصب السواتر فى الشوارع لمنع دخول السيارات حتى لا تحدث ازعاجا فى يوم الراحة المقدس.

هذا المنظر المبهج يخفى وراءه مجتمعا صارما متعصبا وعنيفا. ففى أواخر سنة ١٩٩٥ تم احراق كشك بيع جرائد فى أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة حيث تجاسر البائع ووضع كبرى الصحف القومية إلى جانب الصحف الأرثوذكسية العفيفة! علما بأن المعروض لم يكن مجلات خليعة أو جرائد خاصة بالمرأة حيث كان من الممكن أن تعرض هذه النوعية موديلات مثيرة للملابس الداخلية بل كان المعروض عبارة عن صحف خبرية فقط. ولقد طُلِبَ من البائع أن يسحب هذه المطبوعات العلمانية لكنه رفض الاذعان للأمر فتم تهديده، ولم يرضخ أيضا وبعدها بأيام معدودة التهمت النيران كشكه فى ظلمة الليل.

وكلما تسنح الفرصة لا يتردد الأرثوذكس فى التوجه لتوزيع نصّائحهم خارج حدود أحيائهم. فقد التهمت النيران من جراء هذه الطلعات مواقف للركاب لأنها كانت تضم لافتات دعاية خارجة بعض الشئ كما انفجرت قنبلة حارقة فى محل جنس (لبيع مستلزمات الاثارة الجنسية) فى القدس حيث يعتبر الانحلال الجنسى من كبريات الرذائل التى تؤرق هؤلاء المهاويس الساهرين على اعلاء راية الفضيلة. وسنلحظ معنى ذلك من خلال هذا التصريح الذى أدلى به "بن شلومو"، نائب حزب شاس فى الكنيست الإسرائيلى.

"إذا كان ستمائة وثلاثة من الجنود الإسرائيليين قد ماتوا ابان الحرب فى لبنان فان السبب فى ذلك يرجع لسلوكهم الجنسى الوضيع مع الجنديات الإسرائيليات:.

إن بعض الأرثوذكس خولوا أنفسهم السلطة لفرض مفهومهم للشرائع التوراتية على الآخرين قسرا، ووصولا لهدفهم فإنهم يمسحون الشوارع مسحا سيرا على الأقدام فى سرية تامة ليس فى "بنيه براك" فقط بل فى كل الأحياء التى يقطنها الأرثوذكس فى سائر المدن الإسرائيلية أيضا. وعند اللزوم يلجأون إلى العنف والترويع والوشاية كأسلحة لخدمة هدفهم. وبهذه الطريقة تكون عين "ميليشيا الحفاظ على الطهارة" موجودة فى كل مكان حيث ان مهمتها هى الحفاظ على مظاهر الالتزام الصارم بالقيم: إذا حدث مثلا أن طال الحديث بين امرأة متزوجة وأحد الرجال فان زوجها تصله رسالة مجهولة تلقى اللائمة على الزوجة المومس التى سمحت بالحديث من أصله. وإذا كان أحد المتاجر يبيع سلعا غذائية مشكوكا فى أمرها من الناحية الشرعية فيتم تهديد صاحبه بتوزيع نشرات تفضح إثمه وجرمه فى حق الدين.

وتعتبر "يد الأخوة" شرذمة أخرى من شراذم الإيمان لكنها أكثر عنفا من سابقتها حيث أنها تتدخل عندما يتهم المتدين بالاخلال بالأوامر الصادرة حتى فى عقر داره. اذا ثبت مثلا ان أحد

سكان "بنيه براك" يمتلك جهاز تليفزيون، ذلك الشئ البغيض، فإن الضغوط التى سيتعرض لها ستقنعه بالعدول بأقصى سرعة عن نزوته والعودة إلى الطريق القويم. أعرف سيدة جريئة جدا عندها تليفزيون فى شقتها . لكنها عندما تخرجه بحرص شديد من مخبئه فى الدولاب تضطر إلى أن تتابع البرنامج ووجهها لصيق بالشاشة مع خفض مفتاح الصوت إلى أقل درجة. الاحتياط واجب لأن الجيران لو سمعوه من الوارد أن يكشفوا سرها إلى "يد الأخوة".

حكاية أخرى عن شاب في العشرين من العمر جلبه فضوله لاكتشاف ما يجرى حوله فتصرف بحماقة استلفتت أنظار حراس الفضيلة الأفاضل مما جعلهم يقتفون أثره. إذ كان يذهب لمشاهدة الأفلام السينمائية ولم يكتف بهذا بل تجرد من القفطان الأسود ليرتدى البنطلونات الجينز حقيقى أنه لم يكن يزعج راحة أحد لكنه كان يسمع فى الكوخ الصغير الذى استأجره موسيقى صاخبة ويحرز أكواما من القصص الفاضحة وكتب أدب وفلسفة وربما أيضا بعض كتب التاريخ. فاقتحم عليه خلوته فى مسكنه المتواضع مندوبون من جماعة "يد الأخوة" وحطموا كل الإسطوانات ودمروا المكتبة وتعاملوا بوحشية مع الشاب.. فما كان عليه منذ هذه اللحظة اما أن يرضخ أو يفر هاربا. واختار الهرب من "بنيه باراك" ولم يطأها بأقدامه أبدا بعد ذلك.

وجدير بالذكر أن التعصب الدينى ليس حكرا على الجماعات العدوانية المشكلة خصيصا لقمع الناس، بل يبدو أنه مغروس فى الأذهان من الصغر. فى "رامات جان"، كان الطفل شاى ثمانى سنوات، تلميذا بإحدى المدارس الدينية إلى أن قرر أبواه إعادة قيده فى مدرسة علمانية من شدة ضيقهما من محدودية فكر مدرسيه. ولم تكن ميليشيا غريبة هى التى هاجمت الطفل وحطمت نظارته وأدمت وجهه باللكمات بعد وصمه بالخيانة. إن المعتدين كانوا زملاء فصله السابقين أى مثله فى الثامنة من العمر.

وهذه الظاهرة المخيفة لا تطبق فقط على العالم الخارجى. بل ان حاشيات المعلمين المختلفة تتبادل الكرة فيما بينها وتحتقر كل منها الأخرى من الأعماق. وتتبادل اللعنات والشتائم لمجرد اختلاف لا يذكر فى المفاهيم اللاهوتية. وأحيانا يتفاقم الموقف وينفجر فينعكس فى اعمال عنف. وأخطر هذه الاعتداءات ارتكبت فى عام ١٩٨٤، فى أوج فترة الحملة الانتخابية حيث هجمت عصابة مسلحة بالسنج على النائب البرلمانى الأرثوذكسى "مناحم باروخ"، شيخ فى السبعين من العمر، أثناء صلاته فى المعبد ونهبت دار العبادة وتم نقل عضو البرلمان الى المستشفى للعلاج من كسر ضلعين من قفصه الصدرى.. أما عن المهاجمين فكانوا من "حاسيديى جور" اذ كانت قد بلغتهم شائعة تتهم باروخ بالحديث بسخرية عن مرشدهم الروحى!.

وفى حياة الأرثوذكسى العادية، تطل قرارات الطرد من الجماعة المنتمى إليها الفرد برأسها فى كل لحظة. فاذا أرادت نجلة نصير مرشد فيشنيتز مثلا أن تتزوج نجل نصير مرشد بلتز، فان

الحزن يفرض نفسه على كلتا العائلتين. حقيقى أن الرب واحد والشعائر متشابهة والموروثات التراثية متقاربة ولكن ما الفائدة اذا كان شكل قبعة الرأس الفرو "الشترايمل" التى يستخدمها الأرثوذكس مختلفة بعض الشئ وخياطات السترة شرحه.. هذه الفوارق تكفى لكى يشعر أى طرف بغربة الطرف الآخر. ومؤخرا عندما تزوج حفيد "أبراهام شابيرا"، وهو من الشخصيات البارزة فى حزب أجودات اسرائيل الأرثوذكسى، وحسيد جور، فتاة تنتمى لأسرة تابعة لمرشد آخر، لم يتردد الأهل والأجداد فى قطع كل صلة تربطهم بهذا الإبن الفالت.

حتى الأكاديميات التلمودية أيضا تمارس التفرقة. فالطلبة المنتمون لأسرة يهودية غير متدينة يتم عزلهم فى معاهد محجوزة خصيصا للداخلين الجدد فى الدين، لأن هؤلاء لديهم تجارب ولا ينبغى أن يفسدوا بها طهر البراعم الأرثوذكسية النقية. وعندما يفكر واحد من هؤلاء المستجدين فى الزواج فلا يكون أمامه فى أغلب الأحيان سوى فرصة الاقتران بمستجدة مثله لأن جميع الأسر التقية ستغلق الباب فى وجهه نظرا لأن التوبة والرجوع الى الدين لا تمحو بقعة فترة ضلاله السابقة أبدا.

ولا يتوقف تعصب الأرثوذكس عند رفضهم للتيارات الدينية المختلفة انما يمتد رفضهم أيضا لبعض الجذور العرقية. وتدليلا على صحة هدا الكلام روت صحيفة يديعوت احرونوت كيف تم رفض قبول اوراق تقديم مجموعة من التلاميذ السفارديم الذين كانوا يرغبون فى استكمال تعليمهم فى احدى الأكاديميات التلمودية التابعة لحاسيديى براتلاف رفضا قاطعا بالجملة. عندئذ نصحهم المعلم اليعازر بولان المسئول عن ارجاع هؤلاء الصبية الى الدين باضافة اسماء أشكنازية معروفة الى اسمائهم لدى اعادة تقديم طلباتهم.. فأذعنوا لهذه النصيحة الصادقة وقبلوا جميعا.

وهناك على الأقل سبب واحد يجعل الأرثوذكس يتكتلون ألا وهو حقدهم الجوهرى لدولة اسرائيل وان كانت هذه الكراهية قد بدأت تهدأ وطأة لدى الأجيال الجديدة. والسبب الأساسى لذلك الاعتراض العنيف مرجعه أن البشر عندما أرسوا بأيديهم دعائم الدولة اليهودية انما يكونون قد حلوا مكان المسيًا الذى ليس فى مقدور أحد سواه أن يعيد لبنى اسرائيل وطن أجدادهم. وعلاوة على هذا المنطق الدينى البحت نجدهم يتحاملون فى حمية إنفعالهم على هيرتزل وبن جوريون ورابين وبيريز وحتى نتنياهو دون أدنى اعتبار للتسلسل المنطقى للأحداث عبر العصور حيث أن العدو لم يعد خصم السامية المعهود ـ نظرا لعدم وجود: هذه النوعية من الأعداء فى قلب اسرائيل ـ وانما "يهودى اليسار" وتحت هذا المسمى التقريبى يشار بداهة الى اليهودى غير الملتزم بقواعد الأرثوذكسية الصارمة، وتتبلور حوله كل المخاوف المتوقعة من العالم الخارجى وكل الأساطير المخلوطة بمشاعر الرفض والذعر والرعب التى كانت تحاك فيما مضى حول العسكر الروس المتأهبين لاختراق عزلة الجيتو كالصاعقة.

وروى لى أحد المتدينين بانبهار أنه اثناء مظاهرة لليسار فى تل أبيب قام شخص بتوزيع شطائر بشرائح الجامبون على الجماهير.. ومن الطبيعى أن يكون مصير هذا المستفز الذى تجرأ ووزع لحم الخنزير المحرم شرعا على اخوانه اليهود، هو الدفن تحت أنقاض منزله الذى دمره صاروخ سكود صدام حسين ابان حرب الخليج. ثم عقب هذا المفسر الضليع ببواطن الارادة الإلهية يقول مستشهدا بالجيمارا (كتاب شريعة الأرثوذكس):

"مكتوب فى الجيمارا أن الذى يجعل الشعب يعصى النواهى الإلهية لا يغفر ذنبه أبدا.. ".

إن الشخصية التاريخية التى تجسد كل الهواجس المسممة لهؤلاء الأرثوذكس هى شخصية "تيودور هيرتزل". فهناك شائعات غريبة منتشرة فى المدارس التلمودية بصدد مؤسس الصهيونية السياسية مفادها أن جميع نسخ أهم أعماله "الدولة اليهودية" حذفت منها فقرات معينة بفعل فاعلين مجهولين. اذ يبدو ان فى المسودة الأولى كان المؤلف يقترح فى خاتمة كتابه اهتداء جميع اليهود المجتمعين فى وطنهم الجديد الى الكاثوليكية.

من الصحيح أن فكرة هذه الهداية على مستوى كبير قد داعبت رأس هيرتزل قبل أن يختار فكرة الوطن القومى لحل المشكلة اليهودية. ونقلا عما دونه فى مذكراته الخاصة: "فان فكرة العماد الجماعى تتأرجح بنفس النسبة بين الجدية والهزلية.. اذ ينبغى أن نعمد الأطفال اليهود قبل أن يدركوا ما يحدث لهم وقبل أن يتمكنوا من تكوين رأى مؤيد أو مناقض لهذه الخطوة اذ ينبغى علينا أن نذوب فى الشعب". عندما طرح تيودور هيرتزل هذه الفكرة المجنونة أمام أصدقائه، قوبلت بالضحك والقهقهة مما جعله يقتنع بسرعة بالعدول تماما عن هذه الحملة العجيبة، وبعدها بعامين أى فى يوم ٣١ من شهر اكتوبر من عام ١٨٩٤، اذ كان يشتغل بالصحافة آنذاك، أبرق من مقر عمله فى باريس الى الصحيفة النمساوية التى كان يعمل لحسابها بنبأ القبض على ضابط يهودى برتبة كابتن بتهمة التجسس.. ولقد تسببت فضيحة "دريفوس" فى تقسيم الرأى العام الفرنسى لسنوات طويلة ومن ثم فى إلهام "هيرتزل" بفكرة تسوية مشكلة اليهود عن طريق حل سياسى وهكذا ولدت الصهيونية.

ان مجرد معرفة أن تيودور هيرتزل قد داعبت أفكاره نقطة الهداية قبل أن يصبح زعيم الصهيونية بدون منازع كفيلا فى حد ذاته بأن يجعل رجال الدين يقفون منه موقف التجاهل واللامبالاة، ان موضوع التدخل فى عجلة التاريخ والانعكاس الفوضوى أحيانا لبعض النظريات على أرض الواقع، واندلاع احداث كفيلة بتغيير مجرى حياة البشر كل هذا لا يؤثر على الإطلاق فى نفوس المتدينين الذين قلما اعتادوا على التنقيب بدقة فى فصول التاريخ لتفهم مفاتيح تحولاته الكبرى. وبالاضافة الى أن كل مقومات شخصية هذا المتبختر النمساوى تثير اشمئزازهم، فكيف يقرون بأن حلم اليهود فى العودة الى أرض صهيون قد تحقق تحت رعاية هذا الاشتراكى الذى كانت أفكاره أقرب الى أفكار "كليمونسو" اليسارى من انتمائها للتلمود ؟.

ان اسحق رابين، الذى راح ضحية للتعصب الصهيونى، لا يحظى هو أيضا بأى قبول فى عيون اليهود الأرثوذكس حتى اذا كانت جميع الخطب تردد دائما نفس العبارات الآتية: "عملا مشينا.. عارا ونقطة سوداء فى جبين الشعب اليهودى برمته.. انما.." .

انما. نعم انما يبدو أن رابين كان ضمن الذين فتحوا النيران فى يوم ٢٢ من شهر يونية من عام ١٩٤٨ على الـ "ألتالينا" . وهى الباخرة التى استأجرتها منظمة الأرجون العسكرية التابعة لمناحم بيجين. وكانت تلك الباخرة المحملة بالبنادق والذخيرة قد رست فى عرض البحر المواجه لساحل تل أبيب مما جعل بن جوريون يظن أنها تحمل تعزيزات لشرذمة المتمردين المصممين على اعادة النظر فى شرعية حكومته المؤقتة، فتعامل معها بالسلاح وأسفرت هذه الحرب الأهلية الخاطفة عن ضياع أرواح أربعة عشر عضوا من منظمة الأرجون وجنديين من صفوف الجيش النظامى. ولا يتردد اليهود الأرثوذكس اليوم عن ترديد أن اليد التى قتلت رئيس الوزراء الاسرائيلى فى يوم ٤ نوفمبر من عام ١٩٩٥ كانت موجهة بارشاد من الله سبحانه وتعالى كعملية انتقام موجهة ضد هذا اليهودى الذى تسبب منذ قرابة خمسين عاما مضت فى مقتل بعض اخوانه من اليهود.

"ولابد أن نتذكر الحكمة التى تقول: "من قتل يقتل ولو بعد حين".. حيث ان كل شئ يتم بسماح من الله، حتى هتلر نفسه كان أداة لتنفيذ المشيئة الإلهية. وكما هو مذكور فى التوراة، إن الله قال لنبوخذ نصر، ملك بابل الذى هدم وأحرق بيت الرب فى القدس: "أنت خادمى".. بما يفيد ان الله يستخدم الأشرار أحيانا لتأديب الشعب اليهودى عند اللزوم" .

إن ناطق هذه العبارة يدعى "موشى كوفمان"، وهذا الرجل الذى هو أب لإثنى عشر ابنا أعطانى درسا فى التاريخ على طريقته الخاصة عن كيفية نشأة دولة اسرائيل وعملية تهجير الشباب اليهودى من منطقة المغرب فى شمال افريقيا. فروى لى أن هؤلاء الشبيبة اقتلعوا جماعة من أسرهم المتدينة وتم ترحيلهم للعيش فى فنادق فاخرة على الكوت دازور أو ساحل البحر الأدرياتيكى وهناك اختلط الذكور بالاناث وتعلموا الفساد وجحدوا دينهم. ولم تنفتح أبواب اسرائيل المستنكرة للدين أمامهم الا بعد تدريبهم على أصول تعاظم المعيشة والفحشاء فى هذه الفنادق الفارهة.. إن هذه الحكايات المحتشمة والمضحكة فى نفس الوقت قد لا تستحق الانصات اليها لو لم يكن من يروجها هو أشهر معلمى بنيه براك وأكثرهم تأثيرا على النفوس.

حيث يرى المعلم التلمودى كوفمان ان دولة اسرائيل هى معقل تركيز كل الشرور المحتمل وجودها فى كوكب الأرض. لذا فانه يدين بشكل قاطع واجمالى كل الصهاينة السابقين والحاليين رواد تعمير الصحراء والمتربحين من المضاربات وخلافه فى المدن، الساسة النفعيين الدواهى والمثاليين الأنقياء. ويوضح كلامه قائلا بمنتهى الجدية: إن اللصوص هنا يتفوقون فى أساليب السرقة على سائر اللصوص الموجودين فى بقية بقاع العالم ونفس هذا الكلام ينطبق على النصابين حيث انهم

أكثر احتيالا، والسفاحين اكثر اجراما. وتمشيا مع هذا المنطق من الصحيح أن نرجح أيضا احتمال أن يكون الحكماء الموجودون فوق هذه الأرض أكثر فطنة من نظرائهم الموجودين فى سائر بقاع كرتنا الأرضية:

"حيث ان فطرة الخير مثل فطرة الشر فى اسرائيل تستشعر بصورة أقوى. لأن اليهودى يحمل الله فى قلبه لذا تكون ارادته ورغبته أكثر قوة لكن عندما يسقط اليهودى فى خية الرذيلة فيكون سقوطه الى أحط المستويات.

ان بعض الحاخامات تبنوا نفس هذا المنطق فى أحاديثهم فى مستهل هذا القرن لتحطيم الصهيونية الوليدة المترنحة. فكان أغلب اليهود المتدينين يرون أن مذهب العودة الى فلسطين هو بمثابة الضلال بعينه. بل انه خطة شيطانية من تدبير بعض المتآمرين اليهود الذين عقدوا العزم على اجتثاث اليهودية من الوجود. وفى قلب الشتيتل اليهودية فى اوروبا الوسطى وأحياء الجيتو فى سائر المدن سرعان ما أيقن الزعماء الدينيون أن الحركة الرامية لاستعادة الأمة اليهودية لمكانتها السياسية فى محفل الأمم هى بمثابة خطر يتهدد الفكر الدينى وسرعان ما اشتموا أيضا فى هذا الهدف رائحة الأفكار الاشتراكية والفوضوية والشيوعية والعمالية وسائر التيارات الثورية العلمانية الأخرى التى كانت تحرك المجتمعات الأوروبية آنذاك.

وباستثناء عدد محدود للغاية، كان السواد الأعظم من قيادات التيار الأرثوذكسى يعتبرون الصهيونية بمثابة عمل شيطانى لأن الله وحده هو القادر على جلب الخلاص لشعبه بمعجزة من معجزاته. وفى سنة ١٩٠١ تأسست فى مدينة كوفنو الليتوانية جمعية حماة الايمان والهدف منها هو تخليص المدارس الدينية من محاولات قلب الموروثات الدينية وخصوصا من "البدعة الصهيونية". وفى العام التالى نشرت قيادات الحاسيدية فى بولندا كتيبا جماعيا تحت عنوان "رأى رجال الدين" أعلنوا فيه: "أن مخادعين جددا قاموا من بيننا.. وأن جوهر الفكر الصهيونى لا يهدف الا لتدمير ديانة موسى واسرائيل".

لاشك فى أن الإعتراض على الحركة الوطنية اليهودية كان نابعا أيضا من التصميم على الحفاظ على نمط الحياة التقليدية للطوائف اليهودية فى بلدان أوروبا الوسطى بدون أى تغيير لأن هذا العالم كان فى خضم حركة التغيير وكان يعانى من ثم من تبعات العصرنة والحداثة عليه: حيث خوت الأكاديميات الدينية من الطلبة وأهمل الشباب تعلم اللغة اليهودية من فرط لهفته على التحرر والانطلاق. وفى الإحصاء الذى أجرته روسيا فى سنة ١٨٩٧ أقر نحو ٩٧٪ من اليهود بأن اللغة اليهودية هى لغتهم الأصلية، ثم تدنت هذه النسبة وهبطت الى أقل من ٥٠٪ فى سنة ١٩٢٦ فى بعض المناطق. وضعف نفوذ القيادات الدينية العظيمة تدريجيا وتخلت الأجيال الجديدة عن ارتداء القفطان التقليدى وحلقوا لحاهم. وبدت الهجرة عندئذ بمثابة صفعة موجهة لزعزعة هذه الطوائف المستضعفة، فكرس الكهنة كل جهدهم لابقاء اليهود فى قراهم فى هذا الاطار المعروف والمطمئن.

وردا على ألبير لوندر الذى كان يسأله عمـا اذا كان يريد أن يهاجر الى فلسطين قال له أحد اليهود العجائز الرومانيين فى سنة ١٩٣٠: "لقد أمـضيت ثلاثة وسبعين عاما لنيل رضاء الأوروبيين على أناس غيرى أن يتولوا استرقاق قلوب العرب".

حتى السـفر الى الولايات المتـحدة كان يستنكره الحكماء ولتشبيط همـة الطوائف حتى لا تتغرب فى العـالم الجديد كانوا يرددون على مسامـعهم بصفة مسـتمرة أن اليهودية الأمـريكية تقوم على ثلاثة أسس: المأكل غـير مطابق للشريعـة، تدنيس قاعدة حـفظ السبت للعبـادة وممارسة كل الموبيقات.

وعلى نفس المنوال كان اليـهود الأرثوذكس يعتبـرون كل خطوة نحو التحـرر بمثابة لعنة. اذ كانت مـخاطر الاندمـاج وفقـدان الهوية والانحـراف عن الواجب نحو الله تـتربص بهم مع زيادة ظاهرة الانفتاح على العـالم الخارجى وسماحة الأمم. لذا عندما فـرح يهود المجر وهللوا فى مطلع القـرن التاسع عـشر بالبـشائـر الأولى المعلنة ببزوغ فـجر عـهـد جديد حـافل بالحريات، امتنع "هاتام صوفر"، حاخام پرسبورج عن مشاركتهم فى هذه البهجة وأعلن الحداد باعتبار أن هذا اليوم لا يختلف عن نظيره الذى شهد تدمير المعبد فى عصور الماضى. وأفحم أتباعه المصلين عندما شرح لهم معنى كلامه مـن خلال قصة رمزية رواها لهم.. وتقول هذه القصـة: فى يوم من الأيام شعر ملك بالملل تجاه زوجته فنفاها. وظللت المرأة البائسة المهجورة تعيش بمفردها فى كوخ صغير ومرت عليهـا السنون واذا بها تتلقى ذات يوم زيارة رسـول جاء ليـخبرها بأن جـلالة الملك تعطف وأنعم عليها أن يبنى لها قصرا بدلا من هذا الكوخ المتـواضع وعند سماع هذه البشرى انفجرت الملكة فى البكاء لأنها فهمت أن الملك اذا كان يريد أن يعيدها الى بلاطه لما كان عرض عليها الاقامة فى أفخر الديار. وأيقنت أن هذا الكرم يؤكد لها أن فترة نفيها ستمتد لسنوات طويلة قادمة.

وعندما طـل خطر النارية برأسه كـانت القيادات الدينيـة اليهـودية غارقة حـتي الأذنين فى وساوس الخوف من تبـدد الهوية اليهودية الى درجة أنهـا عجزت تماما عن توحيـد كلماتها وترتيب أمورها لمحاولة انقاذ اليـهود من التصفية الجسـدية التى بدأ ترديدها يتكرر فى الخطب الألمانية. وفى عام ١٩٣٧ أى قـبيل اندلاع الحـرب بعامين، وفى الوقت الذى كـان هتلر يرأس ألمانيا بالفـعل منذ اربع سنوات جعـل حاخام مُنقـاكز، فى جـبال الكاربات، الصهـيونيـة موضوعـا لخطبتـه وصاح قائلا: "إنهم يشـجعونـنا على الرحيل الى فلسطين زعـما بأننا سنعثـر على رزقنا فيـها. لكنه من الأفضل بالنسبة لنا نحن المؤمنين أبا عن جد، أن نلقى بأجسادنا فى النار ونتركهم يمزقوننا اربا بدلا من أن نفقد حرفا واحدا أو حـتى نقطة واحدة من درر كهنتنا المدونة فى الكتب أو من مخطوطات التوراة المقدسة". وهذه الكلمات كانت مؤشرا أوليا ومشينا للبشاعات اللاحقة.

ولا يغفر لهؤلاء الوعاظ أبدا رجل عجوز، إثر عودته محطما للأبد من معسكرات الموت هذا الضلال المأساوى. وقبيل اندلاع المعارك ببضعة أسابيع فقط كان يفكر هذا الشخص فى المغادرة والسفر الى فلسطين هربا من تخلخل الأوضاع فى أوروبا. لكنه تقابل بالصدفة مع مرشد رادزين وهو من كبار الشخصيات الدينية الحاسيدية المؤثرة فى فترة ما قبل الحرب، وكان هذا المرشد يطوف البلاد قرية قرية لاختيار طلبة الدفعة الجديدة فى أكاديميته ولمحه وانتقاه وأمره بعدم مغادرة بولندا انما بالتوجه رأسا الى رادزين ابتداء من الأشهر الثلاثة القادمة ليبدأ دراساته التلمودية هناك.. وفى هذه الفترة تحديدا محيت السيادة البولندية من الوجود وخضع اليهود لحكم الاحتلال الألمانى.

ويختتم الشيخ كلامه قائلا بنبرة مريرة: "ترى الى أى مدى كانوا عميان البصيرة"

إن عمليات الابادة الجماعية مثل وجود دولة اسرائيل تطرحان على اليهود المتدينين اشكالات عويصة من شاكلة: كيف يمكن تفسير غروب وجه الله عنهم فى كل هذه الشدائد ؟ كيف يمكن تبرير عمى بصيرة قياداتهم الدينية ؟ وكيف يمكن الموافقة على قيام دولة يهودية كخاتمة لعمليات الابادة ؟ إن الحاخامات الأرثوذكس حاولوا الرد على هذه الأسئلة العويصة بمبررات تحتاج فى حد ذاتها الى تبرير، ومن هذه المبررات مثلا أن اليهود راحوا ضحية بسماح من الله وعقاب الابادة صدر من السماء وفرض عليهم بسبب عدم احترامهم لدينهم وتصميمهم على استعجال الأقدار وصنع مصيرهم بأيديهم.. فالرضع الذين أبيدوا خنقا فى غرف الغاز كانوا من المذنبين التقديريين الذين كتب عليهم أن يهلكوا بقرار إلهى ان هذا المنطق المربك والمرعب يزداد شيوعا الآن ونسمعه كثيرا فى المعابد التقليدية وهذا من تأثير موجة التطرف الزاحفة التى تروج مثل هذه الأفكار المجنونة.

فنجد مثلا أن المعلم "دانيال هيمان"، الذى درس سنوات طويلة فى الأكاديميات التلمودية فى اسرائيل، يرى بشكل مباشر أن الفكر الصهيونى هو السبب الجوهرى فى ظهور فكرة "الحل النهائى" وعلى حد قوله: "ابتداء من اللحظة التى أراد الشعب اليهودى أن يأخذ زمام مصيره فى يده ويقرر انهاء فترة سبيه، لم يحتج الأمر الى أكثر من خمسين عاما من الزمان حتى يباد نصف الشعب اليهودى من على وجه الأرض وهو ما لم يحدث أبدا عبر عصور التاريخ المتعاقبة! ".

وبعد مرور خمسين عاما على نشأة الدولة اليهودية، تبدو المعارضة الشرسة ضد الصهيونية من الأمور الثانوية جدا خاصة وأن ما يزيد على ٤,٥ مليون يهودى يعمرون الآن أرض الأجداد ويستفيد الأرثوذكس بصفة شخصية من مؤسسات ومنشآت البلد الذى ينقمون عليه. وبالنسبة لرجال الدين أيضا، ترسخت الوقائع ومن الصعب معاندتها الآن والشباب منهم تعلموا تكييف أمورهم ليحسنوا التعايش مع الدولة.

ومنذ عشر سنوات تقريبا، اذ شعر المعلم هيمان بالضياع لدى اقتحام المعلم اليعازر مناحم شاس، وهو من علية القيادات الروحية فى اسرائيل، مجال العمل السياسى سأله عما اذا كان من الأفضل البقاء داخل أسوار الأكاديمية التلمودية بدلا من مواجهة العالم الخارجى، واذا بهذا الأخير يعطيه درسا سريعا فى البراجماتية السياسية قائلا:

"عندما كانت طائفتنا تضم مائة ألف شخص، كان من الممكن أن نظل فى معزل عن العالم الخارجى. وعندما تضاعف عددنا كان ومازال ممكنا أن نبقى على نفس حالنا من الابتعاد. . لكننا نمثل الآن كتلة بشرية قوامها قرابة خمسمائة ألف شخص وهؤلاء الناس مصرون على التمتع بحقوقهم حيث أنهم يدفعون ضرائبهم أسوة بالآخرين وما عادوا يريدون البقاء على الهامش. فهم بحاجة الى أن يكون لهم نواب لتمثيلهم فى الكنيست وهذا يضطرهم الى المشاركة فى العملية الانتخابية والى ممارسة العمل السياسى".

فى مستهل السبعينيات، عندما كان "دانيال هيمان" يستكمل دراساته التلمودية فى اسرائيل كان بعض الأهالى مضطرين الى الاكتفاء بالخبز والزيتون كغذاء حتى يتسنى لهم دفع رسوم المدارس التلمودية لأبنائهم:

"علما بأن المدرسة العامة المقابلة كانت مجانية. وهذه المسألة لاتزال تثير استنكاره حتى الآن. ولكن عندما تضخم عدد طائفة اليهود الأرثوذكس لم تعد تقبل هذه التفرقة، وارادت أن يكون لها نوابها وأفصحت عن مطالبها. وفى عهدى كان مجتمع الأكاديميات التلمودية يرفض التصويت لأنه كان يعرف مسبقا أنه لن يتحصل على حقوقه فما الداعى اذن للمشاركة من أصله ؟ بيد أن هذه العقلية تغيرت وأبنائى وأبناء زملاء الأمس ما عادوا يطيقون أبدا هذا الوضع".

وحدثت الثورة الكبرى لدى اقتحام اليهود المتدينين المتعصبين مضمار الحياة السياسية النشطة فى سنة ١٩٧٧ .

وكان هذا التحرك استفتاحا لعهد جديد من أبرز سماته تسلل "المفاهيم الصهيونية" ببطء الى التشكيلات الدينية. وقبيل هذا التحول، كان نواب اليهود الأرثوذكس فى البرلمان، ان وجدوا يكتفون بانتهاج موقف المعارضة السلبية. ولكن ابتداء من حكومة مناحم بيجين، دخلت هذه التشكيلات الدينية فى الائتلافات الحكومية حيث أيقنت حجم المكاسب التى تستطيع أن تجنيها من وراء موضعها المحورى بين الأحزاب الكبرى. ولأول مرة اتضح أن مساندة حزب مفدال الدينى لم تعد تكفى لضمان الأغلبية للحزب الحاكم فى البرلمان. وثبت مدى أهمية الأصوات الأربعة التى حصلت عليها المنظمات الأرثوذكسية المتطرفة فى الانتخابات لضمان استمرار رئيس الوزراء بيجين فى منصبه. والواقع أنهم لم يضنوا بمنح مساندتهم له خاصة وأن زعيم الليكود كان فى نظرهم مثال الرجل الملتزم بالقيم الدينية:

وكمـا صاح مهللا أمـام الكنيست أحد نواب "أجـودات اسرائيل"، أهم الحركـات الدينية المتطرفة: "لأول مرة يكون لنا رئيس وزراء يهودى متدين وليس أميا".

واذا كانت هذه الأحـزاب قد وافقت على أن تساند رئيـس الوزراء الاسرائيلى اليمينى فـقد رفـضت مع ذلك قبـول الوزارات التى عـرضت عليـها مكافـأتهـا على هذه المؤازرة مما يدل على استمرار التزامها بحذر حيال الدولـة العلمانية. وسقط هذا المانع الأخير فى عام ١٩٨٤ عندما تبوأ حزب شـاس للسفارديين الأرثوذكس مـسئوليـة وزارة الداخلية. وبعدها بأربع سنوات حـذا حزب أجودات اسرائيل حذوه ودخل فى حكومة الوحدة الوطنية التى شكلها اسحق شامير، وتسلم بداية مسئوليات وزارة الـعمل والشئون الاجتماعيـة ثم حصل على وزارتين جديدتين اثر الأزمة الوزارية فى سنة ١٩٩٠ .

وتمشيا مع هذا التوجـه تشارك الجماهير الأرثوذكسية الآن فى كل عملـيات التصويت بغزارة فى حين أنها ظلت ترفض طويلا التحـرك لتأدية هذا الواجب الضرورى لسلامة المسيـرة الديمقراطية فى الدولة، ان هذا الموقف المتفاهم يجعل من المتدينين جمهورا جديدا من الناخبين يستحق استمالته خلال الحملات الانتخابية ولا يفوت المرشحون أبدا الحضور خصيصا لمداهنة أصحاب الكلمة النافذة من الحاخامات. وحـدث فى سنة ١٩٨٨ أن وقف "أريل شارون"، وزير الدفاع آنذاك وواحد من رجال الليكود الأقوياء أمـام القاعة حيث كان يجـتمع أحد عشر حـاخاما من مجمع كـبار حكماء الشريعة التوراتيـة، فى انتظار أن يسمح له بالدخول. وكان قد جاء ليستـجدى مساندة هذه السلطة الرفيـعة والرئيـسية فى حـزب أجودات إسـرائيل. وبعد أن ظل واقـفا لمدة عشـرين دقيـقة أذن له بالدخول ولكن بعد تلقينه سلسلة من التوصيات الصارمة كان لزاما عليه احترامها: "إن الحاخامات سيستقـبلونك. لكن أمامك ست دقائق فقط لتشرح لهم قضـيتك. إذ طرحوا عليك بعض الأسئلة أجب عليها ثم انصرف".

وخلال الحملـة الانتخابية الأخيـرة، رأى شيمون بيـريز أن من مصلحته أن يذهب ليـتملق علانية رجلا مثل "بابا باروخ"، ابن "باباصلـى"، ذلك الحكيم مغربى الأصل الذى أصبح رمزا معشوقـا من كل اليهود السفاردين. وأضـفى رئيس الحكومة المستقيلة، الذى اقتـفت أثره عدسات التليفزيون، كل الصدى الإعلامى المستحق، من منظوره الخاص، لهذه الزيارة.

كما وافق اليهود الأرثوذكس أيضا على الخوض فى منافسـة انتخابية أخرى كانوا يقاطعونها دائما حتى الآن وذلك بسبب احـتقارهم للهيئات التى يتم تشكيلها بناء على توجـيهات صادرة من الدولة: اختيار عـضوى الهيئة الحاخاميـة العظمى فى إسرائيل. وحتى آخر تمديد للهيئة الحـاخامية العظمى السابقة كان تشكيل عضويتها حكرا للحزب الدينى القومى وكل تفاصيل الانتخابات كانت

تدبر مسبقـا فى كواليس الحزب. ولكن فى عام ١٩٩٣، قرر اليهود الأرثوذكس المتـعصبون وبدون سابق انذار، التصـدى لاملاءات المتدينين الصهاينة عليهم وعـرضوا اسمى مرشحيـهما، "إسرائيل لاو" و"إلياهو باكشى دورون" . وتم انتخاب كليهما. وبعد فـوزهما بفترة وجيزة اضطر الحاخامان العظيـمان أن يناشـدا الشعب بأهمـية تلاوة صـلاة شكر خاصـة لله على معـجزاته بمناسـبة عـيد "الاستقلال" . من البديهى أن عضوى الهيئة السابقة من الحزب الديني الوطنى، كانا يوصيان دائما بترديد هذه الصلاة التى تشهد على البعد الدينى المقصود اضفاؤه على نشأة الدولة الإسرائيلية. وفى البداية تردد قليـلا عضوا القيادة الـروحية الجديدة لليهـود الإسرائيليين ولكن سرعـان ما سارا على نفس الطريق ووافقا على الاحتفال بالدولة كانجاز من صنع الله.

ولقد أحدث ولا يزال يسـفر هذا الانخراط فى مضمـار العمل السياسى عن تفـسخات فى قاعـدة اليهود الأرثوذكس الحريصين على العـيش فى مخافـة الله، ان بذل الذات لإحكام السيطرة على جمع من البشر يصـدع البرج العاجي الذى يريد أن يحتمى به أنصار العـقيدة القويمة. ورغم الحظرالمفروض على الصورة بشـتى أشكالها (المرسومة والمنحوتـة والمصقولة) والذى دأبت الطوائف اليهـودية الملتزمة على عـدم انتهاكـه تحت أى ظرف من الظروف فإننا نلاحظ أن الأحـزاب الدينية تستخدم الآن عن طيب خاطر كافة ادوات وسائل الإعلام حيث قامت بتوزيع شرائط فيديو كاسيت وبرامج تليفزيونية مصورة خلال الانتخابات الأخيرة. اقتناعا منهم بأنهم يعاودون محاصرة المجتمع بهذه الوسائل بغية تغييره.

وهكذا بدأت تظهـر جسور تقـارب بين الأرثوذكس الصهاينة والأرثوذكـس غير الصـهاينة. فالوطنيون زاد انعطافهم نحو نموذج الأرثوذكسية المتعـصبة فى سلوكياتها الظاهرة من حيث التزامها الدقيق بقواعد الدين والعودة إلى النصوص الأصلية ورفض الحـداثة واحتقار بحور العلم الواسعة. أما عن الأرثوذكس فقد استسلموا بهدوء للتشبع بالأفكار التى تتحدث عن الوطنية اليهودية.

والدليل على ذلك أن رجـلا مـثل المعلم "موشى كـوفـمان" المعـروف بكراهيـته الدفـينة للصهيونية يكرر بمنتهى البساطة نفس منطـق الصهاينة الخاص بالمسيانية. ومن منظوره، ليست دولة إسرائيل بداهة هى المؤشر الدال على قرب نهاية الأزمة وإنما الذى يشير إلى ذلك هو عودة كل هذه الفئات من الشبـيبة اليهودية إلى الدين. ثم استـدار نحو مكتبته وأخرج منها كـتابا أخذ يقلب بين صفحاته وهو يقول:

"من المؤكد أننا نعيش الآن فى الفـترة التمهيدية لحلول المسيّـا المنتظر، ولتوضيح هذا الكلام لابد من الرجوع إلى نص الكتاب المقدس الوارد فى الاصحـاح الثلاثين من سفر "تثنية" : "ومتى أتت عليك كل هذه الأمور البركـة واللعنة اللتين جعلتهما قدامك فـإن رددت فى قلبك بين جميع الأمم الذين طردك الرب إلهك إليهم ورجـعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حـسب كل ما أنا أوصيك بـه اليوم أنت وبنوك، بكل قلبك وبكل نفـسك يرد الرب إلهك سـبيك ويرحمـك ويعود

فيجمعك بجميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك. إن يكن قد بددك فى أقصى السموات فمن هناك يجمعك الرب إلهك ومن هناك يأخذك ويأتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى امتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك أكثر من آبائك.. ". ها نحن قد وصلنا إلى الغاية، إن هذه الفقرة هى أهم فقرة فى سفر الشريعة إذ أنها تتحدث عن نهاية الأزمنة ومكتوب فيها أنه ستحدث عودة كاملة للرب "من كل قلبك ومن كل نفسك". والآن نرى أن الأبناء هم الذين يحفزونا اباءهم على هذه العودة وهذا أيضا مذكور فى الآية التى اختتم بها النبى ملاخى كتاب العهد القديم وهذا نصها: "ها أنذا أرسل إليكم ايليا النبى قبل مجئ يوم الرب اليوم العظيم والمخوف. فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم. لئلا آتى وأضرب الأرض بعلن". وأوضح المفسر "راشى"، وهو من القرن الحادى عشر، أن الآباء سيعودون آنئذ لربهم بواسطة الأبناء... وهذا هو بالفعل ما يحدث الآن".

وثمة علامة أخرى عن التقارب بين الوطنيين والأرثوذكس: إذ يوجد حاليا فى منطقة "اليهودية والسامرة" (الضفة) ثلاث مستوطنات لـلأرثوذكس المتعصبين وأهمها وأقدمها أيضا هى مستوطنة "عمانويل" التى أسسها "حاسيديو جور" فى سنة ١٩٨٣، وهم الفئة المهيمنة فى قلب حزب "أجودات إسرائيل". إن هؤلاء الحاسيديين "الأتقياء" باحتلالهم أراضى الضفة لكى يعيشوا فيها للأبد مستظلين بحكم الدولة الإسرائيلية، موافقون اذن على تكوين وطن وجيش لليهود قبل قدوم المسيا وهذا يعنى انضمامهم ضمنيا إلى معسكر الصهاينة المتدينين وبموجب ذلك فانهم يدعمون الوطنيين المتعصبين بسند هذه القوات التى تربت على مخافة الله وسمع وطاعة آبائهم الروحيين والتى لا يمكن توقع طبيعة ردود أفعالها على الاطلاق فى حالة اكراهها على الانسحاب اثر ابرام أية معاهدة سلام. ولا أحد يعرف فى الواقع كيف سيكون فى مثل هذه الحالة رد فعل المستوطنين الأربعة آلاف الذين يعيشون فى "عمانويل".

وفى هذا الصدد اكتفى ايزاشار فرانكنتال، المتحدث باسم هذه المستوطنة، بالادلاء بالتصريح الآتى:

"اذا أمرنا حاخاماتنا بالمغادرة بهدوء، فان الحكومة لن تجد فى كل اليهودية والسامرة مدينة واحدة مستعدة لتلبية قرار الانسحاب فى مثل سلاسة عمانويل ولكن إذا طلبوا منا البقاء فسوف نكون عندئذ أكثر نضالية من أى مخلوق على وجه الأرض وسنضحى بأرواحنا فداء من أجل عمانويل".

وباستثناء بعض الطوائف القليلة التى تكن للصهيونية عداوة لدودة وقاطعة بغير رجعة فان جميع اليهود الأرثوذكس يتقبلون الآن وجود دولة إسرائيل كحقيقة واقعة وملموسة لكنهم يرفضون بوجه عام الاعتراف بوجودها كأمة يهودية من المنظور الدينى . هذا ولا يتردد المعلم والمرشد الروحى "هنرى كان"، مدير إحدى المدارس الدينية فى "ميئاشعاريم"، الحى العتيق الذى يقطنه

اليهود الأرثوذكس فى مدينة القدس، عن التقليل بأقصى قدر ممكن من شأن هذا الاعتراف الضمنى بإسرائيل وعلى حد قوله:

"ما أهمية إسـرائيل؟ لا شئ على الاطلاق. إن مشكلتها كدولة مـشكلة سلبية تتلخص فى مسألة إدارية بحـتة للمنفعة العـامة فقط لا غير. أما أن يـكون لها بعد روحى ومسيـانى فهذا خطأ مرفوض بشدة" .

ويرى جرشوم أيضا وهو شاب فى السادسة والعشرين من العمر ، سبق أن أمضى ثلاثة عشر عامـا من حياتـه فى المعاهد التلموديـة ولا يزال يتجر فى أصـول الدين - يرى أن اسرائيل واقـعا ملموسـا لكن وجودها منفصل تمامـا عن كل الاعتبارات العـقائدية الخاصـة بالنبوءات: « إن الدولة قائمة لا يمكن التشكيك فى ذلك ، ووجودها يساعد على تجميع أعداد غفيرة من الشعب اليهودى لكنى لا أظن أنها هى العلامـة الدالة على قدوم المسيًا . ربما تكون هذه الدولة مـجرد مرحلة لكن هذه الدلالة مختلفة تمامـا عما سنعانيه فى العصور المسيـانية. ويكفى أن نقول ان هذه الدولة حتى اللحظة الراهنة ليست دولة يهودية بالمفهوم الدينى لهذه الكلمة وانما هى مجرد دولة لليهود.

وأيا كان مقـدار اندماجهم فى الدولة الإسرائيلـية الحديثة فان اليـهود الأرثوذكس يؤثرون مع ذلك البقاء على الهامش فـتلاميذ المدارس الدينية معافون من الخدمـة العسكرية بموجب اتفاق موقع منذ سنوات طويلة بيـد بن جوريون . أما أسـرالمجتمـع العلمانى فهى التى تـعزز صفـوف الجيش بأبنائها وتنظر بعين الضـيق الى شباب « بنيه براك » أو القـدس الملتحين وهم يتنزهون وأيديهم فى جيوبـهم كالعاطلين فى الوقت الذى يخاطـر فيه غيـرهم بأرواحهم على الحدود . وبلهجـة تفيض بالجدية أوضح لى جرشوم أن شباب الأكاديميات الدينيـة يساهمون أيضا فى المعركة من أجل سلامة اسرائيل ونقلا عن كلامـه : «لقد علمتنا التوراة أن بعض الرجال كانوا يذهبـون للحرب بينما كان البعض الآخر يساندون المقاتلين بانكفائهم على بتفسـير النصوص المقدسة . . فدائما وأبدا سيكرس أناس من الشعب انفسهم لهذه المهمة حتى يدعموا الجنود بنفحات الإيمان الصلب.

اذا كنا نريد أن يأتينا العـون من عند الله فـان العمل وحـده لا يكفى . وسبق أن شـاهدنا معجزات حصلت ابان أو حرب الأيام الستـة أو حرب الخليج لأن الله قد تدخل بيمينه . وعندما كان يقـوم صراع فى اسرائيل أو يشتـد التوتر كان المرشدون يطلبـون من تلاميذهم أن يخـصصوا ساعات أطول لتفسير النصوص وتفسيرها بتقوى أكثر من العادة . وابان هذه الأوقات العصيبة كان طلبة المعاهد الدينية يبذلون مزيدا من الإجتهـاد وتلك كانت طريقتهم فى المشاركة فى النزاع وأؤكد لك أنه ليس من السهل دائما أن يستـمر الدارس على مقعده لمدة ثمانى ساعات يومـيا للاستغراق فى تحليل نص من النصوص المقدسة! .

عندما وافق بن جوريون على تأجيل الخدمة العسكرية الإجبارية لهؤلاء الطلبة الى أجل غيرمسمى لم يكن يتصور آنذاك أن هذا القرار سيستتبعه استشراء للمعاهد التلمودية على النحو الهائل . ولحظة صدور القرار فى سنة ١٩٥٠ لم يكن الإعفاء يخص سوى اربعمائة ولد فقط حيث اعتقد أسد اسرائيل العجوز بدون شك أن الجيش سيكون على ما يرام بدون هؤلاء المهاويس الهامشيين وأنه اشترى سلام اسرائيل الداخلى بهذا الثمن . . بيد أن عدد الدارسين فى معاهد اسرائيل التلمودية الآن وصل الى مائة وستين ألفا وما بين عشرين وثلاثين ألف طالب منهم مستفيد بهذه الميزة وعددهم يتزايد كل عام . ونظرا لتزايد عدد التلاميذ فى المدارس الدينية أيضا فان عدد الطلبة المتدينين أصبح يشكل نسبة ٣٢,٤ ٪ فى اسرائيل الآن.

إن تضخم كتلة اليهود الأرثوذكس يغير ببطء طابع مدينة مثل مدينة القدس. وهناك دراسة أجرتها البلدية بالمشاركة مع معهد الدراسات الإسرائيلية توضح أن عدد اليهود الأرثوذكس يزيد بنسبة٤٪ كل خمس سنوات فى حين يتناقص عدد غير المتدينين بنفس المعدل حيث ان أسر هؤلاء تنجب عددا أقل من الأبناء وتفضل مغادرة مدينة يغلب عليها طابع التعصب الدينى بصورة سافرة لقد كان الأرثوذكس يشكلون نسبة ٢٨,٥٪ من عدد السكان اليهود فى عام ١٩٩٠ لكنهم سيصبحون ٣٧,٨٪ فى عام ٢٠١٠ بسبب زيادة عدد المواليد بالتأكيد وأيضا بسبب أعداد المهاجرين الى اسرائيل.

ومن أجل هذه الحشود المتدينة تم تشييد ضواح جديدة حيث ان أحد مطالب الأرثوذكس الرئيسية هو تخصيص أحياء سكنية لهم . اذ أنهم يرون بالإجماع أن السلطات لا تكلف نفسها لتبنى لهم « الجيتو » الجديد الذى ينشدونه . والحقيقة أن مايطلبونه لا يمكن توصيفه الا «باجيتو » نظرا لأن الأرثوذكس مصممون فى حقيقة الأمر على العيش فى عزلة روحيا وجسديا.

وفى هذا الصدد ذكر « هنرى كان»: «نحن نعيش هنا فى عزلة « الجيتو » بناء على رغبة ورضاء الطرفين ، حيث أن اليهودى المتدين لن يرضى بالسكن فى حى علمانى والعكس صحيح».

وتؤكد الصحفية « كاترين جارسون » التى تعبر عن صوت المتدينين فى صحيفة «اكتواليتيه جويف» الأسبوعية على شعورهم بالحصار . وتصوز الطائفة الأرثوذكسية على أنها بمثابة سد أمام السكان العرب وتجد تقاربا لافتا للنظر بين الأحياء الإسرائيلية الحالية والجيتوهات الأوروبية الماضية كما كان النموذج اليهودى يحتاج الى أن نبحث عنه فى الجوار القريب لبولندا فى عصر معاداة السامية:

«ان المتدينين الأتقياء يشعرون بأنهم الحصن الوحيد ازاء السكان العرب، اذ أن هؤلاء هم الذين يغذون العاصمة بالمواليد ولولاهم لجنحت الأغلبية وبسرعة فائقة لصالح العرب . ومعدل المواليد عند المتدينين بمدينة القدس يتراوح من ستة الى سبعة أطفال للأسرة ، فى حين تتراوح فى

«بنيه براك » من ثمانية الى تسعة أطفال . . وهذا يضـاهى معدل المواليد فى بولندا فى فترة ما قبل الحرب ، وهذا يعنى أننا وصلنا الى هذه المعدلات القياسية التاريخية».

ويرى المعلم« كان» من جانبه عدم كفاية الجهود التى تبذلها السلطات من أجل جموع المتدينين وبناء على قوله :

«إن جماعة اليهود الأرثوذكس غاضبة بشدة ، اذ يرى هؤلاء المتدينون انه يوجد تراجع ملحوظ وتدهور خطير فى كل المجالات . وأبرز الأمثلة الدالة على تلك السلبيات : المشكلة الإسكانية فهناك عجز ملحوظ حاليا فى عدد الشقق السكنية التى يحتاجها المتدينون وهذا العدد يقدر من أربعين الى خمسين ألف شقة لكن الدولة لا تنجز أى تقدم فى هذا المضمار بينما العجز فى الشقق يتفاقم ».

وقد سألته عن الفرق بين شقة مصممة لسكنى المتدينين وأخرى لسكنى العلمانيين .

« إن التصميم ليس واحدا فى الحالتين . لأنه اذا كان الهدف هو بناء مساكن للمتدينين فهذا يعنى أولا أنها مخصصة لفئة من الناس بسطاء الحال ومن ثم يأخذ التصميم بالضرورة شكل مجمعات سكنية للايجار بقيمة زهيدة . هناك أيضا مشكلة المدارس ، اذا كنت تشيد حيا فاخرا كله فيلات جميلة ، فبناء مدرسة واحدة سيكفى لاستيعاب أبناء هذا الحى . . إنما فى حالة المتدينين فالمساحة كلها مغطاة بالعمائر المقسمة الى وحدات صغيرة من ثلاث غرف على مساحة ثمانين مترا مربعا وتقطنها أسر عدد أبنائها يتراوح بين خمسة وثمانية صغار للأسرة الواحدة وبالتالى لابد من تشييد عدة مدارس لأجل هذا النشء، إن هذه الحجج ليست مقنعة على الإطلاق حيث أن هناك فئات أخرى من السكان الإسرائيليين ممن يحتاجون أيضا الى العيش فى مساكن بايجارات زهيدة، إن الحقيقة المخفاة واضحة ألا وهى أن الأرثوذكس يطالبون بالسكن فى أحياء منعزلة بعيدا عن العالم العلمانى .

بينما العلمانيون من جانبهم يتهمون البلدية بالإنضمام لصف الأرثوذكس وبالرضوخ لضغوطهم المستمرة وبدون هوادة . كشفت صحيفة ها آرتس تقول انه منذ سنة ١٩٩٣ تم تخصيص اثنتان وستون قطعة أرض لبناء معابد لطائفة الأرثوذكس ، والموافقة على تسليم مائة وأحد عشر موقعا للبناء مساحتها ٩٠٦٥٥ مترا مربعا للمؤسسات الدينية بينما لم توافق الا على تسليم موقعين فقط مساحتهما ١٧٠٠ متر مربع للمنظمات العلمانية . وفى هذا الصدد لاحظ كلود سيبتون أستاذ العلوم المجتمعية : «أن تيدى كوليك» ظل عمدة لمدينة القدس طوال ثمانية وعشرين عاما متصلة . أى أنه ظل عمدة لمدينة من أبرز سماتها الإجتماعية أنها متدينة ملتزمة ومتعصبة معا وأنها تضم كثافة سكانية مشايعة لليكود ومع هذا لم يفكر أحد أبدا فى ترشيح نفسه أمام «تيدى كوليك» وهذا يرجع الى أنه نجح بشجاعته ونزاهته فى تدبير شئون المدينة بالعدل والقسطاس

ولكن فى شهر نـوفمبر من عام ١٩٩٣ ، انتـخب «ايهود أولمر» ، العمدة الجـديد بفضل اصوات اليهود المتدينين وطبعا هذه الأصوات لها مقابل .

وتعقيبـا على هذا كتب « أورنان يكوتييلى » ، زعيم جناح اليـسار المتطرف فى مجلس المدينة يقول :«إن أوليمـير يواظب على التنازل عن مناطق برمتها من المدينة للأرثوذكس المتـعصبين بشكل لم يسبق له نظير من قبل ».

إن الجدل سيستمر لفترة طويلة قـادمة وفى هذه الأثناء يواصل اليهود المتدينون أحكام انغلاقهم فى أحيائهم الخـاصة . وفى «انسدورف» ، قطاع أرثوذكسى جديد فى القـدس ، تتساءل « هافى» أحيانا عن الأسباب التى دفعتها للانعزال عن بقية السكان الإسرائيليين . هذه الأم لثمانية من الأبناء المتدينة بصدق ، تشعر بالأسى ازاء فشل عالم الأتقيـاء المتمسكين بفرائض الشريعة فى توصيل هذه القيم الثمينة لكل يهود البلد .

ألم يكن من الأفـضل أن يعـيـشـوا فى وئام مع العلمـانيين ؟ لكن من وجـهـة نظر« هافى» والكثيرين من أمثالها ، فقد فات الأوان ولا تتصور أن هناك تراجعا مازال ممكنا وعلى حد قولها:

« إننى لن أستطيع شـخصيا أن أقـدم على هذه الخـطـوة مـع أبنائـى الورعـين بشـدة لأنهـم لايشبهـون أبناء العلمانيين أو حتى أبناء حركـة الوطنيين المتدينين لأنهم يجعدون شـعورهم الطويلة على طريقة المتـدينين الأرثوذكس ويلبسون القفطان الأسـود فى يوم السبت المقدس ولن يسـتطيعوا بدون أدنى شك الإندماج فى أى مجتمع آخر ، إننا نقع فى الفخ الذى صنعناه بأيدينا».

الفصل الخامس

صراط سيدنا ابراهيم

أوالصهاينة المتدينون

«إن طموحـات العرب تضخمت بشـدة خلال هذه السنوات الأخيرة والآن لن يوافـقوا أبدا على الرحيل ، فـلا بد أن يموتوا عندئذ ببساطة ، إنهـا خطة ولا أرى كيف السبيل لتنفـيذها على الفور الا أن الوضع الحالى لن يسـتمر فالمسألة مسـألة وقت وليس إلا .إذ أن حربا دامية سـتنفجر حربا شرسـة وآمل فى اننا سنكون قادرين على كسبـها . بعد تفجر هذا النزاع ، لن يتـبقى سوى عدد محدود من العرب فى المنطقة .....»

نطق الرجل هذه العبارة ببطء وبصوت هادىء وبلغة عبرية ثقيلـة وعميقة مثل اللغة الروسية التى هى لغتـه الأصلية ، أما لحـيته الكثة التى تبـتلع ملامحـه فتجعلـه يظهر وكأنه صورة مـزيفة لراسبـوتين وذلك نظرا لبهـاتة نظراته ورأسه المغطى بطاقـية المتدينين الـسوداء . إن هذا الرجل هو « دافيـد اكسلرود» الذى رغم كـونه ابن حفـيد « ليـون تروتسكى » إلا أنه تخلى نهائيـا عن حلم الدولية الاشتراكية القديم ليرفع راية الأرض اليهودية بعد تطهيرها . ويحلم بأن يشن نضاله الأخير فوق هضـاب اليهودية ليطـهرها بالدم من كل دنس الغرباء وقـد ولد أصلا فى مـوسكو لكنه غادر الإتحاد السـوفيتـى قاصدا الولايات المتـحدة الأمريـكية فى سنة ١٩٧٥ . وهناك اكتـشف العقـيدة اليـهودية وبعـد تنويره واشتـعال حـماسـته بدراسـة التلمـود توجه الى اسـرائيل ليزداد علمـا فى الأكاديميات التلمودية الواحدة تلو الأخرى الى أن ايمانه الجديد يدعو الى ضرورة الذهاب الى تعمير البقاع التى كانت ملكا لليهود فى اقليـم « اليهودية» فى عصور الماضى . ان هذا اللحّام الذى يبلغ من العمـر خمسـةً وثلاثين عاما ولديه أربعـة أبناء ، يعيش الآن فى« تايوا » ، أكـثر مسـتوطنات اليمينيين المتدينين تشـددا والتى تأوى نحو ستين أسرة قادمة من مواطن مخـتلفة : اسرائيل وروسيا والولايات المتحدة الأمريكيـة وبيرو وفرنسا . وبعد اغتيال اسحق رابين كـان دافيد ضمن المتطرفين الذين زج بهم فى السجن:

لقد قبض عليه بنفس الأسلوب الذى كان متبعا فى الإتحاد السوفيتى فى الأيام الماضية ، من أجل مزحـة .....تلك المزحة التى لم تكن طبقـا لوثيقة الإتهـام سوى « مساندة لأعـمال عنف وتحريض على الثورة ». ولكن « دافيد » لم يحفل كثـيرا بأن يلقى وراء القضبان بقرار من حكومة يحتقرها لأن الحقيقة التى يؤمن بها مستنبطة من شريعة التوراة رأسا. وسألته عما اذا كان من الممكن

العثور فى الشريعة على سند يبرر اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى . فرفع عينيه الى السماء حيث بدا استفسارى فى غاية السذاجة فى نظره وأجابنى قائلا:

« بكل التأكيد . . . إن الشريعة التوراتية لم تسن من أجل حماية الأشرار وهذه الحكومة الإسرائيلية تحديدا كانت حكومة عملاء خونة وكانت تتصرف مثل هؤلاء اليهود الذين تعاونوا مع النازيين فى معسكرات الموت واليهود الآخرين الذين كانوا أتباعا لمعسكر فرق الإضطهاد فى روسيا فى عهد القياصرة » .وماذا سيجرى لو حدث فى الغد القريب أن ضغطت السياسة على «داڤيد» وأرغمته اتفاقات السلام الموقعة مع الفلسطينيين على مغادرة مستوطنته؟

« إن سكان «تابوا» لن يحجزموا أمتعتهم أبدا ، ومن الأفضل فى نظرهم أن تدمر القرية بسكانها . . . ولكن هل هذه المذبحة سترتكب بأيدى الفلسطينيين أم بأيدى الإسرائيلى؟

لست نبيا لذا يستحيل الرد على هذا السؤال .

وبسؤال « دافيد » عما سيفعل شخصيا إذا جاء الجيش الإسرائيلى بنفسه لإجلاء ربوته ؟ رد بما يلى:

« كيف سيكون رد فعلى لو جاء شخصا ما وهو يضمر نية انتهاك عرض زوجتى وقتل أطفالى؟ »

إن « دافيد » واحدا من جموع المتطرفين الذين يرفضون تقديم أى تنازل . ومن وجهة نظره اليسار واليمين يتشابهان ، الأول قد دمر إسرائيل فى ظرف ثلاث سنوات والثانى سيستغرق عشر سنوات للوصول الى نفس النتيجة . ثم استشهد عن معرفة بنصوص التوراة قائلا :

« مكتوب أن الزانى مثل القاتل نجس وعمل رجسا . . . ورابين كان قاتلا ونتنياهو كان يخون زوجته مع أخريات . . . . »

وطبقا لمفهومه البلشفى ، كل شئ خرب فى إسرائيل ومن الضرورى تطهيرها برياح الشريعة التوراتية . وببطء شديد أخذ يردد أكثر اراء اليمين الإسرائيلى تطرفا من حيث التشبث بتهويد كل الأراضى التوراتية : إسرائيل ليست دولة يهودية ولن تصبح كذلك إلا عندما يتم تسيير شرائع الديانة اليهودية لأن الأمميين (بمعنى الكفار) ينتقصون بغير رحمة الأغلبية اليهودية عن طريق هجرة الفلول الروسية المكونة من يهود مزيفين ، وكثرة مواليد العرب والتدفق المستمر للعمال الأجانب. .

وفى فترة ما كان « دافيد » عضوا فى الحزب الذى أسسه الحاخام « مائير كاهانا » ، هذا الأمريكى العنصرى الذى كان ينادى على الملأ باقتلاع جميع العرب من أرض اسرائيل . لكن الحاخام « كاهانا » مات وحزبه حُل وللآن لا يستطيع ابنه معاودة تعبئة القوى المتطرفة حول اسمه .

ويقول « دافيد » بإحباط :« الآن أشعر بمرارة وحـدتى » وإمعانا فى توضيح معنى كلامه روى لى حدوتة روسية تقول : فى يوم من الأيام وجد رجل مسن قنبلة يدوية فأخذها وتوجه على الفور إلى مقر الحزب الشيوعى ، ونزع فتيل القذيفة وألقاها وسط المكاتب . . . وانفجر كل شىء وتحول الى كتلة من اللهب . لماذا فعل ذلك ؟ لأنه كان شيـخا طاعنا فى السن ولـم يعد يبقى له أى شىء يخشى أن يخسره . . . .

ثم استطرد يقول لى دافـيد بأعـصاب باردة وهو يـحدق فى عـينى بنظرة ثاقبـة : « وهناك اعتبارات عديدة تجعل الإنسان يشعر إذا فقدها بأنه لم يعد يبقى له شئ يخسره».

وربما لا يعتبر « دافـيد أكسلرود » هذا الطفل الذى تلطم بسبب جذوره التـاريخية وتمرد على قـدره الموروث بأن يعيش سـائحا فى بلاد العـالم ، المقـتلع من جذوره ودائب البـحث عن هوية النموذج التمثيلى لحـركة الصهاينة المتدينين فى مجملها ، إنما يعـتبر على الأقل واحد من الكاشفين عن نواياها الخفية اذ يشرح باسـهاب الآراء المترددة فى مستعمرات معـينة من «اليهودية والسامرة» . . وهناك آخرون يتظاهرون بالإعتدال ويجتهدون فى نقل أفكارهم بأسلوب أكثر عذوبة .

ومن هؤلاء « توماس جـودمان» الذى ولد فى ولاية بنسيلفانيـا وشب فى فلوريدا ثم جاء الى اسرائيل فى سن الثامنة عشرة من العمر عشية حـرب يوم كيبور (عيد الغفران) . وهو الآن أستاذ فى علم الفلك ويدرس فى معهد تنمية الإبتكار والإمتياز لدى الشـباب ، وهو معهد منشأ خصيصا للموهوبين . ومع أنه يعـمل فى تل أبيب إلا أنه يفضل الإقامـة فى « كدوميم » الواقـعة فى قلب « اليهودية والسـامرة »، وهى قرية خلابة توحى لمن يعيش فـيها كأنه يعيش على سـواحل الريفيرا الفرنسية . وتوماس رجل قصير القامة مستدير ومرح ويقهقه بضحكة مدوية عندما توجه له الأسئلة بشكل محدد ودقيق . أما أسباب تفضيله السكـنى فى مستوطنة مقامة « بالأراضى » (يقصد هناك الأراضى المحتلة لكن بدون توصـيفها) فـانه لا يفصح عنها فى بداية كلامـه مفضلا التـركيز على سـحر الريف « لستُ من سـكان الحضـر حتى فـلوريدا كنت أسكن دائمـا بعيـدا عن المدن ولدى وصولى إسرائيل شـاركت فى إقامة مستعـمرة فى صحراء النقب وفى عام ١٩٧٩ بعـد خدمتى فى الجيش ، سـمعت كثيـرا عن وجود مسـتوطنات فى السامرة فقررت الإقامـة هناك . وكانت هذه الخطوة بالنسبة لى تطـبيقا عمليا لصـهيونيتى وفى نفس الوقت أيضـا طريقة للتعبيـر عن رغبتى فى العيش فى وئام مع العرب . . . .»

لكن هذه اللهجة المفعمة بالمشاعـر الطيبة لا تستمر طـويـلا . إذ سـرعـان ما ينبـرى «توماس جودمـان»، ذلك الأستاذ الذى يزن كـلامه فى رسم تصـور مأساوى يسـفه مسبقا أية مـحاولة للتصالح مع الفلسطينيين :

«لقد وقعنا فى فخ! إذ أن فى ظل نظام الحكم الذاتى يعتقد الفلسطينيون بالفعل أنهم ملكوا بلدا فى حين أن هذا الاعتقاد خطأ كلية ! ولو استمر هذا الوضع مدة أطول فسوف ينقلب سلبيا علينا . . . أين ستقع الدولة الفلسطينية؟ وعلى أية رقعة ستنبسط ؟ إن الفلسطينيين يعيشون مبعثرين فى مصر ولبنان وسوريا والأردن ولو حصلوا على بلد فسيعودون جميعا للعيش فيه . وأعدادهم غفيرة بحيث سيلزم الأمر أن تكون رقعة هذا البلد شاسعة ! والأردن لا تريد التفريط فى أى جزء من أراضيها وسوريا لن تتخلى عن أى ملليمتر مربع من أرضها ومصر ترفض فكرة وجودهم على أرضها أصلا . . . وسنعود من ثم لمشكلة سنة ١٩٤٧ . أى قبل نشأة دولة إسرائيل عندما فر جميع الفلسطينيين الى البلاد المحيطة حيث كان يوجد المكان الذى يسع الجميع لكن الجميع رفضوا استضافتهم . أما من جانبنا نحن الإسرائيليين فلو اضطررنا للعودة إلى حدود عام ١٩٦٧ فسوف نختنق لأن أعدادنا زادت بغزارة ولن تكون هناك فرص عمل كافية ومياه كافية . . . وسيضطر عندئذ عدد كبير من الإسرائيليين لمغادرة البلاد !»

xxx

ان الذين رسموا فكرة الدولة الإسرائيلية وبلوروا نظريتها وأرسوا دعائمها هم العلمانيون ، ولهذا السبب كانت علاقات هذه الدولة مع الطوائف المتدينة غامضة ومتأزمة فى نفس الوقت . أما عن سر غموضها فانه يرجع الى أن اليهودى المتدين يعتبر نفسه مستودع الوعد الإلهى الذى يشرع ويشجع العودة الى الأرض المقدسة . وأية خطوة فى هذا السبيل لم يكن من الممكن أن تتم لو لم يكن الله الأبدى قد أرشد أبانا ابراهيم فى الماضى إلى أرض كنعان وقال له :

« ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا . لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد » . . . . (سفر التكوين الاصحاح الثالث عشر الآيات : ١٤٠-١٥) . فى حين أن السبب فى تأزم العلاقات يرجع الى حلول المجتمع الإشتراكى الذى حلم به الصهاينة الأوائل مكان الرجاء المسيانى مما أدى الى دفع المتدينين الى التقوقع فى جيتو توراتى . وفى كتابه التصورى عن « الدولة اليهودية » «كتب » هرتزل يقول بوضوح :

« هل سيكون نظامنا ثيوقراطى ؟ (يعنى دولة الحاكم فيها هو الله) لا! اذا كان الدين حافظ على وحدتنا فالعلم سيحررنا . لهذا السبب لن نسمح للنزعات الثيوقراطية لقياداتنا الدينية بالطفو على السطح أبدا وسنعرف كيف نلزمهم على المكوث فى معابدهم . . . . »

وفى سنة ١٩٠٤ ، تراءى للشاعر « أندريه سبير » وهو أحد ملهمى الصهيونية فى فرنسا أن إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين سيكون بمثابة صراع بين المتدينين والعلمانيين بصدد إقامة المجتمع الإشتراكى . وفى أعقاب اشتباك وقع فى لندن بين فئة من اليهود المؤمنين وفئة أخرى من اليهود غير المؤمنين كتب يقول :

« هذا هو ماينتظرنا نحن قليلى الإيمان فى القدس لو اعتمدت على الدين حيث سنضطر أن نعطل أعمالنا فى عيد الغفران وإذا تصادف ولمع بريق بسمة فى عيوننا فسيحاولون ضربنا . فهل نذهب لنعيش فى القدس ؟ على أية حال هل هناك فرق اذا كان مضطهدوننا مسيحيين أو يهودا ؟ أعتقد أن الصراعات بين الأخوة فى دولة ناشئة لا تهم اذا كنا سنشعر بقيمتنا فى الوجود مرة أخرى عندما سيستولى الإشتراكيون فى الغرب على كل الأوسمة وكل المناصب التى اغتصبتها البورجوازية بدون وجه حق ربما سيشكر بعض اليهود فى هذه اللحظة الصهاينة الذين فتحوا لهم بلدا سيكون لهم فيه مطلق الحرية فى تحديد توجههم الفكرى ليكونوا علمانيين أو اشتراكيين وإن كان فى ذلك أيضا ستكون هناك خطورة . . . . »

اذا كان السواد الأعظم من الطوائف اليهودية الأرثوذكسية قد حارب بعناد شديد الصهيونية منذ نشأتها فقد كان هناك فى نفس الوقت بعض الكهنة الذين حرصوا على ترسيخ دعائم فكرة بناء وطن قومى لليهود على أسس دينية حيث شجع معلم جور أتباعه المؤمنين على الهجرة واشترى شخصيا أراضٍ فى فلسطين حيث بنى عليها أكاديمية دينية . وحصل معلم سوشاريو أيضا على أراضٍ فى فلسطين وهاجر نسيبه الى هناك لتخضير الصحراء . وفى فيلنا فى روسيا تأسس فى عام ١٩٠٢ حزب مزراحى الذى تبنى لنفسه منذ البداية شعارا يقول :« أرض إسرائيل لشعب إسرائيل طبقا لشريعة إسرائيل ». ولقد لقنت قيادات هذا الحزب فرض النزوح الى أرض صهيون لكل فرد يهودى وحاولوا على أية حال اضفاء نفحة دينية على مذهب الصهيونية العقلانى لمؤسسيه الأوائل . بيد أن جهدهم فى هذا الصدد ضاع هباء حيث إنهم لم يفلحوا فى الواقع فى سك بصمتهم على الدعائم الأساسية لوطن اليهود الجديد . ولدى تحليله لظاهرة الصهيونية الدينية لاحظ الكاتب يسوع يعودا أنه بعد مرور بضع سنوات على نشأة الدولة الإسرائيلية: « أن الفصيلة الدينية من حزب مزراحى لم تقم بعمل مؤثر فى الصهيونية الأيديولوجية اذ يبدو أن الحزب ذاته قد تنازل عن ممارسة أى نفوذ على المستوى الأيديولوجى بمجرد أن اقتنع بحتمية العلمانية الثنائية التى فرضتها على الصهيونية الفصائل اليسارية سواء كانت منتمية للأيديولوجية الديمقراطية أم للأيديولوجية الماركسية . وكل ما كان يسعى اليه حزب مزراحى هو نشر مدارسه ومعاهده المختلفة فى إسرائيل مع ضمان استمراريتها، أما عن المبادئ الدينية فلم يكن لها أى تأثير حاسم على تطور النموذج الصهيونى المثالى » .

وثمة حاخام تلمودى ذائع الصيت ، اسمه « ابراهام كوك » ، والذى كان الكاهن الرئيسى فى فلسطين فى عهد الانتداب البريطانى فقد رأى أن يكرس نفسه منذ مطالع هذا القرن ليكون منظّرا وداعيا للفلسفة الصهيونية الدينية . فحاول توحيد ثنائية الجسد والروح ، الوطن والدين داعيا من خلال عظاته من أجل إكتمال وحدة القدوس الأبدى مع البشرى الزائل حيث كان يعظ قائلا «لقد نسينا أن جسدنا لا يقل قداسة عن روحنا . من هذا المنطلق لابد أن يكون مولد إسرائيل أيضا

باتحاد الروح مع الجسد » ومن وجهة نظره فان الحكماء قادرون على الظهور بصورة مختلفة ومتناقضة ومن ثم فى استطاعتهم الظهور كأناس بعيدين تماما عن طرق الدين شريطة أن يجمعوا فى داخلهم الروح الأزلية والجسد الفانى . أليست رسالة العقيدة اليهودية هى تخليد ماهو فان بتطهير ما هو دنس؟

وعلى نفس المنوال تصرف العلمانيون . إذ أنهم بتنفيذهم للوعد الإلهى القديم بالعودة الى إسرائيل قد جمعوا فى وحدة كبرى بين الله والبشر ، الجسد والروح إن المعلم « كوك » عالج هذه الفكرة بحيث يستحيل اعتبار رواد فلسطين الأوائل من الصهاينة بعد ذلك ككفار لأن فضلهم فى إعادة بناء الوطن رفعهم الى مرتبة سامية . وبناء عليه لبس الصهاينة الملحدون والاشتراكيون ثوب القداسة المستحق للأتقياء الأبرار ، وشاركوا دون أن يشعروا فى تدابير الله العظيمة مبشرين بذلك ببداية عصور المسيانية . ويقول المعلم كوك مهللا إنه إذا كان الله واليهود قد ابتعد كل منهما عن الآخر بسبب فترات السبى الطويلة فإنهما سيتقاربان من جديد بالعودة ، لأن التوراة لن تسرى بالكامل إلا على أرض اسرائيل وأرض اسرائيل هى جزء لا يتجزأ من الشريعة التوراتية.

ورحل المعلم « كوك » عن العالم سنة ١٩٣٥ . ولكن بعد قيام الدولة الإسرائيلية ، ظلت أفكاره تغذى وتوجه أيضا أيديولوجية حزب « مفدال » الوطنى الدينى وكان مذهب هذا الحزب خاليا من أى فكر متطرف إذ كان يدعو للتعاون مع حكومة حزب العمل ، والإبقاء على الوضع الراهن بين المتدينين والعلمانيين وادخال قدر ضئيل من التعليم الدينى اليهودى فى البرامج المدرسية والحصول على مساعدات لدعم المدارس التلمودية.

بيد أن كل هذه الأوضاع كانت بصدد الإنقلاب رأسا على عقب بعد حرب الأيام الستة فى شهر يونية ١٩٦٧ . ويحكى أنه حدث خلال شهر مايو من ذات هذا العام أن « زفى يهودا كوك » نجل « أبراهام كوك» الذى يحرص على توصيل أفكار أبيه كان قد ألقى عظة مستفيضة ومؤثرة الى تلاميذه حيث كان ينتحب فيها على أرض اسرائيل التى كان جزءا منها فى أياد أجنبية . وتضرع الى الله واستغاث ببركة الأماكن المقدسة بالسور الغربى ، آخر أطلال المعبد ، وبالخليل وشكيم واريحا . . . . وبصرخة مدوية قال : هل نسينا هذه المقدسات ؟ ثم تنبأ بأن جيش اسرائيل سيحرر أرض إسرائيل .

وبعدها بأسابيع معدودة سحق جيش تساحال تحالف الجيوش العربية واحتل جغرافيا محور الأرض التى شهدت أحداث تاريخه القديم.

قد يكون هناك شك فى صحة تنبوءات المعلم « كوك » ولكن ما أهمية هذا التشكيك اذا كانت التيارات الصهيونية الدينية الحديثة تفسر فى ضوء كلامه الإستيلاء على الضفة كجزء من الرؤية الشاملة للمسيانية الفعالة وتجعل من الإستيلاء الكامل على أراضى إسرائيل التوراتية هدفا

ومغزى وتبريرا لوجود اليهـود على هذه الأرض . وعلى مر السنين تحول الإنتصار فى حرب الأيام الستة ، بموجب هذه الخرافة المختلقة ، الى حديث « مسيانى » جعل اليهود يستردون مساحات من الأرض لم يستطيعوا الحصول عليـها لا بقوة السلاح ولا عن طريق الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ . مع العلم بأنه أثناء تطور الأحداث ، شعرت أساسا الغالبـية العظمى من اليهود المتدينين وغيرهم - بوطأة الوضع السياسى وحـالة التعبئة العـامة فى الجيش واقتراب سـاعة الصفر كأنهـا مؤشرات تنذرهم بأن ثمة عملية إبادة جديدة على وشك أن تتم فكان انتصارهم السريع بعد ذلك بمثابة عملية ثأرية من « الحل النهائـى » الذى كان قد خطط له النازيون خـصوصا وأن الناجين من مـعسكرات الموت كان قد أطلق سراحهم منذ قرابة مايزيد قـليلا على عشرين سنة فقط ، وهذا الجيل كان ولا يزال حيا يرزق يجد ويعمل ويؤثر فى نبض الحياة . ومن شـدة الفرح صرخ يقول «إليافيسل » فى « شحاذ القدس» : إن إسرائيل كسبت الحرب لأن جيشها وشعبها قد تضخما بأرواح الستة ملايين يهودى الشهداء».

xxx

اسمحوا لى أن أسرد لكم فى هذا السيـاق حدثين عايشتهما شخصيا واختـزنتهما فى ذاكرتى ويبدوان كـأنهما ظهرا فـجأة من فترة زمنيـة بعيدة انطوت ودخلت التـاريخ . الحدوتة الأولى هى مشهد حى حـدث فى ممرات مترو الأنفاق فى باريس . كان ذلك فى الأيام الأولى من شـهر يونية لسنة ١٩٦٧ ، وكانت المانشيتات فى جميع الصحـف تبرز آنذاك تصاعد حالة التوتر الى أقصاها بين إسرائيل وجـيرانها وأن الموقف بـصدد انفجـاره فى الغد القريب . . . وفـجأة إنهار شـاب يهودى وارتمى بطوله بعـد أن انتابتـه نوبة عصبـية ، إذ ربما كـان هذا الشاب إبنا لأسـرة من المرحلين إبان الحرب العالمية أى أنه كـان من الذين استقرت كوابيس الحرب فى عقـلهم الباطن وكان هذا الشاب المجهول يصرخ بيـأس قائلا عبارات غير متـرابطة كانت تتخللها كلمات كان مـجرد ترديدها يبعث القشعريرة فى الأبدان مثل « المانيا . . . معـسكرات . . . أسلاك شائكة . . . » تماما كأن الزمن قد تقلص وضاقت فـواصله والقطارات تجرى على القضـبان ترى هل العربة الأخـيرة ستخـصـص مرة أخرى لحملة شارة النجمة الصفراء ؟ « هدئ من روعك هذا ما كان يقوله له المارة بلطف ويحيطون به من أجل طمأنته ولكن عبثا فبعد مرور أكثر من ثلاثين عاما ، هذا الحدث لابد من إدراجه ضمن حالات الأمراض النفـسية حيث إن الناس لم تكن تسـتطيع أن تتفهم أو تتذكـر أبدا حالة الإرتباك والفوضى التى كانت تستولى آنذاك على الأوساط اليـهودية . وأخبار عمليات الإبادة حفظت الآن فى ذاكرة التـاريخ وأصبحت تـستغل كـموضوع يعـالج فى الكتب وتنسخ على أساسـه الأفلام السينمـائية ويتناوله المعلقـون فى تحليلاتهم أو حـتى فى المجادلات للتشكيـك فى مصداقـية تلك الأخبار ، والشهود أنفسهم بدأوا يتراجعون بهدوء وكل الـوقائع يعاد التحقيق من صحتها فى ضوء المعلومات المستجدة .

أما الحدوتة الثانية فهى من ذكرياتى كصحفى . بعد زيارة قمت بها الى إسرائيل فى أعقاب الحرب بضعة أسابيع نقلت لإحدى الصحف اليومية مقالا لم أعد أذكر منه سوى العنوان ذلك الذى كان يدل بما فيه الكفاية على روح المقال بوجه عام : «الإسرائيليون يضمرون البقاء لمدة طويلة فى الأراضى المحتلة » . ولا يستطيع أى انسان أن يتصور حدة الكراهية والانتقادات اللاذعة التى انهالت على رأسى بسبب هذه السطور من قبل من كانوا يزعمون جهارا بأنهم صهاينة وذلك من شدة وضوح الصورة آنذاك بأن تلك الحرب المفروضة على إسرائيل لم تكن حملة من الغزوات المظفرة وأن الضفة المحتلة سرعان ما ستتم إعادتها إلى الملك حسين.

xxx

قبل عام ١٩٦٧ ، اعتزم الصهاينة المتدينون الإبتعاد عن طرق التطرف الدينى وبتصميمهم على إعادة النظر فى برامج التعليم التقليدى الذى كان يدرس فى الأكاديميات التلمودية وشجب حالة الترقب السلبية للمسيًّا المنتظر والمناداة بضرورة أن يقرر الإنسان مصيره بنفسه ، بدت جماعة الصهاينة المتدينين بمثابة حركة ثورية تهدف الى تطويع الشريعة الدينية وفقا لظروف المرحلة الراهنة وبموجب هذا التطوير الحديث للديانة اليهودية بدأت كل نظريات الشريعة والتلمود المثالية تصطدم فجأة بالواقع الذى يعيشه الناس : على سبيل المثال ، كيف يمكن تطبيق قاعدة «سبت الأرض سبتا للرب» « التى تفرض تبوير الأرض سنة كاملة كل سبع سنوات لترتاح من الزراعة فى بلد مرتبط اقتصاديا بالعالم المتحضر ؟ لحسم هذه المعضلة أعلن الكاهن الأكبر «ابراهام كوك» ومجموعة أخرى من المقررين أن هذا الفرض من الشريعة غير قابل للتطبيق طوال فترة بناء الدولة فباسم الواقعية وضعت هذه القيادات الروحية فرضا من فرائض الشريعة التوراتية بين قوسين مما أثار حفيظة كل كهنة الجماعات الأرثوذكسية . ومنذ حرب الأيام الستة بل بشكل أقوى منذ الثمانينيات شعر الصهاينة المتدينون المتطرفون بعقدة نقص من الأرثوذكس المتعصبين ، إذ تصوروا أن هؤلاء الحكماء الملتحين المتقوقعين خلف أسوار أكاديميتهم أشد صرامة منهم فى مسألة تطويع الشريعة اليهودية . عندئذ فقط ظهرت الأرثوذكسية الصهيونية الدينية المتعصبة ، ذلك التيار الذى أصبحت عناصره تشكل الأغلبية الآن فى قلب الحزب الوطنى الدينى .

xxx

النظرة يملؤها بريق لامع ، السكسوكة على طريقة الإمبراطور نابليون الثالث ، إنه وصف سريع« لياكوف » الذى يعيش فى حى جيلو الجديد المقام فوق مرتفعات مدينة القدس . أنهى ياكوف فترة خدمته العسكرية قبل التحاقه باحدى الأكاديميات الدينية ولا تزال الدولة فى نظره أفضل حامية للتقليد: .

الحقائق أثبتت أن دولة إسرائيل حفظت الشعب اليهودى من خطر الإستيعاب (أوالاندماج). إن عدد الزيجات بين اليهود تعتبر هنا من أعلى المعدلات الموجودة فى العالم، نحن نمثل الجيتو الجديد فاذا كان الجيتو يهدف الى الحفاظ على العنصر اليهودى فلا بد أن ندافع عنه ونحميه حتى لو افترضنا أن هذه الدولة ليست الدولة المسيانية . . . . »

وأثناء حديثنا كانت أصغر بنات « ياكف » تحبو تحت الطاولة فانحنيت نحوها . . .فتوتر الوالد وأوقف يدى . اذ ليس من المفروض أن ألمس الطفلة . . .

« إنها طريقتى لمحاربة انحلال القيم فابنتى لن يمسها أى رجل قبل بلوغها سن الزواج . . . » إن رب هذه الأسرة المحتشم الذى تأكله الغيرة على ذويه يعتبر مثالا نموذجيا لتيار الصهيونية الأرثوذكسية المتعصبة . وإذا كان لا يعير عن طيب خاطر أى اهتمام لدور المسيًا المنتظر ، وهذا تنازل من أجل إيمانه بالوطن ، فإنه يتبنى فى المقابل كل العبارات الغامضة التى تتردد فى أكثر الأكاديميات التلمودية انغلاقا . ومتشبثا بنصوص الكتاب المقدس لا يرى « ياكف » فى البيئة المحيطة سوى انحلال وفساد العالم كله فى نظره بمثابة حية رقطاء متربصة بعدائها الشديد للشريعة حتى العلم مذنب يستحق الإدانة حيث ارتكب جرما لا يغتفر عندما أثبت أن العالم لم يخلق بكلمة من الله مثلما هو مذكور فى سفر التكوين . واذا كانت الطبقات الجيولوجية المتتالية تظهر ثمة تغييرا فهذا راجع بالتأكيد لتزييف العلماء لنتائج كشوفاتهم . . . وهناك أساتذة متبحرون فى التلمود لديهم أدلة دامغة على صحة هذا الكلام والملحدون الكفرة يرتعدون خوفا من أن تفضح هذه الإعترافات الرهيبة إفكهم ! .

إن تشنج مواقف الصهيونية المتدينة تلك التى يعتبر « ياكف » الصورة المكبرة لظلاميتها هى نفس الآراء التى ساعدت على نشرها صفوة المثقفين اليهود الذين قدموا من فرنسا أوالولايات المتحدة منذ بداية حرب الأيام الستة . وكانوا يعيشون حتى هذه الفترة على سجيتهم فى معاقلهم بالمهجر وفجأة هب هؤلاء المثقفون من حاخامات وأساتذة وفلاسفة لإغاثة إسرائيل المنتصرة وأسرعوا بتقديم مساندة لا تقدر بمال لبناء الدولة اليهودية وهم يصيحون مهللين بأن العصور المسيانية قد اقتربت وأن الوطنية اليهودية هى أوضح دليل على ذلك ، إن إسرائيل لم تكسب من ورائهم ماخسره يهود المهجر برحيلهم . فهؤلاء الحكماء الذين جاء نضالهم فى الساعة الخامسة والعشرين سرعان مانصبوا أنفسهم دعاة للتشدد الاسرائيلى ونماذج للصهيونية الخالصة، ومتحدثين بلسان سكان المستوطنات فى اليهودية والسامرة (الضفة) وجعلوا من التطرف الصهيونى تتويجا للتطرف الدينى فأصبح من الضرورى الإحتفاظ بالأراضى بموجب تفسير مدقق فى نصوص العهد القديم . أليس الطريق الذى يربط الخليل بشكيم مرورا بالقدس هو نفس الطريق الذى سار فيه أبونا ابراهيم قديما والذى بنى عليه ديانة الإله الواحد؟ المعلم « ليون أسكنازى » إعتاد تلاميذه أن

ينادوه بلقب «مانيتو» من باب التذكرة باسمه الحركى عندما كان المفوض العام للكشافة الإسرائيليين فى فرنسا واستطاع فى الستينيات أن يجذب الشبيبة اليهود بأسلوبه فى التعليم حيث كان يمزج الدين بالحداثة والفكر المستنير بالجرأة ليدعم بكل هذه الأسس جيل مابعد الحرب . واتخذ قراره للنزوح الى إسرائيل واثناء فترة الإحتلال لكن الظروف تدخلت وعكست هذا القرار ، حيث بقى هذا اليهودى القادم من الجزائر لمدة عشرين سنة أخرى فى فرنسا بقصد إعادة بناء الطائفة اليهودية التى سحقتها عمليات الإبادة على يد النارى حتى تصبح وفقا لفلسفته طائفة يهودية فرنسية .وبناء على كلام المعلم أسكنارى شخصيا فإن هذه الرسالة باءت بالفشل لأنها كانت تمت للمثالية الخالية ففضل فى النهاية تبنى رسالة الصهيونية الفعالة.

ويستهل كلامه موضحا ذلك بقوله:

« هناك سوء تفاهم خطير بصدد الهوية اليهودية ففى المهجر تُفهم هذه الهوية على أنها انتماء عقائدى ووهمى فى معظم الأحيان، فى حين أنها فى إسرائيل استعادت بعد ألفى عام من الإنقطاع أصالتها المستمرة من الإنتماء لتاريخ العبرانيين القديم فوق هذه الأرض وهو الأمر الذى يجعل الحوار مشوشا بعض الشئ بين المهجر وإسرائيل و بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة اصطدم أبناء نفس جيلى من اليهود الذين ممن كانوا قد خدموا فى صفوف الجيش أو فى صفوف المقاومة بمشكلة إثبات انتمائهم لهويتين : أولا لرد اعتبار الهوية اليهودية بعد التعذيب والإبادة وثانيا لاستعادة وطنيتهم الفرنسية التى كانت الدولة الفرنسية قد شككت فيها . . . وببطء شديد أدركنا أن تطورا فى الهوية بدأ يحدث فى تاريخ اليهودية إذ عاد اليهود فى إسرائيل ينتمون من جديد لجذورهم العبرية بفضل الحركة الصهيونية وكنت واحد من هؤلاء الذين احتاجوا الى بعض الوقت حتى يتبلور فى أذهانهم هذا التحويل».

ويرى المعلم « أسكنارى» أن الفجوة بين المتدينين وغير المتدينين هى مشكلة لا أساس لها من الصحة حيث إن التمزق الحقيقى قد يكون قائما بين الصهاينة وغير الصهاينة أى بين العلمانيين أعداء الصهيونية المستعدين للتفريط فى البلد وبين الصهاينة المتدينين حماة القيم الأصيلة ، أى بين نصف أبناء البلد الذين يريدون القضاء على الصهيونية ، على حد قوله ، بانشائهم دولة عربية فى فلسطين وبين الصهاينة « الحقيقيين » المتمسكين ببناء دولة يهودية على أرض اسرائيل، إن المعلم «أسكنارى » ليس من هؤلاء المتطرفين الذين يهذون بعبارات مجنونة ويحلمون بفوضى شاملة يختلط فيها الحابل بالنابل ويقذفون بمنتهى البساطة بعدم الشرعية كل الذين يختلفون معهم فى الرأى وكل الذين يحلمون باستمرار السلام ، بدلا من تكديس الأراضى المحتلة بالمستوطنات.

الإسم: البروفيسور بنيامين جروسّ ، المهنة : مدير سابق لمدرسة استراسبورج اليهودية لقد حثته حرب الأيام الستة على النزوح بدوره الى اسرائيل حيث عمل بها لسنوات طويلة مدرسا

للفلسفة فى جامعة « بارايلان» . وهو شخصية ودودة مثل شخصيات الأديب «اركمان شاتريان » واحتفظ بلكنته الإلزاسية وصوته ينغم أثناء حديثه عن الأمور التى تشغله : خاصية اسرائيل والانشقاق المحتمل حدوثه بين اسرائيل ويهود المهجر . وعلى حد قوله :

« إن دولة اسرائيل قامت على تناقض لم يحسم أبدا حتى الآن وجاء البعض ليضمنوا مستقبلهم بصريح العبارة ، والبعض الآخر نزحوا اليها لتقوية ايمانهم ، فلم تكن حياتهم كبشر عاديين هى التى كانوا يقصدون انقاذها وانما هويتهم اليهودية.

إن الطريقة التى اتبعت فى عملية السلام قد همشت شريحة كاملة من المجتمع لم يُسمع رأيها فى ذلك الوقت وهم من يطلق عليهم اسم « مستوطنى اليهودية والسامرة » أو أرض يهوذا والسامرة » الذين يعتبرون فى الواقع روادا وامتدادا لمذهب الصهيونية المثالية . أما اتفاقات أوسلو فلم يكن من الممكن أن تتم لولا الأغلبية التى حصلت عليها بفضل أصوات العرب لدى التصويت عليها فى الكنيست ، فمن التناقض أن يتم تعريض كل جهود الصهيونية للضياع بسبب تدخل بعض الأصوات العربية أثناء التحكيم ! ومن الممكن ان يخلق ذلك شقاقا بين إسرائيل ويهود المهجر لأن اسرائيل لم تعد بصراحة دولة العودة بل إنها دولة أولئك الذين يعيشون فيها وسياسة الباب المفتوح التى أدخلتها اتفاقات أوسلو ستؤدى على المدى المتوسط الى ظهور كيان يهودى عربى . إن هذه الإتفاقات تؤكد حقيقة أن اسرائيل ليست هنا بناء على إرادتها فى العودة إلى وطن الأجداد ولكن بناء على معاهدات متفق عليها سياسيا وجغرافيا. لو اعترف العرب بخاصية الدولة الإسرائيلية فمن المحتمل أن نوافق فى هذه الحالة على السماح ببعض التسويات الإقليمية حتى يتسنى لنا العيش بسلام مع جيراننا . ولكن طالما لايوجد اعتراف فعلى بخاصية اسرائيل ، فان شرعية وجود الشعب اليهودى فى حد ذاتها على أرض اسرائيل ستكون عرضة للشك وأظن أن هذا الوضع غير مقبول . باعتبارهما رمزين لحركة الهجرة التى ولدتها حرب الأيام الستة ، فقد فضل البروفيسور « بنيامين جروس » والمعلم « ليون أسكنارى » العيش فى اسرائيل التى تستند على ركيزة من النبوءات أى فى دولة تضرب جذورها بعمق فى ألفيات عصور التاريخ ، وبناء عليه فإنها ملزمة بأن تحافظ بكل ما أوتيت من قوة على هويتها المتميزة ، أما الجموع الأخرى أولئك الذين جاءوا مطرودين من بلادهم تحت وطأة الظروف الإقتصادية الصعبة بسبب الحرب أو معاداة السامية فكانوا يسعون على النقيض من ذلك الى« تطبيع » الوضع اليهودى ويحلمون مثلما فعل بن جوريون فى عصره – بدولة « مثل الدول الأخرى » . وهذا الوضع يتلخص بايجاز فى هذه العبارة: يوجد فى اسرائيل نوعان من اليهود ، الأول يضم الذين جاءوا ليشعروا بأنهم مثل الآخرين والثانى يشمل الذين جاءوا لكى لا يكونوا مثل الآخرين . وبشكل أكثر وضوحا استطاع الحاخام العظيم « يوسف دوق سولو فيتشيك » الذى شغل منصب أستاذ كرسى فى علم شريعة التلمود فى الجامعة التلمودية بنيويورك أن يقول إن-اليهود-ابتدعوا دولة لينبذوا التوراة لأن المجتمعات المحيطة بهم فى دول المهجر لم تكن لتسمح لهم بأن يفعلوا هذا . . . .

وباسم هذه الخاصية جعل بعض الصهاينة المتدينين من رابين وبيريز خونة للقضية اليهودية وبنوا رأيهم على المنطق الآتى :

بما أن القيادات السياسية أرادت تطبيع وجود اسرائيل فى المنطقة الشرق أوسطية فانها خانت بالضرورة ميزة الخاصية الإسرائيلية . وانصهار الصهيونية مع الأرثوذكسية قد أفرخ الجريمة: إذ عندما وضعوا الشريعة اليهودية وسلامة الأراضى فوق سائر الإعتبارات الأخرى ، يكون بعض الحاخامات قد برروا وشرعوا مقدما إغتيال رئيس وزراء اسرائيل المتهم بالتفريط فى الأراضى المقدسة وتجاسر البعض منهم الى حد التصريح بأن هذا التصرف مسموح به ومنشود دينيا . . . إن هؤلاء الفقهاء المتبحرين فى أحكام الشريعة عثروا على قوانين تشرع إمكانية واستحسان مثل هذا التصرف . فقانون« دين رودف » ومعناه « قانون المطارد» يرمى إلى منع إيذاء الشخص الذى يطارد فردا ما بنية قتله، وهذه القاعدة تفرض على المشاهد واجب التدخل لإنقاذ الضحية المقدرة . وإذا لم ينجح فى منع المعتدى من ارتكاب الجريمة فان الشرع يجيز له حق قتل إياه . وبتعميم هذه القاعدة ، استنتج بعض الحانقين أنها تضمر بين سطورها تشجيعا على الإغتيال. حيث كان اسحق رابين من وجهة نظرهم « يطارد » نوعا ما الشعب اليهودى بتلويحه براية السلام ويتنازل عن طابع اسرائيل الدينى بموافقته على بعض التنازلات الإقليمية وكان من الضرورى إذن درء هذا الخطر بطلقة رصاص قاتلة.

وفى هذا الصدد كتب الحاخام « يوناثان بلاّس» مدير برنامج التربية الدينية الموجه لخريجى مدراس الحزب الوطنى الدينى قائلا : « منذ عصور العهد القديم ، طلب قوم من اليهود ، من كثرة معاناتهم من أعباء الدور العالمى الذين كلفوا به من قبل الرب ، أن يكونوا « أمة عادية مثل سائر الأمم » وذلك بأن تخلوا عن يهوه ووصاياه الزاخرة بالقيم المطلقة التى يصلح تطبيقها على البشرية جمعاء من أجل اعتناق القيم والعادات الخاصة بحضارات الأمم الوثنية المحيطة بهم . علما بأن الصهيونية السياسية بالرغم من عدم انتمائها للدين صراحة قامت أساسا على موافقة ضمنية على الأقل بهذا العهد (المقطوع بين الله وشعبه) لذلك كانت سياسة حكومة اسرائيل الرامية الى التخلى عن جزء من أرض اليهودية التوراتية أمرا محزنا (. . . .) لأنها اصطدمت بأوامر الإله الواحد لشعبه تلك التى يستحيل نقضها فيما يتعلق بإعادة تسيُّد اليهود على « أرض الموعد ». تلك هى القيم السامية التى خانها باستخفاف «رابين وبيريز » عندما طمحا الى التطبيع بمحاولة تافهة ويائسة للإفلات من عبء الحروب والالتزامات المرتبطة بمصير الشعب اليهودى المتفرد» لا شك أن أغلبية الشباب الإسرائيليين المولودين فى الداخل بعيدون كل البعد عن فكرة المصير المتميز الخاص باليهود . والطامة الكبرى بالنسبة للمجادلين المتمسكين بنقطة الخاصية اليهودية أن مدينة تل أبيب تغير طابعها الآن وأصبحت مدينة حديثة شبيهة بأية عاصمة من عواصم العالم الكبرى بما تشمله من مطاعم للوجبات السريعة ، وكازينوهات ليلية وحركة مرور دائبة ليلا ونهارا ، ومراكز تجارية إلى جانب السلبيات الأخرى كالفقر والدعارة والجنوح إلى الجريمة .

وبرغم كل هذا ، لا تزال إسرائيل دولة تتسم بطابع « الخصوصية » فى ضوء ظاهرتين : زيادة ضغط المتدينين على نبض الحياة فى داخل المجتمع الإسرائيلى وتدفق الهجرة عليها . حيث إنه بموجب قانون العودة فإن كل يهودى يعتبر مواطنا مقدرا للدولة ، وبالتالى تغيرت الى حد كبير دوافع نزوح هؤلاء المهاجرين الى أرض الميعاد خاصة وأن اسرائيل بدت ، ابتداء من السبعينيات خطأ أو صوابا ، كأنها بلد ضمن مستقبله نهائيا على كافة الأصعدة الإقتصادية والعسكرية والدبلوماسية ولم يعد يتحسس طريقه . عندئذ غيرت الهجرة وجهها . وأفسح المهاجر المجتهد المستعد للكد والعرق من أجل تخضير الأراضى القاحلة المجال لليهودى المؤمن الحريص على تقوية إيمانه بتدعيم رابطته بالمساحات الأسطورية المذكورة فى ملحمة العهد القديم.

ونظر لقدومهم أصلا من فرنسا والولايات المتحدة فإن هؤلاء المهاجرين الجدد يعززون بدون هوادة بعناصرهم الأحزاب السياسية الأكثر تشددا المنتمية لما يعرف باسم اليمين الإسرائيلى . وهو تعبير مخادع ، لأن الحاجز الذى يفصل بين اليمين واليسار فى اسرائيل لا يرتبط باعتناق أو نبذ نوعية معينة من المفاهيم الاجتماعية وإنما بدرجة التمسك - كثيرا أو قليلا - بتراث القيم التقليدية . فاليسار ، وهو حزب رابين وبيريز ،يدعو من أجل اندماج إسرائيل فى المنطقة الشرق أوسطية أى من أجل دولة إسرائيلية منفتحة على سياسة تعاون مع دول الجوار ولا يشكل فيها البعد اليهودى سوى مكون ثانوى من تركيبة الواقع الإسرائيلى . وفى المقابل ، يضع اليمين وهو حزب نتنياهو ، فى المقدمة ، عنصرى الخاصية اليهودية : التاريخى والدينى ، ويعبر بإرادة حديدية وتصميم راسخ عن تمسكه بمبدأ الاحتفاظ بأراضى« اليهودية والسامرة» وباحتواء فحوى الإتفاقات المبرمة مع الفلسطينيين فى أضيق الحدود . وبشكل عام وبسيط جدا فإن الملحدين يلتفون حول اليسار ، بينما يضم اليمين المتدينين والكهنة المعدودين الذين أبرزتهم حكومة بيريز بعد اغتيال رابين لمحاولة محو صورة هذا الإنقسام لا يمثلون أقلية بل استثناء.

ومع هذا نلاحظ أنه بالرغم من انتماء حزب شاس الدينى وزعيمه الروحى ، الحاخام « أوفاديا يوسف » ، لصفوف اليمين فان الحزب وزعيمه يسلكان برشاقة بين المفاهيم السياسية المختلفة حسب مواقفهم المتبناة وكذلك بقصد الإستفادة بأصوات الناخبين المؤيدة لهم لتحقيق بعض المكاسب.

وبما أنهم ينتمون لحزب يختلف توجهه عن توجه الحزب الوطنى الدينى فهم لا يؤمنون بقدسية الأرض مثل الأرثوذكس الصهاينة ومن ثم فقد تقبلوا فكرة التنازل عن بعض الأراضى والحاخام « أوفاديا يوسف » أشار قائلا : إنه خلال صلاة البركة اليومية واسمها بالعبرية «شيمونيه اسريه» تلك التى يرفع فيها المؤمن ثمانى عشرة بركة . فإنه يستهلها بالتراجع للخلف ثلاث خطوات بعد ترديد هذه المقدمة: « أيها الرب الذى أقمت السلام فى علياء السموات انشر

سلامك علينا وعلى كل شعب إسرائيل...» والمغزى من التقهقر ثلاث خطوات هو ترجيح إمكانية بل ضرورة الموافقة على تنازلات من أجل تحقيق السلام.

واستنادا الى تحليل مناقض تماما للذى يقدمه معلم اللوبافيتش والذى يوصى فيه ببقاء جيش تساحال في الأراضى المحتلة ، أصدر الحاخام الأكبر « أوفاديا يوسف » مرسوما قال فيه : إن مبدأ الحفاظ على الحياة يفرض علينا التخلى عن بعض المناطق .بيد أن النظريات البديعة لم تحل دون تصريح هذا الحاخام في يوم وفاة « شولاميت ألونى » ، نائب اليسار المتطرف الذى كان يكن عداء شديدا للمتدينين ، ان هذا اليوم يعتبر « عيدا » ! وبعد تمثيلية التردد الظاهرى ومزاعم السير ضد تيار أفكار مُنظره ، إذا بحزب شاس يعدل مساره ويدلى بصوته لصالح نتنياهو خلال الإنتخابات الأخيرة زعما بأن شخصية زعيم الليكود تبدو له أكثر احتراما لوصايا التوراة .

xxx

جميع المهاجرين القادمين بوازع دينى إلى إسرائيل ينضمون تلقائيا لمعسكر اليمين ويؤازرونه بحماس يفوق حماس أبناء البلد الأصليين خشية من تهميشهم في المجتمع الإسرائيلى . وتعقيبا على هذه الظاهرة أدلى « أربيه درهى » ، وزير الداخلية السابق وأحد قيادات حزب شاس الدينى بالملحوظة التالية : إننى لا أريد أن أعمم لكن يبدو لى أن بؤرة التطرف الموجودة فى إسرائيل تتكون من المهاجرين القادمين حديثا من الولايات المتحدة حيث تربوا هناك على ممارسات الديموقراطية الكاملة . واعتقدوا لدى وصولهم إلى إسرائيل أنهم سينقذون البلد فى حين أنهم يعرفونه بالكاد» .

ويتساءل أيضا أستاذ علم الإجتماع «كلود سيبتون» الذى ينتمى عن قناعة تامة لليسار، عن الأسباب التى تكمن أيضا وراء وجود نسبة عالية من العناصر المتطرفة دينيا ويمينيا لدى طائفة اليهود الفرنسيين. ويربط هذه الظاهرة بوصول اليهود البولنديين الى فرنسا فى العشرينيات ثم بوصول جماعة اليهود المهاجرين من منطقة شمال افريقيا بعدهم بقرابة نصف قرن. ودلت الإستطلاعات التى أجريت على أن مايزيد على نسبة ٥٠٪ فى المتوسط من هذه الجاليات المتجنسة حديثا يتمسكون بممارسة واجباتهم الوطنية مثل واجب التصويت. اذ شعر اليهود الفرنسيون مثل اليهود الأمريكيين، لدى استقرارهم فى اسرائيل دون مشاركتهم فى الحرب وأحيانا دون تأدية واجبهم العسكرى فى الجيش، أنهم بحاجة للإحساس بإنتمائهم لهذا البلد أكثر من أبنائها الأصليين فاعتقدوا أن تظاهرهم السافر بإنتهاج سلوك راديكالى وإعتناقهم للنظريات المتطرفة هما أفضل الأدلة المبرهنة على إندماجهم ووطنيتهم الخالصة.

xx

وأكثر شخصية متميزة فى هذه الحركات المتطرفة كانت بالفعل قادمة من الخارج. وفى سنة ١٩٨٤، انتخب الحاخام «مائير كاهانا» فى البرلمان الإسرائيلى، وكان هذا المنصب تمجيدا لهذا اليهودى الأمريكى النازح من بروكلين الى إسرائيل لكى يفرض آراءه المتعصبة عليها، إن هذا المهووس بفكرة النقاء العرقى المتسلطة عليه طرح آنذاك على البرلمان مشروعات قوانين تهدف كلها الى طرد الملحدين من القدس ومنع الزيجات المختلطة وسجن كل من عاشر الأجناس الأخرى ويقصد بهذا التعبير اليهود والعرب. وأكثر من مراقب سياسى لاحظ أن التقارب مطابق وساطع بين النازية والكاهانية، مع الفارق ـ وهذا اختلاف مهم ـ أن الكاهانية انبثقت من تطرف دينى، ليس فقط لأن ملهمها كان رجل دين ولكن خصوصا لأن آراءه كانت تستند دائما الى الشريعة الإلهية تلك الشريعة التى شوهت من كثرة المغالاة فى تفسيرها. وباعتبار ان كل عربى هو عدو من وجهة نظره لدولة إسرائيل فكان يستشهد بالتوراة ليجاهر قائلا: «إذا شرع أحد فى قتلك، فاسبقه واقتله». ولقد وجدت حملاته المعادية للعرب صدى طيبا لدى عدد لابأس به من المنظمات الدينية المتعصبة وعندما شنت حركته فى سنة ١٩٨٦ سلسلة من أعمال الشغب للحيلولة دون إتمام اللقاءات بين الشبيبة اليهود والشبيبة العرب. تظاهر عدة مئات من الأرثوذكس المتدينين، بعنف أمام إحدى المدارس بالقدس المزمع أنها استعدت لإستضافة ثمانين صبيا فلسطينيا من الناصرة أثناء زيارتهم للمدينة. وإذ بحمى الغضب تتمكن من هؤلاء المتدينين، فقاموا بتحطيم زجاج نوافذ المدرسة وثمة حاخام راح يعلن بعدها أن الإتصالات بين اليهود والعرب شئ «مقزز».

بيد ان «كاهانا» لم يكن يكتفى بالتصريحات . ففى عام ١٩٨٩ فتح جندى إسرائيلى متدين النار على مجموعة من الفلسطينيين على أعتاب يافا فى القدس مما أسفر عن مصرع شخص وإصابة ثلاثة آخرين. عندئذ قال نفس هذا الحاخام بسخرية «إنه ليس اغتيالا بل اعداما عربيا» .

ولم ينتخب «مائير كاهانا» لعضوية الكنيست مرة أخرى. وفى عام ١٩٨٨ أمرت المحكمة العليا بحل حزبه لخروجه على القانون وهو حزب «كاخ» الذى يعنى «هكذا» اذ رأت المحكمة أنه بحرمان فئة من المواطنين من ممارسة حقوقهم يشكك فى سمعة ديمقراطية الدولة.

وصاح كاهانا محتجا بقوله : «النجسون ألبسوا الأبرار العار» ! .

وفى الولايات المتحدة، أطلق آخر الحاخام افكاره أمام ميكرفونات الصحفيين : انه يستعد لتشكيل حزب جديد وأنه سيلعب دورا رئيسيا فى المستقبل القريب حيث أنه يخطط مشروعات طموحة لبناء أمة يهودية مستقلة فى منطقة «اليهودية والسامرة». لكن عدد أنصاره تضاءل فى الواقع حيث راح كثيرون منهم يبحثون بالفعل لدى سياسى آخر أقل شبهة من كاهانا عن إمكانية تنفيذ تصوراتهم السياسية. وعندما اغتيل فى نيويورك فى شهر نوفمبر عام ١٩٩٠ على يد ثائر آخر وان كان عربيا ، لم يكن يبقى «لمائير كاهانا» فى اسرائيل سوى بعض الأنصار المتفرقين. وحمل ابنه

«بنيامين» الشعلة بتأسيسه حزب «كاهانا شاى» (الذى يعنى «كاهانا حى» إلا انه لم يكن يتمتع بنفس شخصية أبيه الفذة، لذا لم ينجح إلا فى تجميع حثالة المتعصبين. وقام أتباع هذه الحركة الخلفية الذين زاغ صوابهم على أثر دوى صيحات زعيمهم الحاقدة بإطلاق قنبلة يدوية فى الحى الإسلامى من القدس العتيقة مما أسفر عن قتل شخص واحد وإصابة ثمانية آخرين... وحكم على مرتكبى هذا الهجوم وهم أربعة عمال مناجم من أعضاء حزب « كاهانا شاى» بالسجن لمدد تتراوح من خمس الى خمس عشرة سنة. وخضع بنيامين كاهانا بدوره لسيف العدالة الإسرائيلية بسبب أفعاله السيئة المرتكبة ضد بعض القرى العربية فى الأراضى .

والحقيقة أن اليمين المتطرف الإسرائيلى لم يعد بحاجة الى كاهانا الآن واذا كانت الحركة باقية فان الفضل فى هذا يرجع لدور وسائل الإعلام وحماسة بعض المتعصبين، كما ساهمت أحزاب أخرى فى ترويج الأفكار المتطرفة ولكن دون إظهار عنصريتهم بسفور . ورجل مثل «ريحافام زيفى» الملقب باسم غاندى لا يحظى خارج إسرائيل بنفس شهرة «مائير كاهانا» حيث انه لا يستفيد فى الواقع من مساندة الإعلام الدولى له، ذلك الإعلام الذى عمل الكثير لتحقيق مجد خاطف للحاخام المتطرف «كاهانا» أما «ريحافام زيفى» فكان مناضلا سابقا فى «بلماش» وهى الفرقة الخاصة للجيش اليهودى السرى إبان حرب الإستقلال ثم قائد فرقة فى جيش تساحال الإسرائيلى ثم رئيس مجلس إدارة متحف تل أبيب وفى ضوء هذه الخلفية كان يبدو بمثابة شخص طيب السمعة وأهل للثقة. وقد فاز حزبه السياسى «موليدت» أى «الأمة» بثلاثة مقاعد (من مائة وعشرين) فى البرلمان عام ١٩٩٢ بيد أن هذا العدد تقلص الى مقعدين فى كنيست عام ١٩٩٦. ومع هذا فهى نتيجة طيبة اذا علمنا أن حملاته تعتمد على برنامج واحد غاية فى البساطة : ترحيل السكان الفلسطينيين من اليهودية والسامرة وغزة الى البلاد العربية. ومن المؤكد أننا نترك هنا مجال التطرف الدينى لنخوض فى التطرف السياسى لتيارات اليمين المتعصبة. لكن الآراء الكاهانية التى يرددها «غاندى» همسا تشعل حماس المجموعة الأساسية من الصهاينة المتدينين.

العمر سبع وعشرون سنة، الملامح : وجه مربع، حاد القسمات، أبيض وأجرد .الإسم : «يهو شوع كراتزنيكر وهو طالب مجتهد فى جامعة «بار إيلان» الدينية بمدينة تل أبيب أنهى دراساته الدينية، وإذ رفض أن يكّرس لرتبة كهنوتية راح يسجل نفسه فى شعبة المحاسبة. وهو أصلا من مواليد هولندا حيث كان والده قد أوفد لتنشيط حركة الشباب الدينية «بنيه أكيفا» وقد اعترف بأنه يدلى بصوته لصالح الحزب الوطنى الدينى إلا أنه يعتبر نفسه متطرفا على الإطلاق وقد استهل كلامه بدرس فى التاريخ حيث قال : «فى سنة ١٩٤٨، طردنا العرب من منطقة تل أبيب. والآن نستمتع بالعيش فى أمان فى هذا الجزء من البلد، وقمة الروعة أن نستطيع التمتع بنفس هذا الإحساس بالأمان فى قطاعات أخرى... إننى أؤيد أية سياسة تهدف الى ترحيل العرب. واذا كان من الصعب تحقيق مثل هذا الترحيل الآن فلابد أن نمهد الطريق لذلك، كيف؟ بمنع العرب من

المجئ للعمل فى إسرائيل وشراء أراضيهم ومدهم بالمال لكى يهاجروا مع الاحتفاظ بمجمل الأراضى تحت الإدارة الإسرائيلية. وسنخلق بذلك الظروف التى ستساعد على تحقيق هدف الترحيل المنشود فى وقت لاحق. وعلى أية حال «الأراضى» ليس لها وجود إنها حدث عرضى من أحداث الحرب... عندما وقعت الهدنة فى سنة ١٩٤٨، ظلت بعض الأراضى خارج الحدود هذه هى كل الحكاية. إنما تعريف الأراضى المحتلة أو المحررة فى حد ذاته ليس له معنى : إنها بلاد إسرائيل الممتدة على ضفتى نهر الأردن. والآن فى عهد بنيامين نتنياهو الحكومة ستحكم قبضتها وستقيد مساحة الأراضى التى ستعيدها للعرب لكن هذا الأخير لايشكل فى نظرى رئيس الوزراء المثالى، كنت أفضل شخصا آخر أكثر راديكالية».

وسألت يهوشوع «اذا كان يتمنى ان تقوم فى اسرائيل دولة تحكمها الشريعة. عندئذ استؤنف الحوار على هذا النحو من الجنون المرعب مع طالب بار إيلان النجيب: «آمل بديهيا فى أن تقوم دولة تسير على نبراس قوانين الشريعة. إن هذا سيحدث بعد جيل أو جيلين. فالأمر مرتهن على معدل المواليد لدى المتدينين ومعدل الهجرة من إسرائيل لدى الملحدين. عندئذ سيكون قانون البلد برمته مستمدا أصلا من قوانين الشريعة اليهودية.

- ومثلما هو مذكور فى التوراة هل سيتم رجم الزانى والمرأة الزانية ؟

- أى نعم بكل تأكيد إذا كان يوجد نص صريح فى هذا الصدد فى شريعة التوراة...

- ولن يكون من حق أى فرد يهودى أن يتناول أطعمة لا تسمح بها الشريعة؟

- فعلا، اليهود لن يسمح لهم بذلك سيمنع أيضا فتح متاجر لبيع الأصناف التى لا تعترف بها الشريعة، فالحالاخا (وهو الجزء من التلمود الذى يهتم بالنواحى الشرعية والقواعد التنظيمية للحياة المدنية والدينية لإرشاد الفرد وتعريفه بواجباته نحو الجماعة التى يعيش فى وسطها) ينص على أن طالب هذه النوعية من الأطعمة الذى يمسك به متلبسا أثناء تناولها يعاقب بالضرب.

- ألا يذكرك هذا النظام بالبلاد الإسلامية المتطرفة حيث يقطع فيها يد السارق؟

- إطلاقا . هناك إختلاف كبير بين الحالاخا اليهودية والشريعة الإسلامية لأن الحالاخا هدفها المحافظة على الأخلاق وزرع قيم ثمينة وعظيمة فينا.

- إن فرض الدين قسرا ليس أسلوبا ديمقراطيا متحضرا.؟

- هذا صحيح لكن الأخلاق أفضل من الديمقراطية. فالحالاخا تنضح بما تزخر من القيم الى درجة أنك تشعر بأن غياب الديمقراطية هو أقل الأضرار.

- هل توافق على تقديم تنازلات من أجل السلام؟

- ان تيارات اليمين كلها مشكلة من جماعات متدينة أو تقليدية، وناخبو اليسار كلهم علمانيون بل أكثر من ذلك كفارا وأنا شخصيا بإعتبارى متدينا أعرف تماما أننا أصحاب أراضى إسرائيل بنعمة الله وفضله. ولايوجد إذن أى سبب لكى نعطى العرب قطعة واحدة من هذه الأراضى حتى إذا كان ذلك من أجل إتفاقية سلام.

ويعتبر «يهوشوع» هذا الطالب المكلل بشهادات تخصصية من مخلتف الأكاديميات الدينية مثالا نموذجيا لتيار الشباب الصهيونيين المتدينين المغالين فى التشدد، اى شباب لم يعودوا فى حاجة للتفتيش والبحث عن أحزاب صغيرة متطرفة ليعبروا من خلالها عن تطرفهم الدينى حيث إن جوهر أفكار تلك الأحزاب قد اتسعت دائرته وتشبعت به البيئة المحيطة.

ويعكف الكاهنيون القدامي في الوقت الحالى على تفسير النصوص بمزيد من التطرف، فهم يعاودون تشريح إياها بتعصب ليستخلصوا منها الإكسير الذى سيشعل شرارة التطرف، كما عاودوا السير فى طريق أكثر تشبثا بمبادئ الدين ولكن مع مداومة السعى من خلاله عن التعبير عن نفس القناعات المستقرة فى داخلهم. ورغم أن «نير» لم يتجاوز ثلاثين عاما إلا أن لديه بالفعل ماضيا سياسيا، وباعتباره تلميذا قديما للحاخام الأمريكى «كاهانا»، فكان خادما للفاشية اليهودية، إذ كان يكلف بمهمة تغطية جدران القدس بشتائم عنصرية ضد العرب. واليوم بعد استغراقه فى الدراسات الدينية أصبح يعيش حياته بتقوى فى إحدى مستوطنات «الأراضى»، وإذا كان أسلوبه تهذب ظاهريا فإنه لايزال يطابق جوهريا ذلك الذى كان يردده «كاهانا» فيما مضى. . ونفس الكلام يتكرر على لسانه الآن مثل . . شرع الله . . ملكية بدون منازع . . وجود أجنبى لايطاق . . والفرق الوحيد الآن هو أن المدعو «نير» لم يعد يستشهد بأقوال حاخام أمريكى مخرف وإنما بمرجعية شريعة التوراة ذاتها.

الحاخام «آلان ميشيل» صهيونى صريح ومتدين وديع ولا يعتبر من هؤلاء المتطرفين. وبصفته أستاذا فى التاريخ فهو ينتمى لحركة المحافظين الموالية لفكرة إدخال تطوير على الشريعة اليهودية. ومن منظوره كمؤرخ أكثر من كونه كاهنا فقد تابع تحول الصهيوينة الدينية. ولاحظ أن عودة اليهود الى أرضهم كانت إقامة صعبة لهم على أرض الواقع. حيث ان رياح التحرر كانت قد أطاحت منذ مائتى عام باستقلالية الطوائف، اذ سلبتها فى ذات الوقت من قدرة السيطرة على أمور الواقع. وكانت الحقيقة الوحيدة آنذاك هى رابطة الدين باعتباره المجال الأوحد المسموح بترك خصوصيته لأبناء الطوائف اليهودية بعد اندماجهم فى حضارات دول المضيف. ومن هذا المنطلق أخذت الهوية اليهودية تنمو فى مجال نظرى بحت قوامه رباط الدين. وفى ظل هذا السياق كان من السهل على الفرد اليهودى أن يظل يهوديا حيث كان طالب الأكاديمية التلمودية يتفرغ للدراسات اللاهوتية البحتة فى حين أن مهمة إدارة دفة الشئون فى المجتمع كان يعهد بها الى الآخرين ولكن مع النزوح الى

الأرض المقدسة، وجدت الصهيونية الدينية نفسها فى مواجهة تصادمية مع مشكلات الواقع السياسى والمجتمعى. وكان لزاما عليها أن تتحمل عبء هذا الانقلاب فى الأوضاع أيا كانت المعاناة. عندئذ تعين على المؤمن أن يحدد موقفه إما بإغفال هذا البعد تماما - وهو موقف أعداء الصهيونية - وإما بالاعتراف بأن ثمة عملية مسيانية تلوح علاماتها فى الأفق ـ وهو موقف أعداء الصهاينة المتدينين ـ ولكن فى حالة هؤلاء، إزاء عدم تطور الأحداث دائما طبقا للترتيب الذى بشرهم به أنبياؤهم المتصوفون، فإن المؤمن يجتهد لتغيير الواقع حتى يجعله يتواءم مع نبؤات هؤلاء الحكماء، لأن من البديهى أن الخطأ غير وارد فى النصوص وإنما العيب يكمن فى الواقع نفسه .

xxx

فى ديسمبر من عام ١٩٩٥، غادر المعلم «شارل داود بوتشكو» مدينة القدس ليستقر فى مدرسته التلمودية وسط أكشاك مستوطنة «كوهاف ياكوف» جاهزة الصنع المقامة فوق تلال أرض يهودا البيضاء. وكنت قد تركت صخب مدينة القدس من قرابة نصف ساعة ومرقت بالسيارة التى كانت تقلنى أمام دار طليت واجهته بشعار كبير للعلم الفلسطينى وعلى مقربة منها بدأت تظهر الأبنية البغدادلى الصغيرة للمستوطنة اليهودية بأسقفها المائلة الحمراء.. وأومأ السائق برأسه قائلا : « لا أفهم لماذا يأتى هؤلاء الناس للعيش فى هذه العزلة» .

وفى الأفق البعيد تظهر مئذنة جامع بيضاء وسط قرية عربية.. فمنذ عشر سنوات تقريبا جاءت بعض الأسر اليهودية المتدينة ونصبت خيامها فى هذا الموقع وشيئا فشيئا بدأت تبنى المنازل ويعيش الآن نحو ألف شخص فى هذا المكان الذى شهد فى عصور الماضى معركة الملك شاول ضد الفلسطينيين. وحسبما قال لى المعلم بوتشكو :« نحن الآن فى قلب تاريخ الأمة اليهودية. فمن فوق قمة هذا الربع نرى أطلال معاصر قديمة عمرها أكثر من ألفى عام .. " .

وأحسست بالتأثر الذى يملأ هذا الرجل الذى كان جده المقيم فى أوروبا الوسطى قد أسس فى عام ١٩٢٧ مدرسة تلمودية فى سويسرا على ضفاف نهر ليمان .

وجيل-تلو-الجيل، وعلى مقاعد المدارس التلمودية، ظل الطلبة يقرأون ويفسرون ويشرحون ويعلقون ويحللون نصوص تراثهم الدينى ويتحدثون عن أرض «يهودا» كأنهم يتحدثون عن أرض بعيدة وضائعة ويتذكرون مواقع مرتبطة بأساطير العهد القديم لاتزال حية فى مخيلتهم، وبدلا من التعايش مع البيئة المحيطة فى بلدان المضيف فى ليتوانيا وبولندا وروسيا وسويسرا ذاتها كان هؤلاء الطلبة يفضلون الهيام فى عالمهم المنسى الذى استنبطوه من الماضى، ذلك العالم البعيد المنال. واليوم واحد من نسل هذه السلالة يعيش ويعلم فوق هذه التلال التى لم تمح ذكراها أبدا من وجدان اليهود. يا لطول الطريق الذى قطعناه. لقد بلغ الحلم من القوة ماجعله يتحول الى حقيقة واقعة وملموسة ويرسم لنا طريق حاضرنا .

ويتساءل المعلم «بوتشكو» باحباط قائلا :

«ان القدر ضحك لنا فى سنة ١٩٦٧ ولكن هل شعرنا حقيقة بذلك؟ وهل لبينا نداءه العظيم بشأن دعوة كل اليهود للعودة من السبى؟ اننا للأسف لم نفهم شيئا من إيماءات القدر وهذا هو سبب استمرار معاناتنا من أزمة الطريق المسدود التى نحن بصددها الآن. لو كان ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود جاءوا للاستقرار فى أراضى «اليهودية والسامرة» حتى يخلقوا بوجودهم أمرا واقعا لكان الوضع قد اختلف تماما. بيد أن هذا المنشود لم يتحقق.. إننى متفهم لأسلوب تفكير هؤلاء الذين يرفضون حراسة «الأراضى»، حيث ان مسألة السيطرة على شعب غريب تطرح مشكلات أخلاقية وتجلب علينا كراهية الأمم، لكننى متفهم أيضا موقف الآخرين الذين يؤكدون بعزم أنه لا يجب التخلى عن هذه المناطق. هل أخفى الفلسطينيون فى أى وقت تصميمهم على تملك كل مساحة إسرائيل فى يوم من الأيام؟ قد يكون من الجنون أن نسهل المأمورية لعدو مستعد لتدميرنا لابد قطعا من العثور عن حل للسكان غير اليهود. إنما مع حرصنا أساسا على الأرض لأنها أيديولوچيا أرض يهودية. ولو اعترفنا مثلما فعل بعض وزراء حزب العمل فيما مضى بأن الخليل مدينة عربية فإن ذلك قد يشجع على طرح نفس السؤال بالنسبة لمدينة تل أبيب. لاشك أن تل أبيب مأهولة بالسكان اليهود أساسا ولكن هل معنى ذلك أن المدينة أصبحت يهودية بحكم العدد وليس بحكم القانون؟ ومن ثم إذا كانت هناك أغلبية يهودية فى الخليل فهل ستصبح فى هذه الحالة يهودية أيضا .. إن حسم الأمور من هذه الزاوية لايمت للقانون بصلة بل يصبح مسألة ميزان قوى، وإذا تم تقويم وجودنا فى هذا البلد على أساس هذا التوازن فقط فإن العرب سيكونون على حق» .

وعلى بعد عدة كيلومترات من هنا، فى بيت إيل، على الخط الفاصل بين اليهودية والسامرة وفى نفس المكان حيث اضطجع أبونا يعقوب، حسب التقليد وحلم بسلم طالع إلى السماء، يعيش أربعة آلاف شخص من اليهود المتدينين فى رباط مقدس مع أرض الأجداد. وقد تم تخصيص قطاع كامل من هذه المستوطنة للمدارس التلمودية وسكن المدرسين والطلبة. والمرشد الروحى لهذه العاصمة الصغيرة لليمينيين المتدينين هو حاخام بلچيكى اسمه «شلومو افينير» وينشر هذا المنظر تعاليمه فى العديد من المدارس التلمودية الإسرائيلية والتقيت به فى النهاية فى القدس فى ساحة «السور الغربى» حيث كان يمر بسرعة بين الحصص. وكان من الصعب على أن أكتشف فى هذا الرجل النحيف الذى شحب لمونه مثل صفرة جدران السور، معالم الزعامة التى تجعله يشعل الحماس فى كل المدارس التلمودية الخاصة بالصهيونية الدينية الأصولية. وكان يسير ببطء، بخطوة منتظمة، لاهثا ومع هذا لم يجد وقتا للحديث معى، علاوة على أن الأطباء نصحوه بالراحة بعد أن أجروا له عملية توسيع فى الشرايين التاجية .. والحقيقة أن المعلم «أفينير» يتعمد الصمت لعدم لفت الأنظار إليه منذ أن ذكر اسمه ضمن قائمة أسماء الكهنة الثمانية الذين قيل أنهم سمحوا شرعا

لقاتل رابين بإرتكاب جريمته. إن طرح هذه الحجة بهذه الطريقة الجافة يبرز حتما زيفها بأسلوب التشنيع. كما يشكك فى برنامج التعليم فى هذه المدارس برمته، وفى الطريقة التى يستغلون بها موضوع «الأرض المقدسة» وملكيتها كمبرر لكل التجاوزات، حيث كان الحاخام المعلم «أفينير» فى وقت من الأوقات يكثر من تصريحاته. فمن أقواله مثلا :

«إن الحجة التى ستحتم الإستغناء عن فكرة المستوطنات لأنها لاتتواءم مع الاتفاقات الدولية غير مقبولة. لأن مبدأ بناء المستوطنات فى الأراضى المقدسة يتصدر سائر فرائض الشريعة التوراتية الأخرى. وبالتبعية التلقائية أى قرار يتخذه أى كيان سياسى بشأن التنازل عن جزء من أرض إسرائيل المقدسة لغير اليهود هو قرار غير شرعى لأنه يتنافى مع شرائع التوراة التى هى دستور الأمة اليهودية وشعبها وأرضها. » .

وفى بيت إيل، أسهب تلاميذ الحاخام أفينير فى حديثهم معى. «فحاييم أوزان» الذى لا يخرج أبدا بدون طبنجة فى جيبه هو مسئول التربية فى هذه المدارس . ويرفض هذا المسئول اعتبار الوجود اليهودى فى أراضى «اليهودية والسامرة» عقبة فى طريق السلام حيث يقول :

«إن المستوطنات لا تعطل عملية السلام إنما توقف إنسحاب إسرائيل من أرضها . . »

على أية حال، المعلم «شيمون كلاين» مدير المدرسة التلمودية، متأكد من أن كل سكان بيت إيل سيقاتلون من أجل هذه الأرض وعلى حد قوله :

«إن المستوطنة مرت بأيام عصيبة للغاية لكن كل الموجودين هنا جاءوا لأسباب أيديولوچية وهم محصنون ذهنيا وجسديا ومستعدون لكل التضحيات والآلام حتى يضمنوا حياة أفضل فى المستقبل. . وأنا واثق من أن إسرائيل ستشكرنا فى يوم من الأيام وستعترف بأهمية هذه المستوطنات.

أما ابراهام دريتى، الذى يستعد لتقلد وظيفة كهنوتية فى فرنسا، فقد أوضح لنا من خلال بعض العبارات البسيطة فحوى التعليم الصهيونى الدينى :

«إن السكان الموجودين فى اليهودية والسامرة «يريدون أن يؤكدوا الحقيقة التى أصبحت ملموسة لكل أبناء شعب إسرائيل بمن فيهم المسبيون منهم فى المنافى :

«إن كل أرض إسرائيل ملك للشعب اليهودى، كل الأرض بدون إستثناء. ولايهم رأى شعب إسرائيل فى هذا الصدد سواء أكان راضيا أم رافضا، لأن هذا قرار ليس من شأنه الرجعة فيه وحتى لو عزمت الأغلبية الساحقة على إعطاء جزء ما من هذه الأرض للغرباء فإن قرارها لن يضفى مزيدا من الشرعية على هذا الحل، إن أرض إسرائيل ملك لليهود سابقا وحاليا ومستقبلا، إننى لا أستطيع أن أقرر نيابة عن جدى الذى حلم بالحقيقة التى أعيشها الآن ولا أستطيع أن أقرر أيضا نيابة عن أبنائى وأحفادى. جميع الإتفاقيات تصبح بدون قيمة أمام الحقيقة المسجلة فى التوراة» .

هذا ويرفض هؤلاء الطلبة الوطنيون الذين يكرسون أنفسهم للحفاظ أبدا على ديانة إسرائيل أن يستفيدوا مثل اليهود الأرثوذكس بميزة تأجيل الخدمة العسكرية لأجل غير مسمى الذى سيمكنهم من الإفلات نهائيا من الواجب العسكرى. بل إنهم على النقيض من ذلك يصرون على تأدية خدمتهم ولكن بدون الإهمال فى الإلتزام بفرائض العقيدة الصعبة. وتوصلت المدارس الدينية إلى حل فى هذا الصدد مع تساحال: جعل فترة الخدمة العسكرية خمس سنوات ـ بدلا من ثلاث سنوات المقررة لسائر المجندين الآخرين ـ حتى يتسنى لهؤلاء المتدينين التوفيق بين واجباتهم العسكرية والدينية معا ،قد أتاح لهم هذا الحل الفرصة لإتمام دراساتهم الدينية والانضمام لصفوف الجيش . وكان هذا الاتفاق قد عقد إرضاء لرغبة الكهنة الصهاينة الذين كانوا دائمى الشكوى لدى ملاحظتهم بأن تلاميذهم المجندين فى قوات الجيش النظامى يفقدون حرارة إيمانهم ويتخلون عن الالتزام بالشعائر . وعكس هذه الآية ، ان المتدينين لم يفلحوا أبدا فى الإندماج فى صفوف الجيش فالطلبة / الجنود ظلوا على الهامش ونظرا لأن فترة خدمتهم كانت محدودة فلم تتح لهم الفرصة لتقليد مناصب قيادية .

وابتداء من عام ١٩٩٢، تم تسيير نظام جديد، الهدف منه إتاحة الفرصة للمتدينين الوطنيين للالتحاق بدورة دراسية قبل الخدمة العسكرية يتمحور برنامجها حول التلمود وفنون الحرب وبعد إتمامها يؤدون خدمتهم الإجبارية لمدة ثلاث سنوات مثل الجميع ولكن كضباط تعليم. وهكذا يؤدى سنويا ثلاثمائة شاب هذه الدورة التعليمية الخاصة التى تستهدف، كما هو معروف، زرع صفوة من المتدينين فى قلب الجيش ولم يعد الوقت يسمح بالقناعة بفترة وجود خاطفة فى الجيش من أجل التشبع أيديولوجيا فى المدارس الدينية لذلك يسعى الصهاينة الآن للتسلل فى كل آليات النظام بما فيها الجيش أيضا حتى يتم اسكات صوت جميع الذين يعيشون بعيدا عن وصايا الشريعة.

واذا كان الجو العام فى اليمين يغلب عليه توجه الأحزاب الأكثر تشدداً فهناك أيضا بعض الجماعات المتطرفة الأخرى، مثل حركة « زو أرتزيتو » (هذه أرضنا) التى تأسست فى الولايات المتحدة وتعلن جهارا أنها تتبع تعاليم مارتن لوثر كنج فيما يتعلق باستخدام وسيلة العصيان المدنى دون اللجوء الى العنف. ومع هذا مثل ثلاثة من قياداتها أمام العدالة الاسرائيلية لاتهامهم بالتحريض على العنف. وفى تلميح الى الـ « جودنرات » وهى المجالس اليهودية التى شكلها الناريون لتنظيم ترحيل اليهود، لم يتردد واحد من زعماء هذه الحركة، موشى فيجلين، فى قوله «إن رابين هو الجودنرات » الذى جعلنا نركب القطار. ثم حدث فى شهر اغسطس من عام ١٩٩٥ أن حرضت حركة زو أرتزيتو على الفتنة، بالقرب من بيت إيل، حيث أسفر هذا الشغب عن قتل شخص عربى بطلق نارى.

وهناك أيضا أحزاب صغيرة أخرى تجمع قلة محدودة من الأتباع حول أفكار شاذة أحيانا وهامشية دائما ولكن فى جو التوتر المخيم قد تكون بمثابة الثقب الذى سيشعل النفوس الساخنة وتلقى بها فى قبضة العنف.

التقيت « بدافيد بلحش » بالقرب من القدس فى استوديوهات السينما حيث يعمل كاتب سيناريو. وهو يزعم قبل أى شىء آخر أنه مزارع فى مستوطنة « شانى » الواقعة فى الجبال جنوبى الخليل. وهو ينتمى لحزب اسمه « موراشتى » (أى تراثى) ذلك الذى يهدف إلى إعادة الحضارة اليهودية القديمة إلى نصابها، حضارة الملك سليمان الذى كان ملكه منبسطا الى ما وراء نهر الأردن. وبعد تأييده أمام عدسات التليفزيون الأمريكى لاغتيال رئيس الوزراء، وتصريحه بأن بعض أصدقائه قد قتلوا على يد إرهابيين عرب مسلحين بيد رابين، ألقى القبض على دافيد وسجن لعلة الدفاع عن جريمة قتل، وأكد يقول لى بضمير ميت :

« بصفتى واحداً من بنى إسرائيل يرى شعبها مدفوعا الى إهلاك نفسه، فى هذه الحالة اننى أؤيد اغتيال رابين . . ».

وبالنسبة « لداوود » ، إن العرب غزاة فهم أسلاف امبراطورية الفتح العربى الإسلامى الذين جاءوا الى هذه الأرض فى القرن السابع الميلادى، وهو يهدف بمعركته الى «تخليص المنطقة من الإمبرايالية » بطرد المحتلين. لكن أتباع « موراشتى » ليسوا مستعدين فقط لفتح النار على العرب بل يضمرون أيضاً نية محاربة جزء من المجتمع الإسرائيلى :

« نحن نستعد لشن حرب ضد الشعب اليهودى، حرب أيديولوجية ربما تتحول إلى حرب أهلية معلنة اذا لاحظنا أن نسبة كبيرة من اليهود يتعاونون مع أعدائنا ويكررون نفس ما حدث منذ ألفى عام عندما تعاون السنهدريم (مجلس الكهنة) مع الرومان للقضاء على الغيورين والأتقياء معا . وبناء عليه لوأجبرتنا الحكومة الإسرائيلية على ترك « اليهودية والسامرة » فسنحارب بكافة الطرق. حيث إن الجيش الإسرائيلى فقد شرعيته منذ أن صافح رابين عرفات، ولم يعد جيش الشعب إنما أداة لخدمة سياسة تطهير عرقى وقحة للشعب اليهودى على أرضه. من المؤكد أن نتنياهو ليس خائنا فى جوهره مثلما كان رابين لكنه انتهازى ويتحرك بدون ايديولوجية محدودة ويمثل فى نظرنا الماضى الذى تجاوزناه، لذلك نرى أنه لن يقدر على وقف عملية السلام لكن رغبته فى الحفاظ على ماء الوجه ستجعله يثير العرب إلى أن ينفد صبرهم عندئذ سيكشر هؤلاء عن أنيابهم وسيخلعون قناع الصبر التكتيكى الذى تخفوا خلفه ليظهر وجههم الحقيقى كثعابين سامة.

ويعترف داوود بأن الدافع الذى جعله يرتمى فى أحضان التطرف هو تلك المصافحة بين رابين وعرفات ويمزح على المصير الغريب للارهابيين قائلاً :

« إن عرفات من أحط أنواع السفاحين لأنه قتل رجالاً ونساءً وأطفال وشيوخاً وحصل على جائزة نوبل للسلام. وهذا قد يعزينى . . . أن يقولوا عنى الآن أننى ارهابى ظرف عشرين سنة ربما يكرموننى بمنحى جائزة نوبل. إذا كانت تلك هى عاقبة كل إرهابى وفى فضمنت أن مستقبلى وردى ! ».

xxx

والدين يحرك جماعات أخرى إنما من الصعب أحيانا إدراك أهدافها وخططها. هناك شخص اسمه أوزى مشولام يدعى أنه حاخام وإن كانت السلطات الدينية نفسها تشكك فى صفته المزعومة. وهذا الشخص يمنى الأصل ذو الوجه الممتلىء الذى يرتدى دائماً بنطلون جينز وتى شيرت ويلف وسطه بحزام معلق به جراب مسدسه أسس فى الخامسة والأربعين من عمره طائفة حقيقية تقترف تجاوزات تزعج السلطات، نذكر منها على سبيل المثال أنه فى يوم ٢٣ من شهر مارس من عام ١٩٩٤، حبس نفسه لمدة تزيد على الشهر مع مائة وعشرين شخصاً من أتباعه فى فيلا فى «يهود» بالقرب من تل أبيب حتى يتصدى لقوات الأمن التى أتت للقبض عليه. وتم تبادل اطلاق النار بين الطرفين ولقى عضو من من الطائفة حتفه خلال عملية الحصار . وعندما تمكنوا من القبض عليه أخيراً فى يوم ١٠ مايو ومعه أحد عشر فرداً من تلاميذه، حكم عليه بالسجن لمدة ستة أعوام ونصف العام بتهمة « التآمر لارتكاب عمل إجرامى ».

وكما صرح ضابط من قيادات الشرطة الإسرائيلية بقوله : « إن مشولام لديه كل المواصفات النفسانية ليكون زعيم طائفة، فهو شخصية لامعة وفذة ومتضخمة بجنون العظمة والتهور بلا حدود فى سلوكه. ويتمتع بقدرة خارقة على الإقناع وتلاميذه يتبعونه بشكل أعمى ».

ويتهم جهاز الأمن الحاخام بأنه حاول زعزعة استقرار الدولة بتخطيطه لتخريب عدد من المنشآت الحكومية بيد أن أفياد ليفى، المتحدث الرسمى باسم الطائفة كذب قطعياً هذه الاتهامات التى تناولتها الصحافة الإسرائيلية باسهاب. ومن وجهة نظر هذا الأخير فان الجمعية التى أسسها الحاخام لا تطمح إلا لتعليم التوراة والقيام بأعمال البر. وبنظرة غاضبة قال لى : « ان المعلم المربى لديه موهبة تبسيط معرفته لتوصيلها لجميع المستويات. انه رجل مؤمن ونور ايمانه يشع على كل الذين يقربونه بمن فيهم غير المؤمنين. وهو عليم ليس فى الدين وحسب بل فى عدد من المجالات الأخرى أيضاً كالطب والسياسة والأعمال . . . وكل شىء مرتبط عنده بقواعد الشريعة التلمودية « الحالاخا ». وكثير من الناس لا يذهبون لاستشارة الأطباء إلا بعد استشارة المعلم أولاً، لأن نصائحه سديدة لكنه يقول دائماً انه ليس هو الشافى بل الله ! ».

ثم روى لى أفياد باسهاب قضية الأطفال اليمنيين، ذلك اللغز الذى يشغل بال المجتمع الإسرائيلى منذ عشرات السنين. وتبدأ الحكاية فى أواخر الأربعينيات حيث يتردد أنه اختفى فى

لحظة وصول يهود اليمن الى اسرائيل بعض المواليد الرضع من أبناء هـذه الطائفة. فهل ماتوا نتيجة لسوء التغـذية التى عانوا منها فى اليمن ابان مسـيرات أسرهـم مسافـات طويلة صوب عدن، نقطة تجمعهم قـبل الرحيل الى أرض الميعاد ؟ أو هل تبنتهم سراً بعض الأسـر الغنية ؟ لا يزال الغموض يكتنف الخبر بالكامل. ويزعم أفـياد أن الحاخام مشولام لديه الأدلـة الدامغة بصدد صفقـة معقودة بهدف ملء خزائن الدولة الناشـئة وذكر أرقاما مـذهلة مفادها أن أربعة آلاف وخمـسمائة طفل من اليمن بل ومن ايران وسوريا والمغرب أيضا قد تم بيعـهـم فى مقابل خمسة آلاف دولار للواحد الى بعض الأديرة أو الى بعض الأسر العـقيمة فى أنحـاء العالم. وسألته أين توجـد هذه الأدلة ؟ فرد قائلاً :

« ان المعلم لا يريد أن يكشف ستر الحـقيقة بطريقة مـؤلمة، لأنه ليس من السهل اعادة الصلة بين الآباء الحقيقيين وأبنائهم ».

ويعلن مشولام أن لديه صوراً فوتوغرافية وأوراقاً رسمية تثبت أسماء هؤلاء الأطفال المخطوفين لكنه يخفى بعناية هذه الأدلة الدامغة خوفاً من تأزم نفسية هؤلاء الصغار الذين جاوزوا الخمسين من العمر الآن .

ان هذه الفضيحة تساعد على أية حال مشولام فى لم صفوف قواته لمحاربة نظام يعتبره مصدر الفسـاد بعينه. ومن زنزانة السـجن يواصل هاتفياً توجـيه أنصاره. فـى بداية عام ١٩٩٦ طلب من رعاياه أن يحضروا جوازات سـفرهم استعداداً لمغادرة البلاد ونحو أربعمائة أسـرة قوامها نحو الفين وأربعمائة شخص أصبحوا على أهبة الإستعداد الآن للهجرة لو أمرهـم المعلم بذلك. ولكن الى أى أرض ميعاد جديدة سيتجهون ؟ رداً على سؤالى هذا أجابنى أفياد قائلاً :

« سنذهب فى المكان الذى سيحدده لنا مرشدنا ».

xxx

هذه الجماعات وأخرى غيرها أيضاً ليست سوى انعكاس لخيبة أمل الصهاينة المتدينين ومنطقها المتطرف تردده أحياناً شخـصيات لا يمكن تهميشها، مـثل رئيس كهنة اسرائيل السابق، الأشكنازى « شلومـو جورين » ذلك الرجل الذى كـان قد أطلق عندمـا كان فى سنة ١٩٦٧ كـبير المـرشدين الروحيين للجيش الاسرائيلى، صوتاً مدوياً من بوق قرن الكبش، أمام السور الغربى فور الاستيلاء عليه، هو نفسه الـذى دعا جنود الجيش الإسرائيلى فى عام ١٩٩٤ الى عصـيان أى أمر يصدر لهم باجلاء المحليات اليهودية الموجودة فى أراضى « اليهودية والسامرة » وقطاع غزة قائلاً :

« بقدر مايعتبـر تعمير الأرض وصية سماوية بقـدر مايعتبر اقتلاع محلية يهـودية انتهاكا لتلك الوصية ولا ينبغى على الجندى الإسرائيلى الإذعان لمثل هذا الأمر».

وطالما اعتبر الإسرائيليون الأرثوذكس المعادون للصهيونية بمثابة أعدائهم الداخليين المقدرين : ألم نر حاخامات يقفون فى صف منظمة تحرير فلسطين من قبيل الحقد على هذا الوطن اليهودى الواثق من نفسه الى درجة الاستغناء عن معونة المسيًا المخلص له ؟ فى حين أن هذه الطوائف الدينية المتعصبة تعيش عموماً على هامش المستقبل الإسرائيلى ولاتهتم اطلاقاً بالتحركات الدبلوماسية أو العسكرية للبلاد. ولقد أوضح اغتيال رابين تماماً أن الخطر لا ينبع من قبل المجموعة الأولى لكنه يأتى من ناحية الصهاينة المتدينين. فهؤلاء يريدون استغلال تاريخ الأمة اليهودية والضغط على الحكومة والتأثير بثقل على السياسة. وعندما يتطرفون لا ينغلقون فى عزلة الجيتو بل يحملون السلاح ويطلقون اللعنة على كل الكفار المتهمين بالفتور الدينى. انهم مرعبون لأنهم محبطون لدى انكماش غايتهم على أرض الواقع، ويشعرون بأن الحلم العظيم الذى كان يدفعهم للحركة يتلاشى.

ويلحظ البروفيسور « ايلى مرزباخ »، مدرس الرياضيات فى جامعة بار إيلان هذا التوتر العنيف فى كلا المعسكرين. وعلى حد قوله :

« فى عهد الحكومة السابقة، حُكِمَ بالسجن، بتهمة التحريض على العنف، على رجل قيل أنه أطلق لعنة الـ « پولتسا دنورا » ضد شيمون بيريز : وهو تعبير باللغة الأرامية معناه «شرارة النار» ويخفى تعويذة سحرية . . . فهل الحكومة تؤمن اذن بالسحر ؟ لقد وصلنا الى درجة مخيفة من التطرف. ومثل هذه الانحرافات دفعت الشباب المتدين الى الشطط بعيداً، فهو تطرف نابع من اليأس وهذا النوع غاية في الخطورة لأنه يصب رأساً فى العنف ».

ان الخطأ التاريخى الذى وقعت فيه الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة هو أنها سلمت بل وشجعت أيضاً على تعمير الأراضى المحتلة بالسكان اليهود. ووجود مائة وأربعين ألف مستوطن يعيشون موزعين الآن فى مائة وثلاث وأربعين مستوطنة لا يسهل أبداً مفاوضات السلام. ويواصل بنيامين نتنياهو بمساعدة وزيره الصقر السوبر (من جناح الصقور المتشددين) آريل شارون، تعضيد وتنمية عدد هذه المستوطنات.

وبناء القرى اليهودية نشأ ببطء. ومن سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٣، أى من حرب الأيام الستة إلى حرب يوم كيبور (عيد الغفران)، أقلية واحدة فقط لا تذكر من المتحمسين سواء لأسباب وطنية ودينية أو بناء على تشجيع من الحكومة من أجل دوافع استراتيجية، هى التى فكرت فى شد رحالها للعيش فى منطقة « اليهودية والسامرة » وبعد سنة ١٩٧٣ ارتفع عدد السكان اليهود الموجودين فى « الأراضى » من ثلاثة آلاف الى خمسة عشر ألف نفس، والحركة بدأت تنشط وواكبها الحديث عن المسيانية بينما عكف الحاخامات الصهاينة على تلقين تعليم أصولى للأجيال الجديدة. وابتداء من سنة ١٩٨٠، وفى ظل حكومة يمينية برئاسة مناحم بيجين وبرلمان لم يشهد

أبداً مثل هذا العدد من النواب المتدينين، عمل وزير الإسكان على تنشيط حركة البناء فى الأراضى. وفى ظرف عشر سنوات اختار ثمانون ألف إسرائيلى العيش فى الضفة الغربية ولم يكن هذا العدد يتكون فقط من الوطنيين المتدينين الراغبين فى إحياء الوطن اليهودى القديم إنما شمل أيضاً حشداً من المحايدين السلبيين الذين انجذبوا الى هذا المكان نظراً لرخص إيجارات السكن فى المستوطنات. والواقع أن ٦٠٪ من سكان هذه الأراضى المتنازع عليها ليسوا متدينين وهم يشكلون فئة الأغلبية الصامتة فى منطقة « اليهودية والسامرة » لكن هؤلاء السكان إزاء إحساسهم بالضيق الآن يفضلون الانسحاب بدون أن يشعر أحد بحثاً عن أماكن سكن أخرى أكثر هدوءاً، هذا بالرغم من الضغوط والإهانات التى يوجهها لهم المتحمسون الذين يعتبرون هؤلاء المعتدلين هاربين جبناء. وعلى النقيض، فان الوطنيين المتدينين المترددين حتى الآن هم الذين يسرعون لشغل مكان المغادرين. والأثر واضح : بمرور الأيام يزداد ازدحام « الأراضى » بالمتدينين الثائرين الذين لن يسمحوا لأحد بزعزعتهم من مساكنهم بدون أى إلتفات لكل الاتفاقيات المبرمة. وبناء عليه تتبلور الآن حشود من ذوى الميول المتطرفة فى هذه المساحات الجغرافية مما يجعلها أشبه بقنبلة موقوتة شديدة الضغط على وشك الإنفجار.

إن هؤلاء المتطرفين تحديدا هم الذين ساعدوا إلى حد كبير فى إنتخاب بنيامين نتنياهو. مستوطنة مثل كيريات عربا، على سبيل المثال، صوتت بنسبة ٩٩٪ لصالح مرشح اليمين. على أية حال، إذا كان الكنيست فى تشكيل عام ١٩٩٦ يضم عددا أكبر من النواب المتدينين عن أى تشكيل برلمانى سابق - ٢٣ عضوا متدينا مقابل ١٦ فى التشكيل السابق - فليست أحزاب الأرثوذكسية المتعصبة المعادية للوطنية هي التى أوجدت هذا الفارق حيث احتفظت تلك الأحزاب التى تجمعت تحت شعار "حزب التوراة الموحد" (تحالف "أجودات إسرائيل" مع "ديجل هاتورا") بمقاعد نوابها الأربعة. وفى المقابل فقد ارتفع عدد مقاعد حزب "مفدال" الوطنى الدينى من ستة مقاعد الى تسعة وحزب شاس الأرثوذكسى الذى يتميز على منافسه بروحه العملية أحرز عشرة مقاعد بدلا من ستة.

والحكومة ذاتها خصصت عددا من الوزارات الهامة للمتدينين حيث أصبحت وزارات التعليم والداخلية والنقل والشئون الإجتماعية بين أيدى الأحزاب الأرثوذكسية وبعض الوزراء النابغين فى كتلة ليكود لايخفون ورعهم الشديد. وهذا الأمر يثير أحيانا مواقف مضحكة وساخرة معا. إذ عندما افتتح موشى كتساف، وزير السياحة خط الطيران الجديد بين القدس وعمان، اضطر الى أن ينسحب خفية قبل بدء الإحتفالات لأن البرنامج الذى قرره الوزير السابق كان يضم مشهدا للرقص الحديث تؤديه الفتيات وهذه إباحية من المحال أن يتحملها شخص متدين.

xxx

إن نتائج هذه الإنتخابات لم تكن لتخرج بهذا الشكل لولا النظام المتقن فى عملية التصويت. حيث إن السواد الأعظم من كتائب التطرف الصهيونى تكتلت فى تجمع مركزى منظم بعناية وشديد الإنتماء لليمين ويدعو نظريا وفعليا من أجل الوحدة والسلامة الإقليمية الإسرائيلية: إنه "الجوش ايمونيم" أو "كتلة المؤمنين" ويتلون "الجوش ايمونيم" حسب أقنعته المختلفة فيظهر بعدة صور: جماعة متطرفة، منظمة سرية، جمعية دينية، جماعة مصالح، جمعية خيرية لأعمال التكافل. وقد أنشئت هذه المنظمة فى عام ١٩٧٤ بهدف تعبئة الصهاينة المتدينين واستنفارهم فى ظروف معبأة بالحزن والكآبة فى أعقاب حرب عيد الغفران، وكان عليها أن تجمع بسرعة معظم أحزاب اليمين الأصيلة والمتشددة. والأشخاص الذين نفذوا فى عام ١٩٨٠ عمليات الإعتداء التى استهدفت وأصابت بشكل خطير عُمد نابلس ورام الله العرب، كانوا ينتمون لمنظمة سرية حيث كانت قياداتها وأهم عناصرها المتطرفة نابعة أصلا من الجوش إيمونيم. ولقد تسببت هذه العمليات العنيفة فى إنقسام أعضاء "الكتلة" وفى إشمئزاز الأهالى الإسرائيليين منها.

وسعت الجوش ايمونيم بعد ذلك الى إضفاء قناع من البراءة والطهارة على أهدافها فلم تعد تنادى إلا من أجل بقاء وتنمية المستوطنات، أى بلورة طموحات اليمين إلى حين مايتحقق حلمه المنشود بصدد دولة اسرائيل الكبرى. ومع هذا فإن منظمة الجوش ايمونيم كشفت عن وجهها الحقيقى عندما نعرف أنها حولت مقبرة القاتل باروخ جولد شتاين الكائنة فى "كيريات عربا" معقل المنظمة، الى مزار للحجيج، وهو السفاح الذى قضى على ثمانية وعشرين عربيا فى مقبرة الآباء بالخليل، والناس تأتى وتنحنى أمام قبره كما لو كان الراحل واحد من شيوخهم الأجلاء. ولقد كَرَّمَ الصهاينة المتطرفون جولد شتاين، الطبيب الأمريكى سفاح العرب، ورفعوه الى مصاف الأبطال أكثر من "ايجال عامير" قاتل رابين، لأن اليهودى ذا الشخصية الباهتة دائم الابتسام ببرود بدون مناسبة، والذى قتل واحدا من جنسه لا يتميز بأى شئ حتى يكون رمزا حيا لتضحيات هؤلاء الذين يزعمون أنهم رواد وطلائع الحركة الوطنية اليهودية الناهضة. علما بأن هذه النفس المطعونة فى كبريائها القادرة على سفك الدماء قد أفرزتها أيضا الصهيونية الدينية.

"دانييلا ويس" كانت الأمين العام السابق لمنظمة جوش ايمونيم فى عهد الشفافية حينما كانت تلك المنظمة تحرص على إعلان أسماء الهياكل المنبثقة منها فى وضح النهار. ومنذ عشرين عاما غادرت ضاحية سكنها الفاخرة فى تل أبيب لتقيم فى مستوطنة "كدوميم" فى أراضى "اليهودية والسامرة" وهي تغطى رأسها بمنديل المتدينات وتركز فى حديثها بداية على هذه الصحوة الرائعة للشعور الدينى قائلة:

"عندما كنت مدرسة فى إحدى المدارس الدينية منذ خمسة وعشرين عـاما، كان الإختلاط موجودا فى المدارس حتى المرحلة الثانوية لكن اليـوم تم الفصل بين الجنسين منذ المرحلة الإبتدائية. حيث أن ظاهرة التدين انتشرت فى كل أنحـاء البلاد. وأذكر أننى فى سن المراهقة كنت أصلى مرة واحدة فى اليوم وحتى هذه الصلاة اليتيمة لم تكن تؤديها صديقاتى المتدينات أما الآن فجميع النساء المتدينات يلتزمن بتأدية فريضة الصلاة فى أوقاتها ثلاث مرات فى اليوم.

وإذا كانت كتلة الجوش إيمونيم لم يعد لديها رسميا مقر أو أمانة عامة إلا أنها وزعت نفسها على لجان صغيرة على مسـتوى المستوطنات والصلة مستمرة فيما بـين هذه اللجان بعضها البعض. ومن البديهى أن أعضاء هذه الشـبكة قد شعروا بالإرتياح لدى فوز اليمين فى الإنتـخابات الأخيرة لكنهم لم يستكينوا وهذا واضح من العبارة التى قالتها دانييلا ويس بلهجة هادئة:

"سنتصدى بالقوة لمن يحاول إجلاءنا وفى حالة ظهور مثل هذا الخطر ففى امكاننا تعبئة من خمسين الفا إلى ستين ألف شخص فى ظرف أربع وعشرين ساعة".

والرعدة تملأ القلوب لدى معرفة أن معظم هؤلاء المسـتوطنين مسلحون وأنهم تعلموا ضرب النار فى صفوف الجيش الإسرائيلى.

فيالق الإيمان أو شطط حركة اللوبافيتش

سرعان ما انسدل ظلام الليل على تل أبيب. ففى مساء يوم السبت ١٦ مارس عام ١٩٩٦ محا ضباب كثيف معالم المدينة وأخفى أنوارها المتلألئة وصهرها فى كتلة من العتامة. وهكذا ظهرت بالكاد فى الضاحية الشمالية مبانى سجن شارون البيضاء من خلال هذه الكتل القطنية المعتمة، رغم الكشافات التى ألقت على الأسياج والأسلاك الشائكة نورها الوضاء. وفى نهاية هذا اليوم أفرغت سيارات النقل التى جاءت من جميع أنحاء البلاد أمام مبانى السجن حمولتها التى ضمت بضع مئات من الرجال فى زى أسود. راحوا يرقصون رقصة الحاسيديين الشهيرة وينشدون مبتهلين إلى الله وهم يستنجدون بالمسيًا، ويدقون أقداح الفودكا فى نخب بعضهم. ودوت أصوات أبواق قرون الكباش التى يصحب نشاذ أنينها الإحتفالات اليهودية المهيبة. وفى إجلال وقفت مجموعة صغيرة من النساء فى الصفوف الخلفية تدق الطبول فى إنفعال جنونى. وقالت لى سيدة وضعت على رأسها شعرا مستعارا أبيض كما اعتادت أن تفعل اليهوديات الأرثوذكس المتزوجات اللائى تخفين فى عفة وطهر شعورهن تحت بواريك أنيقة : «ومذكور فى الكتاب المقدس أنه عندما اضطر الشعب اليهودى إلى الفرار من فرعون مصر انشقت مياه البحر الأحمر على دق طبول بنات بنى إسرائيل» .

بيد أن أبواب السجن لم تفتح فى تلك الليلة بالسهولة التى انشقت بها مياه البحر الأحمر فى عصور التوراة. ورغم الترانيم والصلوات، والخطب التى ارتفع دويها عبر مكبرات الصوت ورغم نذر قدوم حشود جديدة وانتشار البيارق التى تحمل تاج المسيًا المنتظر، إلا أن شيئا لم يتحرك فى داخل كتلة أسوار السجن التى ظلت صامدة.

وجدير بالذكر أن جميع هؤلاء المتظاهرين ذوى اللحى الكثيفة التى يقتضيها الإلتزام بالتقاليد الدينية الصارمة والذين ارتدوا أردية طويلة سوداء وقبعات واسعة ينتمون إلى طائفة الحاسيديين اللوبافيتش. فقد جاءوا ليعبروا عن غضبهم اثر القبض على أحد اتباعهم داخل مسكنه حيث تم الزج به فى السجن بقوة السلاح بتهمة التحريض على العنف. فقد اتهم المعلم إسحاق چينسبورج بإقامة وليمة عامة تمجيدا لذكرى باروخ جولدشتاين المتطرف الذى فتح فى يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٩٤ ، النار على بعض المسلمين فى حين كانوا يصلون فى مقبرة الآباء (المسجد الإبراهيمى) بمدينة الخليل قبل ان تفتك به الجماهير، ويقول المعلم چينسبورج ان اغتيال تسعة وعشرين عربيا كان يستوجب إقامة وليمة مبهجة.

وقد كتبت صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية اليومية تقول غداة القبض على المعلم إسحاق چينسبورج : أن المعلم معروف بأنه من أشد الحاخامات اليمينيين تعصبا. والواقع ان هذا اليهودى الأمريكى الذى نال شهادات عديدة من الجامعة التلمودية فى بوسطن يقوم بتدريس تلاميذه أسلوبه الخاص فى تفسير نصوص التوراة، إذ يقول: «إن دم إسرائيل هو الدم المفضل عند الله لأنه أشد حمرة من الأغيار. كما أنه يدعو إلى العنف لأن الحياة دون الثأر تزداد مرارة ورجسا». وقد أقام هذا المعلم ذو اللهجة العنيفة مدرسته التلمودية فى وسط مدينة شكيم - مدينة نابلس الحالية - فى المبنى الذى توجد بداخله مقبرة يوسف أصغر أبناء النبى يعقوب، إلا أنه لامخاطر الإنتفاضة ولا الإضطرابات السياسية أفلحت حتى الآن فى إقناعه بالعدول عن التدريس فى هذا المكان الرمزى مثال الجدل.

ولاتزال حفنة من الطلبة تتوجه كل يوم إلى أسوار شكيم حيث تقوم سيارات نصف نقل مجنزرة تابعة للجيش الإسرائيلى بنقلهم فتنزلهم كل صباح وتعيدهم فى المساء. ويقوم أحد رجال الشرطة الفلسطينيين، حاملا بندقية «كالاشينكوف» على كتفه، بفتح البوابة أمامهم فى الوقت الذى يردد فيه اليهود الشباب، وقد بدا البريق فى أعينهم، نشيدا باللغة العبرية يكررون فيه بلاسأم عبارات «يوسف لايزال حيا». ولاشك أن هناك الرجال العصاة الذين تقوقعوا داخل الأراضى الخاضعة للسلطة الفلسطينية يؤمنون إيمانا عنيفا بأنهم طليعة ذلك المجتمع اليهودى الذى لم تنقطع صلاته بتاريخه القويم، ويؤكد يهودا وهو تلميذ بإحدى المعاهد الدينية قائلا : «نحن هنا باعتبارنا ممثلين عن الشعب اليهودى عبر جميع الأجيال السابقة والمقبلة. ومن ثم نسعى باسم الشعب اليهودى أجمع للاحتفاظ بشعلة الإيمان» .

وأثناء تلك المظاهرة، وأمام السجن قدم أحد أفراد حركة اللوبافيتش مقارنة مثيرة أمامى بين رواية التوراة وتلك الحادثة الأخيرة بقوله: «إن أخوة يوسف كانوا قد باعوه وهاهى الحكومة الإسرائيلية تسلمه من جديد للأيادى الأجنبية».

ولاشك أن هذا الحديث الذى امتزجت فيه أحداث التوراة مع الإدانة المستمرة للسياسة الإسرائيلية يثير الضيق المتزايد لدى الفئات الإسرائيلية المعتدلة التى تتطلع إلى العيش فى سلام أكثر من الإبتهال بآيات الكتاب المقدس. هذا مادفعنى إلى التفكير فى روچيه الذى ولد فى المغرب والذى قال لى بالأمس: «لقد ضقت ذرعا بقضاء فترات الخدمة فى جيش الإحتياط لحماية هؤلاء المتوهمين الذين يعرضون حياتهم للخطر وسط الفلسطينيين. فلدى ثلاثة أطفال وأقبل المخاطرة بحياتى من أجل الدفاع عن البلاد وليس من أجل السماح لبعض تلاميذ من المعاهد الدينية لإشباع هوسهم بإسرائيل الكبرى . . .».

وبعد القبض على المعلم چينسبورج ببضعة أيام فقط حضرت إحتفالات مسائية بمستوطنة كفر حاباد معقل اللوبافيتش فى إسرائيل. وبدأت الإحتفالات بصورة تقليدية للغاية بخطبة عن الخلاص ونهاية الأزمنة، ألقاها أحد رجال العلم الروس ممن ارتدوا عن المادية الشيوعية، واستتبعها عرض شريط فيديو قديم كرر فيه معلم اللوبافيتش الذى توفى فى عام ١٩٩٤، والمرشد المطلق لهؤلاء الحاسيديين، مرة أخرى تعليماته الخاصة بوحدة أراضى إسرائيل قبل ان يردد تلك الترنيمة التى راحت مجموعة صغيرة من التابعين له ترددها فى القاعة بحماس مخيف وهم يدقون الأرض بأقدامهم ويصفقون بأيديهم، وأعينهم مصوبة على الشاشة. وبعد ذلك أتت المسألة الهامة فى الإجتماع، حيث بدأ الحاضرون يستمعون إلى الرسالة السياسية التى ألقاها مناحم چوراری عضو مجلس المحليات اليهودية فى يهودا والسامرة. وهكذا يستغل اليمين الإسرائيلى ببراعة أولئك المؤمنين المنغمسين فى التطرف السياسى وتحالف بموضوعية مع جميع التيارات الدينية الممكنة فتظهر على هيئة الصراط المستقيم طبقا لما جاء فى التوراة. ويقف فى مواجهة ذلك اليسار الذى يمكن أن يشكل كتلة مناهضة للدين مستعدة للتهاون بالنصوص القديمة من أجل قصاصة ورق موقعة من عرفات. الواقع أن چوراری رغم «الكيبا» التى يضعها على رأسه ولحيته القصيرة إلا أنه ليس فيه شئ من اللوبافيتش ولكنه يعرف كيف يحصل على مساندة حقيقية، داخل هذا الإجتماع، لسياسته الإستيطانية والمحافظة على أراضى «يهودا والسامرة» إذ يقول: «إننى أناضل من أجل قيام حكومة يهودية تلتزم بالتوراة وتحول دون حدوث هروب إلى الأمام. والقدس نفسها معرضة للخطر، إذ نصت الإتفاقات على مناقشة وضعها أيضا» .

وأخيرا نهض المعلم دافيد ليلسيوم - إحدى قيادات اللوبافيتش فى إسرائيل - يقول: «إن الذى اعتقل ليس المعلم جينسبورج إنما المعلم اللوبافيتش نفسه. ومما يعدو بمثابة حرب شنت ضد اليهودية، إنها الحرب بين النور والظلام» .

وهكذا انتقل المتحدثون، فى أمسية واحدة، تدريجيا من حديث دينى بحت إلى الحديث عن مبادئ اليمين، أعقبه حديث عن الحرب التى يتعين شنها على العدو اليهودى غير المتدين، إنتهى - بطبيعة الحال - إلى تمجيد ذلك المتطرف الحبيس .

وبعد حبس دام تسعة عشر يوما تم الإفراج عن المعلم جينسبورج، الأمر الذى أتاح له فرصة الذهاب إلى بروكلين للتباهى مكللا بأكاليل البطولة والإستشهاد وقد صاح قائلا أمام جمهور من الحاسيديم: «إن الإفراج عنى جاء نتيجة تضافر جهود عدد كبير جدا من اليهود الذين أحدثوا بمحاولاتهم هزة كبرى فى الآخرة. بيد أن العامل الرئيسى الذى قام بتوحيد تلك الجهود من أجل تبنى هذه القضية هو معلم اللوبافيتش».

وإلى أن تم القبض على إسحاق چينسبورج كانت حركة اللوبافيتش تعتبر بمثابة تيار متصوف وديع مسالم مشغول بدعوته البسيطة داخل المجتمع اليهودى ودائم التطلع وببراءة تامة إلى قرب مجئ المسيح المخلص. إلا أن سجن حاخام مدينة شكيم المتشدد دفع أكثر أتباع اللوبافيتش تشددا إلى اسقاط اقنعتهم والظهور على حقيقتهم. ذلك أن شطحات أوهام المعلم چونسبورج لم تشكل إنحرافا للحركة، بل جاءت نتيجة منطقية للتوجه السياسى الذى أرساه المعلم مناحيم شنيرسون زعيم الحاسيديم اللوبافيتش القوى فى مطلع السبعينيات.

ورغم أن المعلم مناحيم شنيرسون لم يغادر مقر إقامته فى نيويورك إلا أنه كان يصدر تعليمات متتالية إلى قادة إسرائيل يأمرهم بعدم التنازل عن أى شبر من الأراضى المقدسة، ويحث الشعب اليهودى على الإستيطان فى يهودا والسامرة. وعليه فقد أثار حماس المعلم العنيف للتدخل فى لعبة الأحزاب الإسرائيلية دهشة أشد أتباع اللوبافيتش طاعة: ذلك أن الحركة الحاسيدية لدى ظهور الصهيونية فى القرن التاسع عشر اعترضت بشدة على رغبة اليهود السياسية فى العودة إلى الأراضى المقدسة تاركة لله والمسيح مهمة إعادة اليهود المجودين فى المنفى إلى وطنهم.

وفى باريس قام المعلم بنحاس ياشتر الذى يرأس مركز دراسات اللوبافيتش والذى عاون فى تأسيس رابطة شبيبة اللوبافيتش فى فرنسا بتحليل ظاهرة التشتت هذه بإعتبارها ظاهرة أخروية مؤكدا بذلك دور القدرة الإلهية التى لايستطيع التأثير على خطتها الكبرى .

إن المنفى - أى السبى باللغة العبرية - ظاهرة لاتقتصر على الإطار الجغرافى وحده. فتواجد اليهود خارج إسرائيل لايعنى بالضرورة وجودهم فى السبى، كما أن تواجدهم فى إسرائيل لايعنى بالضرورة عدم تواجدهم فى المنفى. والحقيقة أن السبى فى رأيى وكذا فى رأى من علمونى، ظاهرة تتعلق بصفة خاصة بالمجال الروحى. ويكون ذلك بالإنغلاق على الذات، وعلى الروح، وعلى عنصرنا اليهودى وبإبتعاد الله عنا، وإبتعاد العالم عن الله . . ومن ثم . . يتجلى السبى عندما يحدث إنفصال بين الجسد والروح وبين العالم وخالقه. وأعتقد أن السبى ظاهرة تتم بمشيئة الله وهى مرحلة يتعين علينا أن نمر بها. وهكذا فرض السبى على الوجود اليهودى وكذا على وجود العالم بصفة عامة كقدر محتوم وأمر مفروض .

وقد سألت المعلم باتسر عما إذا كانت الأعراف والتقاليد اليهودية تتحدث عن إحتمال حدوث نزوح جماعى للشعب اليهودى بالكامل نحو القدس. فقال: «إننى لم أسمع بذلك لا من المعلم جينسبورج ولا من الحكماء الآخرين، فلم يتحدثوا قط عن نزوح جماعى، وإنما كانوا يتحدثون بصفة دائمة عن نزوح فردى. فلم تشر التقاليد إلى نزوح جماعى إلا فى أزمنة محددة من التاريخ، عند العودة من أرض بابل على سبيل المثال».

وقد طرح هذا السؤال بالطبع على المعلم، وأجاب بأن الإشارة إلى النزوح إلى إسرائيل قد وردت فى الفصل الأخير من المجلد الأخير من كتاب مجموعة الشرائع اليهودية - شولحان أروش- وهو يعنى أنه يمكن الوصول إلى إسرائيل بعد إتمام كل شئ عندما تتم الدراسة فى مدرسة «الجالوث» وخوض جميع المحن، ولكن إذا سبقت إسرائيل جميع الأولويات الروحانية الأخرى فكأننا ننشئ جيلا من اليهود بعيدا عن الديانة اليهودية، ويهود يستخدمون إسرائيل لرفض كل الأشياء المتبقية، يرفضون التوراة من أجل النزوح، وبذلك نكون قد فقدنا الإيمان بالنزوح روحيا وفقدنا الإيمان بالخلاص المسيحى عاقدين كل آمالنا فى خلاص سياسى .. وهذا مايعتبر جنونا !».

والحقيقة أن موسى كلود جورنو يعد نموذجا للشخص اليهودى فى شارع روزييه. فقد ولد فى تونس، وجاء إلى باريس وعمره عاما ولم يغادر حى ماريه اليهودى منذ ذلك الحين. وهو يملك مطعم «ديليكاتيسين» الذى يجذب السياح الذين يشعرون بالحنين إلى اللغة اليهودية كما يجذب اليهود الأرثوذكس الذين يهمهم ان يجدوا طعاما حلالا (كاشير) مطابقا للشريعة اليهودية. ورغم انه يضع الكيبا على رأسه. وليس القبعة الحاسيدية الواسعة، إلا أنه لايخفى توجهاته اللوبافيتشية.

وقد قال وهو يقرض بعض حبات عباد الشمس: «إنه ليس هناك شئ أكثر إزعاجا لليهودى غير الدولة الإسرائيلية. فهى كالمسمار فى لحم اليهودى. والصهيونى هو الرجل القادر على التضحية بحياته وبحياة أبنائه من أجل إقامة دولة، ثم هو قادر على أن يعيدها فى يوم من الأيام إلى أولئك الذين قال انه أخذها منهم. والصهاينة هم قوم أدركوا أخيرا أنه من المستحيل اليوم أن يكون لهم وطن».

ورغم أقوال المعلم والخطب ذات الصفة السامية فان الحاسيدية الأصولية لم تكن بؤرة للمؤامرات السياسية. وكان هذا التيار الذى يدعو إلى إسعاد النفس مع التعبير الدينى القوى، قد أثار حماس الجماهير اليهودية المتدينة فى القرن الثامن عشر فى أوروبا الشرقية. وسرعان ماتفتت هذا التيار إلى مدارس صغيرة التفت حول المعلم الذى اعتبروه حكيما وذا قدرات خارقة، مثل شفاء المرضى والتنبؤ بالمستقبل والتحدث مع الله. وهكذا نسجت كل مدرسة من هذه المدارس حول معلمها أسطورة دينية مليئة بالمعجزات، والتزمت جميع الأجيال بعدها بإضافة كل منها لؤلؤة جديدة إلى هذا التاج المجيد.

وجدير بالذكر أن شنيور زلمان دى ليادى قد أسس حركة حاباد الحاسيدية وهى شعار عبرى معناه (الحكمة والذكاء والمعرفة). أما خليفته فقد أقام فى مدينة لوبافيتش فى روسيا البيضاء التى ظلت مقرا لحركته على مدار قرن من الزمان. وقد عرف جرشوم شوليم مؤرخ الفكر اليهودى الكبير مساهمة حركة حاباد فى الفكر الدينى اليهودى على النحو التالى إذ قال : «إن مايعطى

لكتابات مدرسة حاباد ملامحها المميزة هو ذلك المزيج المثير بين عبادة الله بحماس وبين ذلك التفسير الآحادى للوجود أو بالأحرى التفسير اللا كونى للعالم من جهة، إلى جانب ذلك الإهتمام الشديد بالنفس البشرية وميولها من جهة أخرى. الأمر الذى يعنى أنه من الخطأ أن نحكم على روحانية هذه الحركة من الوجهة التاريخية بناء على أفكارها التى تتسلط عليها فى الوقت الحالى والتى تتلخص فى المسيانية العالمية، وفى الدعوة لنشر الديانة اليهودية وفى التمسك بوحدة وسلامة الأراضى داخل إسرائيل».

وإثر وفاة أول معلم فى مدرسة حاباد فى عام ١٨١٢ انتقلت السلطة على التوالى من الأب للإبن لتكوين سلالة حقيقية. والواقع أن نواة تلك المدرسة بعد أن فرت من اضطهادات القياصرة واضطرابات الحرب العالمية الأولى استقرت أولا فى مدينة ريجا البولندية ثم فى وارسو بعد ذلك. لكن ماحدث هو أن أحد المعلمين لم يكن له أى نسل من الذكور فقام حينذاك بتزويج ابنته لإبن أخيه مناحيم ليجعل منه الخليفة المنتظر. وفى عام ١٩٤٠ فر هذا المعلم المحروم من الذرية من بولندا التى احتلها النازى إلى بروكلين، خاصة وانه لم يكن هناك من يمكن أن يخلفه. وفى العام التالى استدعى صهره إلى جانبه وأمره بوقف دراساته فى السوربون لمعاونته فى عملية إعادة بناء الحركة الحاسيدية، وعند وفاة المعلم فى عام ١٩٥٠، أصبح شترسون عندئذ معلما بدلا منه وسرعان ما أثبت أنه عالم فقيه ورجل منظم نشط، وكذا شخصية كاريزماتية قادرة على شحذ الجماهير، وهكذا جعل من حركته قاعدة أساسية لتقاليد المجتمع اليهودى الحديث وجعل من المدرسة الحاسيدية الصغيرة إمبراطورية حقيقية لها صحفها ومدارسها ودار نشر خاصة لها أفرع عديدة منتشرة عبر العالم .

وجدير بالذكر أن تزايد عدد المعلمين ذوى القدرات الخارقة فى قرى شرق أوروبا فيما مضى جعل نفوذهم ينحصر فى نطاق ضيق وجعل سلطة كل منهم قاصرة على دائرة بلدته الصغيرة. غير أن المركزية التى نشأت عن الهجرة اليهودية من القرى وتمركزهم فى المدن الكبرى وتأثير وسائل الإتصال التى انتشرت مع ظهور تسجيلات الفيديو وشرائط الكاسيت السمعية والمصالحة المعلوماتية كل ذلك ساعد معلم لوبافيتش على ممارسة تأثيره على جماهير عريضة .

وسرعان ما بدأت مغامرة حركة حاباد الفرنسية عقب الحرب العالمية الثانية، فقد تمكن عدد كبير من اللوبافيتش الذين نجوا من الإضطهادات النازية والستالينية من مغادرة الإتحاد السوفيتى وكثيرا ما التقوا فى باريس التى مروا بها ولكنهم لم يقيموا فيها : ذلك أن مدينة النور كانت لها شهرة حقيقية فى عالم اليهود المتدين فى تلك الفترة، فكانت تثير مخاوفه وكان يشبهها وهو يرتعش بمدينة بابل المعاصرة. وقد قيل حينذاك أن باريس مدينة مقدسة للغاية، خاصة وأن جميع

اليهود الذين يمرون بها يتركون فيها قدسيتهم على سبيل السخرية. وعليه فقد بحث الحاسيديم وهم مذعورون عن ملاذ طبيعى آخر فتـوجهوا إلى الولايات المتحدة أو إنجلترا أو إسرائيل. بيد أن المعلم الجديد الذى كان يعرف باريس تماما، طلب من بعض الأسر البقـاء فيها، إذ كانت هناك فى فرنسا طائفة يهودية فى حاجة إلى إعادة تنظيم، كما كان هناك عمل يجب إنجازه .

وسرعان ما أقيمت فى برونوى فى منطقة باريس أكاديمية تلمودية إلا أنها ظلت على هامش المجتـمع الفرنسى. وعاش تلامـيذه فى مجـتمع خاص بهم يتـحدثون فيـما بينهم باللغة اليـهودية والروسية أو البولندية. وفر جيل وولد فى تلك الأسـر أطفال، ورغم أنهم لم يندمجوا بالفعل فى المجتمع اليـهودى الفرنسى ، إلا أنهم كانوا يتـحدثون بعض الفرنسية، وقـد طلب المعلم إلى أحد هؤلاء التلامـيذ الذين جاءوا لإتمام دراساتهم الديـنية فى الولايات المتحدة فى عـام ١٩٦٥، العودة إلى باريس للإهتمام بشئون الشـبيبة اليهودية. ومنذ ذلك التاريخ اتسعت حـركة اللوبافيتش بالفعل وفرضت وجودها .

والواقع ان عام ١٩٦٥ كان فترة متـميزة حدثت فيها بعض التغييـرات وأعيد فيها النظر فى بعض الأوضاع ووقـعت خلالهـا بعض التمزقـات : وكان ذلك فى الفتـرة التى نزح إليهـا أعداد ضخمة من شـمال افريقيا وهم السفرديم الذين كثـيرا ماوجدوا فى الحركة الحاسيـدية تلك التقاليد اليهودية التى تجمع بين التصوف والمعتقدات التى شهدوها فى الجزائر وتونس والمغرب .

وجديد بالذكر أن الحركـة الحاسيدية الروسية البولندية تبدو رغم بعـدها الجغرافى أقرب إلى السفـارديم عن الاشكيناز الألمان أو الالزاسيين الذين نـبذت عقـيدتهم وفرائض دينـهم كل تصوف مقـيت، حيث تجلت بصورة أكـثر عقلانيـة. ولاشك أنه كان لابد للثقـافة السفـردية التى زخرت بقديسين غـير عاديين وبتـمائم سحرية وبنـشوة الإيمان ان تلتقى مع الحـركة الحاسيـدية. إذ لم تجد العقيـدة اليهودية - التى نشأت فى شـمال افريقيا والـتى ضلت طريقها فى السبى - فى العـاصمة الفرنسـية سماتهـا الطبيعيـة المميزة، فلم تجد فى فـرنسا ذلك المجتمع المنطوى على نفـسه أو ذلك الالتزام اليومى بفرائض الدين وعادة التبارك بزيارة مقابر القديسين. وهكذا دخل اليهودى السفردى فجأة إلى مـجتمع مفتوح غـالبا ما كان يمارس فيـه الدين على أنه إيمان فاتر بعقيدة سـالفة وذكرى قديمة. وعليه فقد انتـهج عدد كبير من السفرديم - الذين حرصـوا على التوصل إلى إطار لمباشرة فرائض دينهم - الفلسفة اللوبافيتشية فى إرتياح واتبعوا فرائضها الدينية .

ويشير حاييم نيسنبوم أحد كبار المسئولين فى وزارة العمل والمتحدث باسم حركة اللوبافيتش فى فرنسا قائلا : « إنه من الواضح أن عملية التعبئـة الرئيسية تمت بين الشباب السفردى. إذ كانوا معزولين عن جذورهم الثقافية حتى أنهم لم يبتعدوا كـثيرا عن التقاليد الدينية حتى أنهم لم يعتقدوا

أن التمسك بالعقيدة اليهودية يتمثل فى أداء فرائض قديمة عديدة لا تعينهم. وقبلوا الحاسيدية على ماكانت عليها باعتبارها مدرسة فكرية منفصلة عن الظروف التاريخية والثقافية، واتبعوها فى جميع صورها حتى فى طابع الملبس المميز لاتباعها. وعليه فالزى الذى ترتديه لم تتخذه بالطبع كمرجع ثقافى مميزا لمنطقة جغرافية محددة، ولكن كرمز روحى خاصة وأن بعض الحكماء العظام قد ارتدوا هذا الزى.

وجدير بالذكر أنه يوجد حوالى عشرين ألف لوبافيتشى فى فرنسا من مائة ألف موزعين فى جميع أرجاء العالم يشكلون مجموعات مستقلة محليا كانت تصدر لها تعليماتها من بروكلين على الأقل حتى وفاة المعلم. ومن المؤكد أن مجموعة اللوبافيتش قد انتشرت فى المدن الكبرى، بل وأيضا فى قلب الضواحى. وهكذا فى واحدة من أفقر أحياء السين «سان دنيس» بإحدى المدن المبنية بالأسمنت المسلح حيث بدا أن المخدرات والبطالة هما مآل الشباب الوحيد فى المستقبل، وفى وسط أبراج خالية من السكان وعلى جدران أحد مساكن محدودى الدخل رفعت لافتة بين نافذتين كتب عليها هنا بيت اللوبافيتش. فقد قامت إحدى أسر افريقيا الشمالية بتحويل مسكنها إلى ملاذ روحى للنفوس الضالة. وهكذا حاول اتباع مدرسة حاباد وهؤلاء فى ظل الظروف السيئة توجيه الأطفال اليهود الضالين نحو فريضة دينية على أمل أن تبعدهم هذه التقوى عن الإنخراط فى الإجرام المتوقع.

وجدير بالذكر أن تدويل الحركة استلزم وجودها أيضا فى إسرائيل. وعلى الفور وعقب الحرب اقيمت فيما كان لايزال فلسطين البريطانية قرية كفار حاباد وهى قرية جميع سكانها من طائفة اللوبافيتش وقد اتسعت القرية، وهى تأوى سلسلة من الأكاديميات والمدارس الدينية المندرجة تحت شفاعة وهيمنة المعلم الدائمة ومبادئه. بل إنهم أقاموا صورة مطابقة بالحجم الطبيعى لمقر المعلم الكائن فى نيويورك على أمل واه فى إقناعه بالذهاب إلى إسرائيل. غير أنه رفض فى تصميم إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة أن تطأ قدمه أرض إسرائيل، خشية أن يضفى بحضوره طابع القدسية على دولة مغالية فى علمانيتها.

وعليه فان هذا التمسك بالتقاليد الحاسيدية المناهضة للصهيونية لم يمنع المعلم على الإطلاق من رغبته فى التدخل فى الجدل السياسى الإسرائيلى إذا استدعى الأمر، وهو ما أقدم عليه لأول مرة بشأن مشكلة اثارت ضيق المجتمع الأرثوذكسى ويمكن تلخيصها فى السؤال التالى : من هو اليهودى؟ ففى يوم ٥ يوليو عام ١٩٥٠ صوت الكنيست على قانون «العودة»، ذلك المبدأ

الأساسى، الذى يبرر وجود إسرائيل : «فمن حق كل يهودى أن يهاجر إلى وطن الشعب الإسرائيلى التاريخى». فكان لابد إذن من تعريف اليهودى. عندئذ بدأت المشكلات، فقد أراد بن جوريون أن يعطى لمفهوم اليهودى أوسع تعريف ممكن، ونص على: أن أى شخص يعلن بحسن نية انه يهودى يتعين اعتباره يهوديا، ولن نطالبه بأى دليل آخر لإثبات هذه المسألة. ومعنى ذلك أنه لم يعر الأحزاب الدينية أى اعتبار وهكذا وعلى الفور خاضت تلك الأحزاب حربها على هذه القاعدة المتساهلة المطاطة التى خالفت فى إستهانة المبادئ الصارمة والتى لاتعتبر يهوديا الا الشخص الذى ولد من أم يهودية أو اعتنق تلك الديانة وفقا للشريعة اليهودية. وفى عام ١٩٧٠ فكرت الحكومة الإسرائيلية فى وضع حد لهذا الجدل فأدخلت التعديل التالى على قانون العودة» ويعد يهوديا كل شخص ولد من أم يهودية أو اعتنق الديانة اليهودية ولاينتمى لأية ديانة أخرى. ولاتزال هذه القاعدة الجديدة المعمول بها حتى الآن تثير حفيظة اليهود الأرثوذكس. لأن هذا التعريف الذى يتسم فى ظاهره بالورع يفتح الباب أمام جميع التيارات الإصلاحية: حيث ان إعتناق الديانة اليهودية المشار إليه لايتطلب أى ضمان عقائدى ويمكن لأى حاخام إذن أن يمارس طقوسه الدينية على طريقته وحسب درجة إلمامه بالدين. وعليه فقد قاد معلم لوبافيتش الذى ذعر لهذا التحرر حملة يطالب فيها المشرع بإضافة ثلاث كلمات : «يعد يهوديا كل من ولد من أم يهودية أو إعتنق الديانة اليهودية وفقا للحالاخا (وهى الشرائع المنظمة لحياة اليهود دينيا وإجتماعيا). وقد يكون من شأن هذه الكلمات الثلاث عدم الإعتراف بشرعية جميع المعابد الإصلاحية وهى مشكلة لاتستهدف إسرائيل فى الحقيقة، خاصة وأن هذا الإتجاه لايشكل إلا أقلية محدودة داخل هذا البلد، وان كانت تلك المشكلة تدخل فى صميم الجدل الداخلى فيما بين اليهود فى الولايات المتحدة حيث يعد التيار الإصلاحى واحدا من أكبر التيارات الطائفية. وعبثا احتج المعلم، إلا أن القانون ظل قائما ولم يتغير. إذ رفضت جميع الحكومات الإسرائيلية تحمل مسئولية حدوث إنقسام مع شريحة كبيرة من طائفة اليهود الأمريكيين .

وجدير بالذكر أن المعلم وجد موضوعا آخر للخلاف فى المشكلة الشائكة الخاصة بمستقبل الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى عام ١٩٦٧ . إذ اتخذ من الوجود اليهودى فى يهودا والسامرة مبدأ وعقيدة. والحقيقة أن المسئولين فى القدس تظاهروا فى فترة من الفترات بالانصات إليه. وقد قام بعض الوزراء فى حكومات مناحم بيجين وإسحاق شامير بجولة فى مركز اللوبافيتش الرئيسى الكائن فى ٧٧٠ إيسترن باركواى. وكان المعلم فى كل مرة يؤكد نظريته. وبنظرة أبوية وصوت مطمئن أخذ المعلم الذى نصب نفسه معلما لليهود على المستوى العالمى ومستشارا سريا لدولة إسرائيل يأمر ويفرض تعاليمه ومطالبه. ومن بروكلين أعلن المعلم إستعداده للحرب حتى آخر إسرائيلى.

وقد قال: « إنهم يتحدثون عن برنامج يستغرق خمسة أعوام ويطلق عليه اسم الحكم الذاتى أيا كان مضمونه أو طريقة عرضه فهذا لايهم». والواقع أن مثل تلك الأقوال تتعارض مع ذلك الخطر الذى اشارت إليه التوراة بوضوح والذى ينص على مايلى: «لاترحمهم (ويقصد بذلك الدول الأخرى). فمن المحظور إذن إعادة أى شبر من أرض إسرائيل» .

وهنا أيضا ضاع صوت معلم حركة حاباد فى أدراج الرياح. فرغم الخطب الكثيرة التى ترددت فى هذا الشأن، ورغم الإصرار على المطالبة بالضرورة الملحة بعدم التنازل عن أية قطعة أرض ولاحتى سيناء إلا أن مناحم بيجين - مع انه كان يريد أن يبدو قريبا من الفكر اللوبافيتشى - قام فى عام ١٩٧٩ بتوقيع الإتفاقيات هو وأنور السادات التى أعادت هذه المنطقة لمصر.

وهكذا وقع المعلم فى تناقض يصعب الخروج منه بسبب رغبته فى التأثير على مجرى السياسة الإسرائيلية وتمسكه فى نفس الوقت بالتقاليد الحاسيدية المناهضة للصهيونية. ولتبرير أقواله قام ببراعة بتحريك موضوع المشكلة مؤكدا أن ضرورة الإحتفاظ بالأراضى المحتلة لايمكن بالطبع أن يكون نابعا من مساندة ما لدولة بعيدة كل البعد عن الشريعة التوراتية وإنما من الحرص فقط على الحفاظ على حياة البشر. ويرى المعلم أن إعادة هذه الأراضى تعرض الشعب الإسرائيلى لخطر أشد من الإحتفاظ بها. وكان يؤكد لمن يريد الإستماع إليه انه تشاور بطريق مباشر وغير مباشر مع جماعة من القادة العسكريين فى هذا الشأن. وكانت وجهات نظرهم جميعا تطابق وجهة نظره. وبناء على هذا التأييد اشترك المعلم فى عام ١٩٨٨ فى حملة إنتخابية نشطة من أجل تشكيل الحزب الدينى أجودات إسرائيل، ودفع مليون دولار لصندوق هذا الحزب، ووعد الناخبين الذين سيصوتون لصالحه - على ورقة قام بتوقيعها - بمساندتهم. وكانت نتيجة هذه الانشطة التى تمت بسرعة أن ارتفع عدد نواب حزب أجودات إسرائيل من نائبين إلى خمسة نواب، مما أدى إلى إضعاف نفوذ المعلم شاس، تلك السلطة الدينية الأكيدة التى انفصلت أخيرا عن حزب أجودات إسرائيل لتؤسس حزبا آخر هو حزب ديجيل هاتوراه.

وجدير بالذكر أن الخلاف بين شترسون وشاس لم ينشأ فقط عن الصراع التقليدى بين المدرستين الحاسيدية والليتوانية وإنما أيضا من رغبة الحركتين فى الإستفادة من الإعتمادات التى منحتها دولة إسرائيل للمؤسسات الدينية. وفى عام ١٩٩٠ أيضا تدخل المعلم بطريق مباشر ونجح من خلال تعليماته إلى الأحزاب الدينية فى منعها من تشكيل أغلبية لصالح حكومة يسارية. وأخيرا وفى عام ١٩٩٦ أعلنت حركة حاباد رسميا تأييدها لمعسكر بنيامين نتنياهو، حيث اشتركت فى حملة إنتخابية لصالح المرشح الوحيد «المناسب لليهود»، وهى المسألة التى أذهلت جانبا كبيرا من الرأى العام خاصة وأن تلك الحملة قد أبعدت اليسار بالكامل وجميع العرب الإسرائيليين من المجتمع المحلى.

وبالتوازى مع مشـاركة حركة اللوبافيتش فى السـياسة تعرضت رسالتهـا للشطط المسيانى. والحقـيقة أن المعلم حين أعلن نهـاية العالم والخلاص اسـتطاع ان يبيح لنفسـه المشاركة في جـميع المعارك الإنتخـابية فى إسرائيل. ألم يكن من الضـرورى ـ إذن ـ أن يعلن قرب تجلى المسيًا وتهـيئة الساحة اليهودية لإستـقبال السيد المسيح؟ وتيسيرا لتحقيق تلك النبـوءة كان من الضرورى ـ بطبيعة الحال ـ الإهتمام بالبشرية البائسة وإطلاعهـا على طريق الحقيقة. وهكذا احتلت تلك الرؤية المسيانية مع مرور الأعوام، أولوية مطلقة تغطى على سائر الرؤى الأخرى.

ونظرا لأن مجىء السيد المسـيح كان وشيكا ، فقد أصبح اتباع لوبافيـتش فى جميع أرجاء العالم هم جنود الجيش المسيـانى الكبير وكان الهدف من أى عمل يتم هو التـعجيل بمجئ مخلص البشرية. وهكـذا شوهد المتدينون فى نيويورك أو لندن أو باريس أو حـتى فى مدريد أو فى جنيف بغزارة فى الأحيـاء اليهودية ويخصـون اليهود الذين لايهتـمون بالدين بالعودة إليه حـتى يمهد ذلك سرعة تجلى المسيح العظيم.

ومن بروكلين بدأ المعلم يقود جيـوشه من المؤمنين ويوجههم. وكان اتبـاعه الذين وفدوا من جميع أرجاء العالـم يطلبون إليه أن يرشدهـم إلى الطـريق، وكان بعضهم يتوسل اليه بالتصريح لهم بالزواج من الآنسة المرغوبة وكان المعلم يبت فى الأمر بقوة بإبداء موافقته أو رفضه، دون أن يعرف بالطبع الفتاة الشابة المقـصودة. وكانت أفواج من المتدينين تلتف حول شخـصية المعلم التى صارت شـخصـيـة أسطورية، وكـان كل من يقـتـرب منه أو يهـمس اليه بـكلمتين يـحظى بنظرة أو ربما بنصيـحة. . . وكـانوا يرنمون ويرقصـون أمام نظراته العطوفـة، وكان بايماءة حارمـة يشجع أتبـاعه الحاسيدين على تكوين دائرة. وكانوا يسعون للحصول على حمايته، ويرسلون عبر القارات مباركته فى هيئة قنينة نبيـذ مباركة أو قطعة حلوى مقدسة، وكانت كل قطرة نبـيذ تفرغ فى قنينة أخرى أو فتات حلوى توضع فوق قطعة حلوى أخرى تضاعف إلى مالانهاية بركة صلواته المقدسة.

وسرعان ماترددت روايات رائعة تذكر معجزاته التى تؤكـد فى مجملها مباركة الله للمعلم. ففى سن الخامسة وفى روسيا القيصرية انقذ مناحم الصغير الطائفة اليهودية فى منطقة نيكولايف من عملية إضطهاد رهيب : إذ أنه بأقواله المطمئنة وحبه أوقف طفل فى الثالثة من عمره عن البكاء كاد بصـراخه أن يجـذب الجنود الروس. . وكان عـبقـريا فى الرياضيـات والعلوم، وقد حـصل على شهادات متـخصصة عديدة من جامعـة السوربون. كما سمحت له تلك الخـبرة العميقة ـ حقـيقية كانت أم إفتـراضية ـ أن يعلن فى هدوء أن دراساته العلميـة تسمح له بالتأكيـد على ان العالـم نشأ بالفعل منذ خمسـة آلاف وسبعمائة عام كما تؤكـد التقاليد اليهودية. وقد أجاب مناحـيم شترسون على أحد أتباعـه عندما سأله عن معنى الأحفورات قـائلا: « إنه يمكننا أن نقبل فكرة أن الله خلق الاحفورات كما هى. إلا أننا لا نعرف لماذا خلق الله الاحفورات؟ ولماذا خلق الذرّة».

وعندما صار كهلا وقورا بلحيته البيضاء تجلى فى وسط صحراء سيناء لجندى إسرائيلى أسره المصريون في بداية حرب الغفران، وطمأنه مؤكدا له أنه سيعود عما قريب إلى بلده وقال: «إذا إستلزم الأمر فسوف آتى بنفسى لأخلصك». كان يتنبأ بالمستقبل ويقدم بعض الرسائل التى يتولى الزمن تفسيرها. فقد قال تلك العبارات الغامضة لإحدى الزائرات: «لا تقلقى على ابنتك». وبعد ذلك ببضعة أيام تواجدت الفتاة المشار إليها وهى طالبة فى إسرائيل فى المواقع التى انفجرت فيها قنبلة إرهابية، وتقول النبوءة ان شظايا القنبلة لم تصبها إلا بإصابات سطحية.

وجدير بالذكر أن التربة الحاسيدية زاخرة بالمعلمين ذوى القدرات الخارقة وتعتبر تصويرهم لسيرة حياة مناحيم شترسون الذاتية على هذا النحو الإعجازى إنعكاسا لطبيعة إيمانهم. فقد بدأت الأمور تسير بسرعة وتتغير منذ مطلع التسعينيات، فلم يكتف الحاسيدين بإنتظار ذلك المسيح المفترض الذى كانوا يحلمون به، بل انهم أعطوه صورة وشكلا واسما هو صورة وشكل واسم المعلم. وفى البداية سمح المعلم المسن فى هدوء لإتباعه أن يعتقدوا أن وجود المسيح ممثل فى شخصه على الأرض، ثم شجع هذا القول وشارك فيه. وسرعان مافقد القدرة على النطق، ولم يستطع توجيه رعيته، أو التدريس، عندئذ ساعد غيابه ،وصمته على كل التكهنات .

وقد بدأ هذا الفكر المسيانى يثير مخاوف سائر التيارات الأرثوذكسية الأخرى. ويروى أنه فى يوم من الأيام سأل أحد التلاميذ المعلم شاس عن أقرب ديانة للعقيدة اليهودية فأجابه حينذاك بلهجة مداعبة لاذعة قائلا: « إنها حركة حاباد» . وقد شرح المعلم ياشتر الإتجاه المسيانى لحركة لوبافيتش قائلا: «إن المعلم كان دائما رجلا حذرا، رجلا دقيق التعبير يفهم تماما معنى كل كلمة وآثارها وتفسيرها والصلات الممكنة بينها. فقبل عام ١٩٩٠ لم يسمح لأحد أن يتطرق لموضوع شخصية المسيا، ثم فجأة أصبح التطرق لهذه المسألة مباحا تماما، ولم يكتف فقط بأن يعتبروه المسيا بل شجعهم على نشر هذا الخبر. وأكد انه يجسد الجيل السابع مؤسس حركة حاباد. والواقع ان الجيل السابع فى التاريخ اليهودى ظل دائما الجيل المفضل، اذ جاء موسى فى الجيل السابع بعد ابراهيم. وقد قال المعلم أيضا إنه جاء ليعيد إيمان الناس بوجود الله بصفة نهائية على الأرض. ويساعد على تحقيق الخلاص. وهى عبارات بالغة الخطورة، وقد أكدت جميع المواعظ على مدى عامين ونصف العام على هذا المعنى. وحين نعلم أن المعلم كان يعظ كل يوم سبت تقريبا وكذلك أيام الأعياد والمناسبات اليهودية فلا يمكن أن نقول أن أفكار الحاسيديم إلتهبت من تلقاء نفسها أو أن الحاسيديم ابتدعوا فكرة المسيانية دون أساس. وظل عالم اللوبافيتش ينتظر أعواما عديدة ظهور ذلك الذى لقبه

أشد انصاره حماسا بالملك المسياً .وفى شهر يوليو عام ١٩٩٤ استبد الحزن والذعر والأسى بالحاسيديم بسبب وفاة المعلم. وتصور البعض انه سيبعث من بين الموتى، وسيظهر أمام العالم مدثر بكفنه الأبيض. وفى مقبرة كوينز وبينما كانوا يتأهبون لدفن جثمان المعلم الراحل، وقعت أمام اللحد مشاهد تنم عن اليأس، وعلت الصرخات وارتفع العويل اعتقادا بأن ساعة الخلاص قد أزفت وحانت الآن نهاية الأزمنة . . إلا أن هذا لم يحدث إذ وارى التراب جثمان الفقيد بلا رحمة.

ومنذ ذلك اليوم المشئوم لم يعد مقر المعلم الرسمى الكائن فى ٧٧٠ شارع إيسترن باركواى مليئا بالحيوية والحركة المعهودة فى عهده السابق. إذ توقفت رحلات الشارتر (الطيران العارض) التى كانت تنقل إلى نيويورك أسبوعيا أفواجا متواصلة من الأتباع الذين جاءوا من جميع أرجاء العالم. وعلى مسافة بضعة أمتار من المسكن الذى كان المعلم يستقبل فيما مضى أتباعه أغلق الفندق المخصص للزائرين المتدينين اليهود أبوابه. فقد كان هؤلاء الرجال منذ حوالى عشرة أعوام يتوقفون فى هذا المستشفى الذى أصبح مخصصا لإستقبال السياح، وأخيرا بدأت صورة المعلم المرسومة على سقف البهو تتشقق، كما أن طبقة من الأتربة غطت بشكل مؤسف الصور الورعة الموجودة فى الممرات، وتلفت الحجرات التى خلت من الزوار وكأننا فى يوم اشبه بيوم القيامة على مستوى كراون هيتس ذلك الحى من أحياء بروكلين الذى يقطنه اللوبافيتش. بيد أن الأمل ظل يخيم على الشوارع. وانتشرت صورة المعلم فى جميع واجهات المحال، واجهة المغسلة ومحل بيع الكتب وأخذت صانعة الخبز التى اصطبغ لون شعرها الأبيض بلون خبزها الذى تلون بلون القرفة أخذت تردد المعجزات التى انجزها المعلم وأقرت بأنها تتوجه الى مقر المقبرة المقدسة لتستمد منها القوة كلما ضاقت ذرعا بالحياة.

وعندئذ ظهر فى تلك الحركة التى فقدت سلطتها العليا اتجاهان: التيار المسيانى الذى أعلن قرب انبعاث المعلم، والتيار البراجماتى الذى انتهج أسلوبا معتدلا. وقد حاول حاييم نيسنبوم أن يدرج رحيل المعلم فى اطار أوسع إذ قال:

"إن موت المعلم كان تجربة قاسية للغاية، بيد أنه لم يشكك على الإطلاق فى انتظارنا للمسيًا. فهذا الانتظار هو أحد العناصر الأساسية فى العقيدة اليهودية، اذ كان قائما قبل حركة اللوبافيتش ولا يزال مستمرا. وعليه، فقد اكد المعلم كثيرا على وشوك تجليه، وهى رسالة خاصة اذ أعلن وشوك مجئ المسيًا، ثم رحل، فما سبب تعرضنا لتلك المحنة المزدوجة، الإنتظار والرحيل؟ نحن نعتقد أنه عندما بشرنا المعلم بكل هذا التأكيد بمجئ المسيًا، وطلب إلينا كثيرا أن نتهيأ لذلك وأن نبذل محاولة أخيرة من أجل تحقيق هذا الغرض، فذلك لأنه لم يعد هناك عمل كبير نقوم به فى هذا الصدد. وفيما يلى الرسالة التى ترددت طوال الأعوام الأخيرة:

«اطلبوا المسيًّا بصدق وسوف يأتى » فكل عمل إيجابى وكل وصية تتحقق تقرب مجىء المسيًّا، هذا ما يؤكده التلمود بالفعل. والحقيقة أن كثيرين اعتقدوا أن المعلم نفسه هو المسيًّا بيد أن حركة اللوبافيتش لم تؤيد أبدا تلك الفكرة. ذلك أن شخصية المسيًّا يجب أن تتفق مع بعض التعريفات المحددة التى ساقها ابن ميمونة المفسر الكبير فى القرن الثانى عشر، وبالفعل فقد توفرت فى المعلم بعض هذه المعايير، اذ كان من سلالة الملك داوود، وكرس حياته للديانة اليهودية وأكد التزامه بالتوراة وخاض حروبا لنصرة دين الله وحقق بعض الإنتصارات.. بيد أن ابن ميمونة أضاف أنه حتى ولو أن رجلا حقق كل هذه الأعمال، إلا أننا مازلنا حتى الآن غير متأكدين من طبيعة المسيانية. ولكى نتأكد منها يجب أن ننتظر حتى تنتهى تلك العملية، عندما يقوم بجمع الشعب اليهودى بالكامل فى إسرائيل ، ويعيد بناء المعبد الثالث. لكن هذه الخطوة الأخيرة للأسف لم تتحقق.

وجدير بالذكر أن المعلم باتشر كان أقل فطنة اذ زعم مثل معظم اللوبافيتش أن الحركة انقسمت بالفعل الى تيارين: تيار يمثله الذين بشروا بقرب قيامة المعلم، وتيار الذين ينتظرون مجيئه. ولكنهم لم يفصحوا عن رأيهم خشية وصفهم بالهوس.

إذ قال: "إنه عقب موت المعلم ظهرت طريقتان لتفسير الواقعة. فقد قال البعض إن العملية المسيانية بدأت وأن المعلم يمكن بالفعل أن يعود، أما الآخرون فلا يقولون شيئا، ويطأطئون رءوسهم، بل ويؤكدون أن المعلم لم يزعم أبدا أنه المسيًّا.. وأنا أعرفهم تماما ويمكننى أن أقول أن هؤلاء يعتقدون مايعتقده الأوائل، بيد انهم يخجلون التصريح بذلك، ويخشون الا يلقوا آذانا مصغية بشأن موضوعات أخرى. وأنا أعتقد تماما فى صحة أقوال المعلم، وأن العملية قد بدأت وأنا واثق تمام الثقة فى ذلك. ولتعتبرونى مجنونا وأنا مسئول عما أقول، فالناس العقلاء لايثيرون الإنتباه. "

هذا وتؤكد مجلة لجنة العمل من أجل المسيًّا "مجلة بيت ماخياح" التى صدرت فى شهر ابريل عام ١٩٩٥ فى احتفالها بمرور اربعة وتسعين عاما على ميلاد المعلم ـ الذى توفى قبلها بعام ـ تؤكد على صفحة الغلاف ثقتها العمياء فى مجئ المسيًّا قائلة: "إن بشائر الخلاص قد لاحت منذ ثلاثة أعوام عندما أدلى المعلم بتصريحات وتنبؤات واضحة فى هذا الصدد. أما الآن فنحن نمر بفترة من الإضرابات والتناقضات، وهذا هو السبب الذى يجعلنا نشعر بتراجع رهيب بعد رحيل المعلم. لكننا فى الحقيقة أوشكنا على مشاهدة تجلى المسيًّا الأخير الذى طالما انتظرته الأجيال السابقة:.

وقد صرح لى أحد يهود شمال افريقيا ينتمى الآن لحركة اللوبافيتش ويقيم فى اسرائيل قائلا أمام صورة المعلم:

"إننا لن نعرف اذا كان المعلم هو حقا المسيًا إلا يوم تجليه، بيد انه أعطانا صورة له وهذا هو المهم".

وهو القول الذى يثير احتجاج اكثر الحاخامات تسامحا، ذلك أن التقاليد والأعراف اليهودية كانت دائما تصر على تحريم عبادة الصورة، العبادة التى تعد الخطوة الأولى نحو الوثنية، أما المعلم إلياهو أوزان الذى ينتمى الى الاتجاه اللتوانى المعارض للوبافيتش فينتظر هو الآخر مجئ المسيًا، إلا أنه يرفض تحديد اسمه وقال:

"إن اللوبافيتش عولوا تماما على المعلم. ومن ثم هم لاينتظرون مجئ المسيًا. وانما ينتظرون عودة المعلم. وتلك نقطة الإنقسام الشديد بين اللوبافيتش وسائر اليهود الآخرين المتشددين، فلا يزال اللوبافيتش يعتقدون أن المعلم حى ويؤمنون بقيامته.. وهذا هو الفارق بيننا".

ومن جهة أخرى فان اللوبافيتش يعتقدون أن كل واقعة علامة تدل على قرب مجئ المسيًا فلا شك أن فضيحة الدماء الملوثة أو سقوط الشيوعية تؤكد بوضوح أن الأزمة المشار إليها قد جاءت. كما أن رجوع بعض الشباب الى الدين واندماجهم السريع فى المجتمع اليهودى يدل أيضا على قرب مجئ المسيًا.

وكثيرا ماسمعتهم يرددون: إن "الجيمارا" (أحكام الشريعة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية) تصف ماسيجرى من أحداث إبان فترة المسيانية، فقد حدثونا عن وقوع أزمة اقتصادية، وانتشار الصلف تدريجا، وانتصار الكذابين والغشاشين ونحن نعتقد اننا نعيش كل يوم هذه الظروف.

ويستند الحاسيديون الذين اعلنوا صراحة انتظارهم لقيامة المعلم الى تقاليد متصوفة تقول إن كبار الحكماء لايموتون أبدا، بل إن أجسادهم بعد دفنها لا تتحلل وانما تظل حية فى صورة ما. وتروى الجيمارا أنه فى فقرة الكيتوبوت أن المعلم هاكادوش معلم الميشفا كان بعد أعوام طوال من دفنه يخرج مساء كل يوم جمعة من قبره متوجها الى أسرته لمباركة الخبز والنبيذ استهلالا بيوم السبت المقدس. وكان يرتدى رداء العيد ويأكل ويشرب مع زوجته وابنائه ثم يعود الى مقبرته .. وقد ناقش المعلقون هذا الموضوع باستفاضة ، إلا أنهم لم يشككوا فى زيارة المعلم هاكاروش كل أسبوع لأسرته ، وقد حاولوا فقط أن يتبينوا ما اذا كانت أى صلاة يتلوها المتوفى لها أهميتها بالنسبة للأحياء .

إن المعلم نفسه قد تحدث مرارا عن احتمال قيامة الحكماء الكبار ، ورد بذلك مقدما على المتشككين بقوله :

فرغم أن ترتيب الأحداث قد ورد على النحو التالى : مجئ المسيًا واعادة بناءالمعبد ، ثم تجمع اليهود من السبى ، وأخيرا قيامة الأموات ، إلا أنه من المؤكد أيضا أن قيامة بعض الشخصيات الخارقة قد حدثت فى الماضى وسوف تحدث حتى قبل عملية الخلاص .

والحقيقة أن الدعوة التى قام به اللوبافيتش فى الدوائر اليهودية فيما مضى قد اتخذت صورا عديدة . فقد جاء وقت كنا نراهم فى كل مكان ، حتى بلغ بهم الأمر الى أنهم كانوا يدقون على ابواب مساكن أسر تحمل اسما يهوديا لحثهم على الإلتزام بفرائض الدين . وكانت سيارات نقل صغيرة تسمى بقواقل الإيمان تقوم بنقل بعض الكتب والمناسك الى الأحياء والمدن التى يكثر فيها عدد اليهود البعيدين عن طرق الدين ، أما اليوم فان هذه الأعمال تتم دون مشقة وأصوات اللوبافيتش التى مازلنا نسمعها فى اسرائيل والولايات المتحدة تنطق باللعنات والوعيد بصفة خاصة .

ويقر حاييم نيسنبوم بأن وحدة الحركة تحققت على يد المعلم ، وكان من الأدوار التى قام بها هو تشجيعه المستمر لتلك الوحدة ، أما اليوم وبحكم الظروف فلم يعد هذا التشجيع موجودا . . فلدينا تعليمات واضحة بالأعمال التى طلب المعلم القيام بها على المدى الطويل ، بيد أنه لم تعد هناك افكار جديدة ولا تشجيعات ، ومن ثم يتعين علينا أن نتوصل الى أسلوب جديد للعمل . ففى نيويورك تأسس هيكل ادارى بحت بهدف ادارة الحركة ومؤسساتها وأموالها . الواقع ان هناك اتجاها متزايدا نحو استقلال كل فرع ذاتيا ، خاصة وان مصدر الإلهام الرئيسى لم يعد موجودا . فما هو الحل النهائى الذى يتعين الوصول اليه ؟ إنه استمرار الأمل فى مجئ المسيًا .

وجدير بالذكر أن التيارين اللذين انقسم اليهما مجتمع اللوبافيتش سوف يشتد الخلاف بينهما مستقبلا ، خاصة وأنه لاتوجد أية سلطة مفوضة لحسم الموقف بين المسيانيين والبراجماتيين . فالإنقسام قائم بينهما فيما يبدو حول شخصية المسيًا بل وأيضا - وربما وبصفة خاصة - حول الخط السياسى الذى يتعين انتهاجه . ومن الواضح ان المسيًانيين يؤيدون بشدة اكثر الإتجاهات تشددا فى اليمين الإسرائيلى ، وهم على استعداد للإفراط فى استخدام العنف ، أما البراجماتيون فيريدون فقط الاستمرار فى الصلاة والرقص وفقا للتقاليد الحاسيدية ، ولايبدون آراءهم بشأن ملابسات السياسة الإسرائيلية ، حتى عندما يلقى باحد حاخامات اللوبافيتش فى السجن فى تل ابيب . . وهكذا ينبذ حاييم نيسنبوم الذى يجسد التيار البراجماتى صفة التشدد ويقول :

عندما نتحدث عن التطرف تجول بخاطرنا على الفور ايران الخمينى ، أى تلك الرغبة فى الإستيلاء على السلطة بشتى الوسائل وباسم الدين . وهذه الإستراتيجية لم تكن أبدا من ضمن أهداف حركة اللوبافيتش ، فنحن لانتطلع الى الإستيلاء على السلطة فى أى مكان ولا حتى فى

اسرائيل . الواقع أننا اليوم نطلق صفة المتطرفين على الجماعات التى تطبق الشعائر بحذافيرها . . تراه نوعا من الجرم الظاهرى الذى بدأ يستقر ؟ الواقع أن حركة اللوبافيتش ليست متطرفة ويجوز لى أن أقول أنها حركة « أصولية » ، إذ نريد أن نلتزم بكل وصايا التوراة ، وهذا هو اختصاص كل رجل دين يهودى ، فما الفارق بيننا وبين حاخام فرنسا الأكبر وما الذى يجعله أقل تطرفا منا ؟ إنه يضع قبعة مثلنا وله لحية . . لكننا نعتقد أن هذا الأمر مقبول بلاشك بالنسبة لأى حاخام باعتباره نوعا من الإلتزام المهنى ، أما بالنسبة لأى يهودى من القاعدة فهذا يعد دليلا واضحا على التطرف وليس الحقيقة ان التطرف لايتفق مع العقيدة اليهودية خاصة وأنه يعد محاولة للتعسف ورغبة فى وضع الدين فى خدمة السياسة ، والواقع ان حركة اللوبافيتش لم تنتهج هذا الأسلوب أبدا :

وهو الرأى الذى لم يؤيده ايسمار شورش عميد كلية اللاهوت اليهودية الأمريكية . حيث أدان تسلط المسيانية خلال أحد الإجتماعات بنيويورك إذ قال :

إن السبب العميق وراء اغتيال رابين لايتمثل فى أى حديث دينى ولا فى الأرثوذكسية دائما يتمثل فى المسيانية التى راجت ، غداة حرب الأيام الستة رواجا هائلا بقيادة حركتى اللوبافيتش وجوش آمونيم . فلاشك أن مسيرة المسيانية نحو الخلاص التى تولدت عن التمسك الجنونى بقدسية الأرض تحول دون ردها على الإطلاق . ومن ثم أصبحت الهالاخا (قواعد لتنظيم الحياة اليومية) أسمى من حقوق الإنسان كما اصبحت العقيدة اليهودية تتعارض مع الديمقراطية .

ولم يعبأ المسيانيون فى حركة لوبافيتش بهذه الانتقادات واستمروا فى نشر تلك الرسالة المتشددة ، وبدأوا يؤيدون الاتجاهات المتطرفة فى المجتمع اليهودى ، لأن العالم أصبح فى حاجة الى تغيير . وسرعان ما نشر المعلم باشتر بعد اغتيال اسحاق رابين فى صحيفة الوقائع اليهودية اكتواليتيه جويف » صفحة دعائية مدفوعة وقام فيها بتحليل عملية الإغتيال ونتائجها قائلا : « إن المتهمين تعرضوا على الفور لهجوم الجمهور : وهم الأحزاب اليمينية وبصفة خاصة المتدينين . وأشارت جميع وسائل الإعلام فى العالم خلال فترة تتراوح مابين أسبوعين الى ثلاثة اسابيع الى مؤامرة دينية يمينية دبرتها المدارس الحاخامية . . وقد ساعد هذا الجو من الذعر شيمون بيريز الذى حل محله على الحصول على أغلبية معقولة للتعجيل بتنفيذ خطة التنازلات . وعليه أعيدت الأراض الى منظمة التحرير الفلسطينية بسرعة لم يسبق لها مثيل . فمن المستفيد - إذن - من تلك الجريمة ؟ »

وفى اطار نفس الفكرة لم يتردد المعلم باشتر فى أن يجعل من باروخ جولدشتاين بطل المجتمع اليهودى . فقال إنه يعرف الرواية الحقيقية لهذا المجنون الذى اطلق النيران فى مقبرة الآباء (المسجد الإبراهيمى) : وهى انه كان يجرى الإعداد لمذبحة دبرها بعض المتطرفين العرب من أجل

اغتيال اربعمائة وخمسين يهوديا فى المنطقة . . فهرع جولدتشاين الذى كان قد علم بمحض الصدفة بهذه المؤامرة إلى أقرب قسم شرطة ، إلا أن رجـال الشرطة ردوا عليه بانه ليس فى امكانهم القيام بأى عمل ، وانفجر أحدهم ضاحكا بقوله : « ما دمت طبيبا فانه يمكنك معالجة المصابين » .

عندئذ حمل جولدتشاين بندقيته واتجه الى مـسجد الخليل وأطلق النيران على الجماهير وهى ساجدة للصلاة « لإنقاذ اشقائه » .

ومن المؤكد أن الأصوات المتعصبة دائما مايكون تأثيرها أشد ، بيد أن حركة اللوبافيتش التى فقدت قيادتها منذ عامين كان لابد وان تنحرف نحـو التطرف . والحقيقة أن التيار المسيانى ازداد قوة مع مرور الوقت خـاصة وأنه لم يتم تعيين مـعلم جديد ، وهو ماوجـد فيه هذا التيـار دليلا على صحة انتظاره لقيامـة معلمه . ومن جهة أخرى فقد أصبح من الصعب على التـيار البراجماتى أن يؤكد رسميا موت المعلم بصفة نهائيـة بتكريس معلم جديد . ولاشك أنها مشكلة من المتعذر حلها خاصة وأن التقليد الحاسـيدى يقضى بأن يحل ابن المعلم محل المعلم الراحل أو ان يعلن المعلم قبل موته اسم خليفته. الا ان مناحيم شنيرسون لم يكن له أبناء كما أنه لم يعين أبدا أى خليفة روحى.

وفى كفر حاباد أكـد لى هيلينا دون كلل وبعبارات متحمـسة : ان المعلم لم يمت ، وكل ما هناك أنه رحل عن أنظارنا التى فقدت القدرة على الرؤية . الا أن المعلم لم يمت .

ولتزيدنى اقتناعا ، روت لى تلك الرواية التى كانت دوائر اللوبافيتش ترددها من قبيل العزاء : « انه فى الليلة التى رحل فـيها المـعلم عن أنظارنا تقدم رجل بالقـرب من مقبـرة والد المعلم فى مكان ما فى أقـاصى أطراف روسيا . وطلب الرجل المجـهول الى الحارس أن يفتح له باب المقـبرة وصلي على الشاهد . . وفى اليـوم التالى ذهب الحاسيديم الذين تأثروا لخـبر موت المعلم فى نفس المكان البعـيد فى أطراف الفيـافى وطلبوا أن يسمح لهم أيضـا بدخول المقبرة . وقـالوا إنهم جاءوا للصلاة على مـقبرة والد المعلم ، وتأكـيدا لأقوالهم قدمـوا صورة للمعلم . عندئذ صـاح الحارس قائلا :

« إننى أعرف هذا الرجل ، فـقد حضـر الى هذا المكان الليلة السابقـة ، وظل يصلى بضع ساعات قبل رحيله دون أن يلفظ بكلمة واحدة » . .

الفصل السابع

الكلاشينكوف ونير العقيدة

أو المتطرفون الأمريكيون

أخذ الشباب الذين وضعوا ببريهات زرقاء فوق رءوسهم وارتدوا تى شيرتات رسم عليها مسدس يتوسط نجمة داود يتدربون فى أطراف مدينة نيويورك. وبدأت طلقات نارية تمزق الصمت فقد اخذت مجموعة منهم تتدرب على اطلاق النيران، فى حين كانت مجموعة أخرى تتابع باهتمام تعليمات مدربها فى الكاراتيه. فهكذا تتدرب قوات منظمة الدفاع اليهودية فى عطلة نهاية الأسبوع برغبة شديدة فى اثارة رعب النازين ذوى الرءوس المحلوقة والإسلامين الملتحين. وقد أثبتوا شجاعة حقيقية وأحيانا ماكانوا يتماثلون بالشباب الصغير الأبيض. وفى شهر فبراير عام ١٩٩٦ لم يترددوا فى مساندة مجموعات الزنوج ـ كلها مسلحة ـ فى اشاعة البلبلة فى اجتماع عقدته جماعة كوكلوكس كلان المتطرفة فى فلوريدا.

ويقول موردخاى ليفى رئيس التنظيم انه سئم قادة الطوائف، وجبنهم واحاديثهم المعتدلة ومجاملاتهم. ففى اعتقاده أن وقت المراوغة قد ولى وحان وقت استخدام القوة خاصة وأن العالم يسرع نحو النهاية. إن النازية الجديدة تستشرى فى أمريكا ازاء لامبالاة الجميع، كما اعلنت الحكومات الإسرائيلية المتتالية ـ بصورة سافرة الى حد ما ـ استعدادها لتصفية بعض الأراضى اليهودية لتسليمها للعرب.

يبدو ـ اذن ـ أن منظمة الدفاع اليهودية هى الخليفة المباشر لرابطة الدفاع اليهودية التى أنشأها الحاخام مائير كاهانا عام ١٩٦٨، وذلك فى تمسكها الجنونى بفكرة الدفاع عن الذات وحديثها الصهيونى المتطرف الذى ينادى بدولة اسرائيل الكبرى. وهى الفترة التى اكتشف فيها أشد الزنوج الأمريكيين تطرفاً هويتهم من خلال الاتجاه الراديكالى للفهود السود، الفترة التى لم يتردد فيها زعماء تلك الحركات فى اذكاء العنف المعادى للسامية. وكان رد كاهانا بأنه وعد بالرد على الضربة بالضربة. وعندئذ تجمع بعض الشباب ـ غالباً ممن ينحدرون من آباء نجوا من عمليات الإبادة ـ تحت شعار « لن يتكرر هذا أبداً ». كلمات اندرجت فى اطار استمرارية تاريخية والقطيعة مع النهج القديم فى نفس الوقت، بيد أن الحركة ما كان يمكن أن تعرف هذا المصير المجيد الذى عرفته لو لم تظل سوى مجموعة تتشدق بالشجاعة مصممة على توجيه الضربة الى مثيرى الإضطرابات الزنوج. فسرعان ما وجد مائير كاهانا فى النضال من أجل حرية يهود الاتحاد السوفيتى موضوعاً اكثر أهمية. وقد جعلت بعض الشبيبة المتحمسة من هذه القضية الهدف الرئيسى للمجتمع اليهودى فى

الستينيات. ولما كان كاهانا وحركته يرفضان النضال المعتدل للمنظمات الأخرى وينبذان المظاهرات والمؤتمرات فقد تعقبا جميع البعثات التمثيلية السوفيتية فى الأراضى الأمريكية. وتوسعا فى نشاط ارهابى معتدل تمثلت وسائل عمله فى بلبلة الفرق الفنية القادمة من الشرق، واطلاق القنابل الحارقة على سيارات الدبلوماسيين، ونهب مقار أعمالهم، واحتلال مكاتبهم، والدعوة الى مقاطعتهم. وهى الاستفزازات التى اصطحبتها بعض المآسى : فبعد إلقاء قنبلة مسيلة للدموع فى أوبرا المتروبوليتان التى كانت تقدم فيها عروض لباليه مويزيف ألقى القبض على شاب فى الحادية والعشرين من عمره تم الوشاية به وعندما شعر بأنه ستفرض عليه عقوبة السجن لمدة عشرين عاما انتحر قبل بدء محاكمته.

وقد كان هناك شعار آخر لكاهانا الى جانب شعار إطلاق سراح اليهود السوفييت تمثل فى إلتزامه بالعمل من أجل ارساء حكومة ثيوقراطية فى القدس. وقد دفعته صهيونيته الى مغادرة الولايات المتحدة فى عام ١٩٧١ من أجل الإقامة فى اسرائيل حيث كون رابطة الدفاع عن اليهود ثم شكل حزباً سياسياً، بيد أنه انتظر ثلاثة عشر عاما قبل أن ينتخب فى الكنيست.

والواقع أن تعاليم هذا الحاخام إلتقت مع عدة ظواهر راسخة بشدة داخل المجتمع فى الولايات المتحدة. أولاً فى مواجهة العلاقات الصعبة المتأزمة التى تصل أحياناً الى درجة العنف بين اليهود والزنوج والبورتوريكيين أتت تعاليمه باجابة الدفاع الذاتى. وفى قلب قطاعات مثل قطاع بروكلين التى تعيش فيه جنباً الى جنب الطوائف العرقية المختلفة نجح فى فرض احترام اليهودى. ثم يتبين المجتمع اليهودى الأمريكى عندئذ عمليات الإبادة التى تعرض لها اليهود والتى أغفلها طويلاً، ومع هذا الاكتشاف تجلى شعوره بالذنب. وفى الوقت الذى تكشفت فيه فظاعة النازية تبين الشباب اليهودى فى الولايات المتحدة أن المجتمع اليهودى وقياداته غالباً ما ظلوا صامتين غير مبالين، عندئذ فكر الجيل الجديد فى اصلاح هذا الخطأ بعزمه على مكافحة جميع صور معاداة السامية بالقوة، ومن ثم كان شعار « عدم تكرار ذلك أبداً » هو الإجابة الكاملة على هذا المبدأ المثالى. وأخيراً وهى مسألة هامة لفهم استمرار تعاليم كاهانا فى أمريكا، وهى أن حماس الحاخام العنصرى المعادى للعرب لم ينم فى نيويورك ولكن فى اسرائيل اعتباراًمن عام ١٩٨٠ فقط. ذلك أن الأمريكيين أبوا ألا يتذكروا الا ذلك المعلم الكاريزماتى الذى يلقن الشباب حب المجتمع اليهودى.

وجدير بالذكر أن الحركة الكاهانية التى ضعفت بالفعل بسبب غياب رئيسها الذى رحل الى اسرئيل ليحقق مطامعه السياسية تفتتت تماما بعد اغتيال رئيسها فى عام ١٩٩٠. فقد ذهب عدد كبير من أعضائها للنضال فى مناطق أخرى، وفى الوقت الذى اراد فيه بعضهم استمرار الرابطة أيد البعض الآخر بنيامين كاهانا ـ الإبن ـ فى حركة جديدة هى حركة كاهانا شاى.

وسرعان ما اعتبرت حركة كاهانا شاى من أعنف الجماعات الصغيرة المتطرفة واكثرها تشدداً، ففى ليلة يوم ٢٦ فبراير عام ١٩٩٢ انفجرت قنبلة بالقرب من البعثة السورية فى الأمم المتحدة مما أسفر عن بعض الخسائر المادية، فى الوقت الذى نزع فيه خبراء المفرقعات فتيل قنبلة أخرى وضعت فى أحد صناديق البريد جنوب مانهاتن. فقد وجد المحققون فى هذا المكان الرسالة التالية : « اطلقوا سراح اليهود السوريين ». وانكر بنيامين كاهانا اية مسئولية عن اعمال العنف هذه، بيد أنه أدلى فى اليوم التالى لصحيفة نيويورك تايمز بالتصريح التالى :

« نحن نأمل فى أن تكون تلك الحادثة بمثابة انذار لسوريا وللإرهابيين الذين تساندهم سوريا، فسوف يدركون ان يد الإنتقام اليهودية يمكن أن تنالهم ».

ومن أجل تشكيل صفوة حركته قام كاهانا بتنظيم دورات تدريبية شبه عسكرية خصصت افضل مجنديها لإعداد قوات جديدة فى جميع أرجاء امريكا واسرائيل. وقد اشارت صحيفة معاريف الإسرائيلية اليومية تقول إن أحد معسكرات التدريب هذه توجد فى جبال كاتسكيل فى منطقة نيويورك حيث شارك مائة وعشرون شابا من الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا فى تدريبات بالذخيرة الحية بالكلاشينكوف. كما تلقوا دروسا فى حرب العصابات بالمدن وفى مكافحة الإرهاب واستخدام المفرقعات وهى الدروس التى اصطحبتها عمليات الشحن بالمفاهيم الأيديولوجية ودروسا فى اللغة العبرية.

هذا وقد صرح ميخائيل جوزوفسكى الزعيم الأمريكى لحركة كاهانا شاى حينذاك لأحد الصحفيين الإسرائيليين بأن حركته تحظى بمساندة ثمانية آلاف يهودى فى جميع أرجاء الولايات المتحدة. وهو رقم بالطبع خيالى ـ حيث تعتقد السلطات الرسمية أن حركة كاهانا شاى لاتضم اكثر من مائة وخمسين عضوا - الاأن هذا الرقم ينتقص فى الحقيقة من عدد المتعاطفين اذ أن بنيامين كاهانا تمكن خلال جولة لم تستغرق سوى ثلاثة أسابيع من جمع مبلغ يقدر بمائتين وخمسين ألف دولار (أى حوالى مليون ومائتين وخمسين ألف فرنك) من أجل نشاط حركته.

ومن المؤكد أن اولئك الذين ساهموا بأموالهم فى صندوق ابن كاهانا لم يؤيدوا جميعا فلسفة الحركة العدوانية، وانما أعربوا بصفة خاصة عن مساندتهم السياسية للتوسع فى مستوطنات يهودا والسامرة وبصفة خاصة فى معهد جاراف مائير الدينى، تلك المدرسة التلمودية فى مستوطنة تابواه والتى افتتحت تخليداً لذكرى الحاخام الذى اغتيل.

ذلك أن الهدف من معركة الكاهانيين قد تغير، فلم تعد الطوائف اليهودية المضطهدة موجودة تقريبا، وتحول الهدف الرئيسى لنشاط اولئك المتطرفين اليوم داخل اسرائيل. وهكذا بدأ المتعصبون يترصدون لجميع أنصار عملية السلام يهود وعرب على حد سواء، ففى يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٩٣ تم القبض على الحاخام ابراهام توليرانو، الكاهانى المتشدد عند وصوله الى مطار

تل أبيب. اذ كان يحمل بين امتعته عند قدومه من نيويورك ترسانة مذهلة من الأسلحة : منها أسلحة كاتمة للصوت، وتليسكوبات، ومعدات لصنع طلقات البنادق وكتيبات لتعليم استخدام المفرقعات.

وهكذا أصبح الدبلوماسيون داخل امريكا نفسها فى خطر، ففى أحد المعابد اليهودية ألقى المتطرفون من اتباع كاهانا شاى بيضاً فاسداً على السفير ايتامار رابينوفيتش وحاولوا التهجم عليه بالضرب. اما كوليت افيتال القنصل العام فى نيويورك فقد تعرضت للتهديد التالى من جانبهم «سوف نقتلك أيتها العاهرة ».

وبعد ظهر يوم ٥ يناير عام ١٩٩٤ أمكن فى الوقت المناسب نزع فتيل احدى القنابل التى وضعت فى أحد مبانى نيويورك وهو العنوان الذى تقع فيه بضع منظمات يهودية يسارية، بيد أن قنبلة أخرى وضعت على مقربة من مبنى آخر توجد فيه مكاتب صندوق « نيو اسرائيل فاوند » - وهى جمعية تقوم بجمع الأموال من أجل اسرائيل - انفجرت دون أن تسفر عن أية اصابات لحسن الحظ. وقد أشارت بعض المنشورات التى وجدت فى هذا المكان الى قرب قيام «حرب أهلية يهودية» وصرحت بأن الوقت قد حان « لاراقة الدماء فى اسرائيل ». ورغم أن كاهانا شاى لم يعلن مسئوليته عن الأعمال الإرهابية هذه، الا ان جوزوفسكى قد أقر قائلاً :

« اننا لا ندين اولئك الذين استهدفوا المجموعات اليهودية التى تسببت فى رأينا فى موت عدد كبير من اليهود على يد ارهابيين عرب . . ولكن اذا استلزم الأمر استخدام العنف لمنع تدمير اسرائيل فسوف نفعل ».

وبعد فترة كرر جوزوفسكى خلال حديث تليفزيونى العبارات التى وردت فى المنشور الذى عثر عليه فى الأماكن التى وقعت فيها عمليات الاعتداء، وجه فيه الإنذار التالى :

« اسرائيل فى خطر لأن اليهود سيتقاتلون، وأقصد بذلك انه ستقوم حرب أهلية دامية ».

ومنذ ذلك الحين أدرجت حركة كاهانا شاى فى قائمة المنظمات الإرهابية التى تحظرها حكومة كلينتون . لكن هل يمكن أن يؤدى حلها رسمياً بالفعل الى القضاء على مخاطر نشوب الحرب الأهلية المعلقة ؟ وهل المتطرفون لن يندفعوا فى القيام باعمال عنف جديدة اذا ما انقسموا فى ممارسة الأنظمة السرية؟.

الواقع أن المجتمع اليهودى الأمريكى قد تم تنظيمه بصفة عامة فى الوقت الحالى، اذ شعر بالخوف من العنف العدوانى الذى تباشره تلك المجموعات الصغيرة، ونبذ بصفة نهائية حركة كاهانا شاى ورابطة الدفاع اليهودية ومنظمة الدفاع اليهودية. ولم تعد الجمعيات التى تتبنى آراء سياسية مماثلة لآراء هذه الحركات المتطرفة تتردد فى استدعاء قوات الشرطة لإقصاء هؤلاء الحلفاء الخطيرين

من المظاهرات. وعليه لم يعد فى مقدور هؤلاء الشباب الثائرين الذين تم تهميشهم، ونبذهم واستبعادهم الا أن يلعبوا دوراً ثانوياً لدى وسائل الإعلام التى لا تتطلع دائماً الا الى التقاط صور وافلام لأولئك الشباب الذين يرتدون « تى شيرتات » صفراء مطبوعا عليها قبضة يد على خلفية نجمة داود، تلك الشارة المتغطرسة لأتباع الحاخام كاهانا. الا أن صوت الكاهانيين لا يزال مسموعا. اذ ساعدت احدى المجلات الدورية مثل مجلة « جوين فويس » (الصوت اليهودى) وشبكة الانترنت ومنظمة جديدة يطلق عليها كارو (وهى مختصر لجنة مكافحة العنصرية والتفرقة) اولئك المناضلين على التعبير بقوة عن تصورهم للأضرار الناجمة عن الاتفاقات التى وقعتها اسرائيل مع السلطة الفلسطينية. كما أنهم من خلال وسائل إعلامهم اشادوا بشدة برجال الدين المتطرفين المسجونين فى السجون الإسرائيلية.

ولا شك أن الفكر الكاهانى يلتقى أيضاً حيث لا نتوقع أبداً : وذلك فى بعض المعاهد التلمودية فى بروكلين. فقد اعتقد حاخام أحد المعابد اليهودية المتطرفة فى عهد حكومة رابين فى ضرورة اضافة فقرة فى الصلاة اليهودية تناشد الله ان يحبط مؤامرة اولئك المدمرين المخربين الذين يريدون تمزيق هذا البلد الذى ورثناه من الله. ثم فى يونيو عام ١٩٩٥ أعلن الحاخام ابراهام هيشت صراحة أن الشريعة اليهودية تبيح اغتيال رئيس الوزراء رابين بسبب الخطر الذى تعرض له اليهود الآخرون نتيجة سياسة السلام التى ينتهجها. الا أنه أمام الضجة التى أثارها هذا الإعتقاد الجنونى داخل المجتمع الأورثوذكسى نفسه تراجع الحاخام عن تصريحاته ووجه رسالة اعتذار لإسحاق رابين. . وبعدها بشهر سقط رئيس الحكومة صريع رصاص أحد المتطرفين.

وقد عرفت جينيت تويزر الحاخام كاهان عن قرب وناضلت الى جانبه على مدى أعوام طويلة. وهى اليوم تشعر بالإحباط وتقول : « ماذا فى مقدورنا أن نفعل اذا كان شعبنا ينبذنا فى الوقت الذى نتعرض فيه لمخاطر جسيمة ؟ كل ما هنالك هو أننا نستطيع ان نكرر تحذيراتنا، بيد أن اليهود الأمريكيين مصممون على عدم الإستماع لآرائنا : فلم تعد تنظم أية أنشطة سواء لمحاربة معاداة السامية ولا لحماية اليهود، خاصة وأن الأمر يستلزم أموالا ومكتبا، وهاتفا، وكومبيوترا. . والناس يخاطبوننا عندما يحتاجون الى مساعدتنا، وعندما يتعرضون للتفرقة، بيد أنهم غير مستعدين لمساندتنا والحكومة الإسرائيلية هى التى تتلقى الأموال. ومع ذلك فكل هذه المؤسسات الرسمية لا تفعل شيئا من أجل القضية اليهودية. فقد أصبحنا منبوذين من الجميع، ومع ذلك فنحن لسنا متعصبين. ورغم ما يقال فنحن لا نعبد الحاخام فقد كان بالنسبة لنا مثلما كان موسى ابان خروجه من مصر. وقد استفدنا كثيراً من كتبه، ونهجه الفكرى، وأسلوب تحليله لأحداث الحرب العالمية الثانية وبدأنا منذ ذلك الحين نتحفظ، اذ تعلمنا من الحاخام ألا نثق فى أحد. غير ان اليهود فى الولايات المتحدة يشعرون بأمان شديد، ولا يتخيلون أن يتعرضوا لأى خطر. ومع ذلك فالخطر مازال قائماً. ففى الجامعة حيث أعمل شهدت زنوجاً يلقون خطباً صريحة معادية للسامية أمام جمهور من الطلبة يزيد على الألف ».

فقد انتاب اليأس جانيت، لا لأن غالبية اليهود الأمريكيين لا يعتقدون فى الخطر المعادى للسامية فحسب، وانما لأنهم يقبلون أيضاً باستخفاف التنازل عن الأراضى اليهودية لتسليمها للفلسطينيين فتقول : « إن رابين كان خائنا، فقد باع بلد اسرائيل بشعبها وأرضها وتوراتها ولم يسفر انتخاب نتنياهو عن أى تغيير فى الموقف. خاصة وأن رئيس الوزراء الحالى رفض تماما التصدى بصورة حقيقية لعملية السلام، وكل ما فى الأمر هو انه ربما يستطيع تعطيلها. وهو لا يريد، شأنه شأن غيره الا أن يرضى عليه العالم أجمع، وأن يلقى بدوره ترحيباً فى البيت الأبيض. وقد أصاب كاهانا بالفعل حين قال إنه سيتعين عليهم فى يوم من الأيام أن يختاروا بينه وبين رابين وعرفات وقد اختار اليهود عرفات فهم يفضلون الإرهابيين على صوت أى نبى. وقد استولى العرب على مساحة تزيد على مساحة نصف اسرائيل تسمى بالأردن. بيد ان المنطق لا يتصور أن تنشىء الحكومة الإسرائيلية أية دولة عربية جديدة.

وجدير بالذكر أن الحركات المتطرفة فى امريكا وكذلك فى اسرائيل ضلت طريقها منذ أن سلبتها الكلمة مجموعات تتمتع بصفة تمثيلية أكبر، فقد أسس الحاخام « دافيد الجاز » فى عام ١٩٩٤ زعامة المؤتمر من أجل اسرائيل بهدف توحيد صفوف فصائل اليمين الصهيونى الصغيرة. وقد فسر النجاح الإعلامى الذى حققته حفنة من الكاهانيين بقوله : « إن الصحفيين ليس لديهم الوقت للاستماع الى حديث يستغرق ساعة، فمن الأيسر عليهم أن يتصيدوا العبارات العنيفة التى يدلى بها أعضاء رابطة الدفاع اليهودية. فقد قررنا استبعادهم. وأنا بالتأكيد أحبهم باعتبارهم يهوداً اذ أعلم انهم يحبون أرض اسرائيل، بيد انه يعوزهم النضج والتمييز. ومن المؤسف ان يعبروا عن كل هذا الحب بهذا القدر من الكراهية ».

ورغم زيه الكامل الأنيق ولحيته الرمادية التى تنم عن تقدم سنه ألا أن الحاخام « الجاز » يتحدث بأسلوب سياسى قريب من قلوب شباب ذوى « التى شيرتات » الصفراء المتطرفين.

الواقع أن نتنياهو سوف يكبح الى حد ما الجنون الذى ارسته الحكومة السابقة، دون اثارة اية اضطرابات. فلا يزال قطاع من الشعب الإسرائيلى يعتبر عمليات الاستيلاء على الأراضى خطأ. وهو لا يفهم علاقة الشعب اليهودى بأرضه. والحقيقة أن الفرد الذى لا تربطه صلة بالتقاليد الدينية اليهودية يفتقد المصادر الفكرية والروحية والنفسية والعاطفية لفهم الأسباب التى تؤكد أن الأرض المقدسة ملك اليهود. فهناك لدى اليسار رغبة فى انكار التاريخ، والدين، بل وأفكار هويته نفسها. . فهو يبحث أشق مبدأ للعدالة ويعتقد أنه توصل اليه باعطاء دولة للعرب. فهو يشعر بفقدان هويته وانعزاله التام عن الحلم اليهودى اذ يتطلع للعيش فى اطار أمن بلا حدود وبلا تقاليد.

ثم ثار بعد ذلك الحاخام « الجاز » - الحاخام الأرجنتينى المقيم فى نيويورك - على جميع الإسرائيليين الموجودين فى الخارج بقوله : « اننى أشعر بالأسى اذ أرى أن عدداً كبيراً من الإسرائيليين يفضلون اليوم البقاء فى نيويورك. فالمكسيكيون على سبيل المثال لديهم مشكلات كثيرة أيضاً، ومشكلات رهيبة أكثر من مشكلات الإسرائيليين الا أنهم لا يريدون مغادرة بلادهم ويفخرون بأصولهم. وهذا الشعور للأسف غير موجود لدى الإسرائيليين اليساريين. فهى مشكلة انقطاع عن الجذور جعلتهم لا يدركون العلاقة بين الشعب اليهودى وأرضه. وقد أدى هذا الإنكار للتاريخ الى ما يطلق عليه باللغة الإلمانية « لوفتمينش » أى فرد الذى لا أرض ولا جذور له. والواقع أن عدداً كبيراً من اليهود فى النهاية لا يختلفون عن اليهود الأوروبيين فى فترة ما قبل الحرب الذين يفكرون بعقلية السبى والاندماج. فقد قيل لهم ان اسرائيل هى اكثر دول العالم يهودية، الا أنهم أبوا أن يكونوا يهوداً ».

وجدير بالذكر أن الدكتور جوزيف فراجير يرأس جمعية من أجل اعادة بناء القدس. فهذا الطبيب المتحمس يؤمن ايمانا شديداً بدوره كحارس لتقاليد الديانة اليهودية ومخلص القدس. فقد عقد مؤتمرات عديدة، وشارك فى جميع المظاهرات التى قامت فى نيويورك ضد اتفاقات السلام وبصوته الرخيم وهو يلصق فمه بمكبر الصوت ندد بالتنازل عن كل قطعة أرض مقدسة فى يهودا والسامرة، وختم كلماته بترتيل صلوات كى يستمع الله إلى احتجاجاته. وقد أوضح السبب الذى من أجله جعل القدس هى محور نشاطه فقال : « إن القدس هى مركز العالم، ومركز الإشعاع والقدس هى قلبنا النابض، ونحن نريد انقاذ هذا القلب، وانقاذ كل اسرائيل من الوجهة السياسية انطلاقا من القدس ».

ومن الواضح أن الدكتور فراجير لم يتحدث عن كاهانا وعن الشباب المتحمس فى رابطة الدفاع اليهودية، انما أراد أن يجسد مظهرا يتسم بالكرامة والمسئولية، وان كان قد خاطب فيما مضى شأنه شأن غيره من المتطرفين فى اليمين الدينى الصهيونى ود الرابطة، أما بعد اغتيال الحاخام فقد كتب هذه السطور الورعة على لوحة نشرت تكريما للزعيم الراحل يقول فيها : « لقد كنت رجلاً وديعا، تؤمن بآراء راسخة. مقداما جسورا. لا يضاهيك أى يهودى. وسوف يكون تأثيرك على قدرنا أكبر من تأثير رؤساء الوزراء وأعضاء الكنيسيت الذين حظروا نشاطك. وسوف تصير تعاليمك نبوءات ».

وهكذا لايزال الحاخام كاهانا يتمتع بتأثير شديد - بطريقة غير معلنة غالباً - لدى شريحة كبيرة من طائفة اليهود الأمريكيين. اذ اصيب مناضلو الحركة بالهرم وبدأوا يبحثون فى مكان آخر عن اعتراف اكرم من ذلك بأن عبروا عن هواجسهم القديمة بصورة منظمة. وفى نفس الوقت دل ضعف الحركة الكاهانية الواضح على التغييرات التى طرأت على المجتمع اليهودى الأمريكى :

حيث نضبت مصادر رابطة الدفاع اليهـودية، وتحولت المدارس - التى أنشأت جيلا يعلن انتماءه الى أصالة يهودية مـفتوحة على المدينة - الى مـؤسسات يهودية متطرفـة لايهتم تلاميذها بالسـياسة إلا قليلاً. وبالتوازى تولت الطـائفة الدينية اليهودية التى ارتفع عـددها ارتفاعا شديداً مقـاليد أمورها. وأصبحت اليوم، بعد زيادة عددها تتولى حماية نفـسها، سواء بواسطة شركات للحراسة، أو غالبا بتنظيم صفوفها وبتسلحها على النحـو الذى يسمح لها به التعديل الثانى الذى أدخل على الدستور الأمريكى.

وفى أحد أحياء بروكلين فى كراون هيتس، رفعت بعض الإعلانات الصغيرة كتبت حروفها باللون الأحمـر على جدران وأشـجار الشوارع المأهولة بالسكان الـيهود تحـذر الزائر المغرض : بأن الطائفة اليهودية تسهر على حـمايتها مجموعة متخصصة. وهو تحـذير له أهميته : فلا يزال اليهود فى هذا الحى يذكرون الإضطرابات العنيفة المعادية للسامية التى وقعت فى صيف عام ١٩٩١.. ففى شهر أغـسطس من هذا العام فقد احـد الحاسيديم السـيطرة على سيارته، ودهم بعنف طفـلاً زنجياً يناهز السابعـة من عمره فـقتله. فكان من شأن تلـك الحادثة المؤلمة أن ايقظت كراهيـة الزنوج ضد جيرانهم، وخـرجت من الشوارع القريبة جماهيـر مفعمة بمشـاعر الغضب وتقدمتْ متأهبـة لتمزق السائق الأرعن . . ووصلت سيارة اسعاف تابعة للطائفة اليهودية الى مكان الحادث فى الوقت الذى وصلت فيه سيارة البلدية، وحمل رجال الشرطة جثة الطفل وطلبوا الى سيارة الإسعاف اليهودية أن ترحل بسرعة مع سائق السيـارة اليهودى لحمايته من الجماهيـر وتهديدها. وفى الحال راجت شائعة بأن اليهود رفضوا انقاذ الطفل الزنجى، وفضلوا حماية اليهودى من أبناء ديانتهم.

وتفجر الموقف فى الحى. وظل حى كـراون هيتس مسرحاً لعمليات عـنف بشعة على مدى أربعة أيام. وهكـذا وقعت فى امريكا فى أواخـر هذا القرن امـام قوات البوليس العـاجزة مـشاهد لإضطرابات حقيـقية. فأخذ الزنوج يصـيحون : « الموت لليهود ». وهكـذا احترقت بعض المنازل وتعرض بعض المارة لعـمليات عنف، وانتـحرت امرأة بعـد نجاتها من مـعسكرات الموت بأن ألقت بنفسـها من نافذة مـسكنها، كمـا هاجم حوالى عشـرين شخصـا شاباً وطعنوه حتى لفظ أنفـاسه الأخيرة. واستيقظ المجتمع اليهودى وهو يتـرنح من أثر الصدمة. وعاب عدد كبير من اليهود على المسئولين الرسميين عن الطائفة اليهودية صمتهم وسلبـيتهم. وتشير بيث جيليسكى المدافعة باستماتة عن القضية اليهودية قائلـة : « لقد غل غليلى، ذلك أنه لا أحد من رجال الشرطة ولا من الطائفة اليهـودية تحرك طوال أيام الإضطرابات الأربعة لمعـاونة يهود بروكلين. وتيقظت ذكـريات طفولتى. فقد قيل لى حينذاك أنه إبان الحرب العالمية الثانية تم اغتيال بعض اليهود فى أوروبا دون أن يتحرك المجتمع اليهودى الأمريكى. . ويبدو وكأن الأحـداث تتكرر. فقد تعرض بعض اليهود للهجوم عند أبوابنا ولم يتحرك أحد ».

وأمام هول الصدمة التى احدثتها تلك الواقعة قامت بيث بتأسيس حركة تضامن النشاط اليهودى، وحاولت حفنة من أعضائها أن تتفهم سبب ما رفض الجميع معرفته على حد قول رئيسة هذه الحركة الا وهو نمو المعاداة للسامية. الواقع أن كراهية اليهود التى انحصرت حتى الآن داخل بعض الدوائر المغلقة قد أخذت أبعادا أوسع ولم تكن التصريحات الأخيرة التى أدلى بها مارلون براندو - حيث اكد أن هوليود يديرها اليهود - الا ظاهرة عارضة لحركة واسعة هزت أركان المجتمع الأمريكى وبصفة خاصة مجتمع الزنوج.

وجدير بالذكر أن الرجل الذى يثير مخاوف اليهود يدعى لويس فاراخان. ويؤكد هذا الزعيم الزنجى العنصرى أن اليهودية هى دين « حقير » وان اسرائيل دولة خارجة على القانون. ورغم أنه يمقت البيض دون استثناء، الا انه يستثنى هتلر « ذلك الرجل العظيم ». فجميع البيض يتآمرون ضد العنصر الزنجى، بيد أن اليهود هم محور تلك المؤامرة التى تسعى من خلال مرض الإيدز والمخدرات والفقر الى إبادة الزنوج وازالتهم من على ظهر البسيطة. ومن خلال منظمته «أمة الاسلام» ذكرنا فاراخان بشياطين عهد مالكولم العاشر واشار الى الخلاص عن طريق النضال العنيف. فقد ألهبت خطبه أحياء الزنوج المغلقة، وأكدت نشرة مجلة التايم التى صدرت فى فبرايرعام ١٩٩٥ ان ٦٣٪ من الزنوج الأمريكيين يعتقدون أن فاراخان يقول الحقيقة.

ومن الواضح أن بيث جيلينسكى لم تتردد أبدا فى التصدى لفاراخان أو أعوانه، ففى يناير عام ١٩٩٤ أعلنت الصحف عقد اجتماع واسع فى حارلم فى أحد المبانى العامة، اجتماع خصص للزنوج. ولا شك أن مخالفة القوانين التى تحارب التفرقة كانت واضحة، وعليه فقد قررت بيث جيلينسكى هذه المرأة البيضاء الذهاب لممارسة حقوقها المدنية بتوجهها فى تلك الأمسية لحضور هذا الإجتماع. بعد اخطار الصحفيين بالطبع. وفى تلك الأمسية شديدة البرد من شتاء نيويورك وجدت بيث نفسها فى حارلم بين جمهور يضم ستة عشر ألف زنجى. إلا أنه حظر عليها بالطبع دخول القاعة. كما أن رجال الأمن أبعدوا بعض الشىء الكاميرات التى جاءت لتصوير الحادثة.

وتقول بيث جيلينسكى «إنه لم يعد فى استطاعة فاراخان بفضل هذا العمل أن يعقد اجتماعات فى الأماكن العامة. وهو أمر شديد الأهمية، خاصة وأنه لا توجد مبان خاصة واسعة بالقدر الكاف لإستقبال جماهير عريضة. فقد أثبتت مدى خبث الزعيم الزنجى ولا يمكن تصديقه حين يزعم أنه يدافع عن الحريات ».

وفى مرة أخرى اتصل أحد طلبة جامعة لونج ايسلاند بحركة تضامن النشاط اليهودى لإبلاغها أن بعض المتحدثين الذين أوفدهم فاراخان قد وصلوا الى الحرم الجامعى . . وكانت ولا تزال هناك مدة أربع وعشرين ساعة للتصدى لهم بالرد. فما العمل ؟ استغاثت بيث ببعض الحاخامات وبعض الشخصيات ولم يقبل أى منهم أن يتحرك، فحاولت بيث استدعاء بعض الأساتذة والمنظمات الا أن أحدا لم يمد تعاونه.

وقالت بيث جيلينسكى فى تنهيدة :

« إن الدوائر المسئولة فى المجتمع اليهودى تدير ملايين الدولارات، وتضم منظمات أعضاؤها شخصيات بارزة ومع ذلك فهى لا تفعل شيئا، أما نحن فلدينا مكتب صغير، ويمكننا أن نفعل شيئا من خلاله. وقد توجهت الى الجامعة وبصحبتى حوالى خمسة عشر شخصا من المناضلين فى الحركة وقمنا بتعبئة الصحف المحلية والصحف اليهودية، وعندما بدأ المتحدثون يلقون خطبهم المعادية للسامية، أعربنا عن احتجاجنا بشدة .. وأخيرا طردنا. وفى هذا المثال بالذات اتضحت أهمية نشاطنا، إذ شعر الطلبة اليهود فى هذه الجامعة بأنهم يتمتعون بالمساندة، وقد أثبتنا اننا لا نخشى أن نتواجد بالفعل كلما استلزم الأمر ذلك، فقد ادرك ثوار منظمة « أمة الإسلام » ان شهودا من الخارج يستمعون الى اقوالهم. والأمر الذى يبعث على القلق فيما يتعلق بالمستقبل ان الجمهور الذى يتألف بالكامل من رجال قانون المستقبل كان يستمع بحماس للحديث العنصرى الذى يدلى به مثيرو الإضطرابات. وكلما كانت التصريحات معادية للسامية صفق الطلبة الزنوج ».

وترى بيث جيلينسكى أن المجتمع اليهودى الأمريكى ينقسم الى طرفين متعارضين تماما. فقد كان هناك من جهة من سمتهم بالديناصورات وهم الشخصيات الرسمية. وهم يستندون الى أسس وطيدة، ويديرون هياكل لها ثقلها ويعوزهم الحماس لإنجاح مشروعات كبرى، ونشاط الطائفة قد يكون بالنسبة لهم إما عملا وظيفيا، وإما فرصة لكسب شهرة. وفى المواجهة يوجد أعضاء الجماعات الصغيرة فى الصهيونية المتطرفة مثل رابطة الدفاع اليهودية، الا أن بيث غير واثقة من أن اولئك الثائرين لهم نفع بالنسبة للمجتمع اليهودى.

وتقول بيث « اننا اذا أرسلنا أناسا الى الشوارع يرفعون لافتات تنادى بقتل العرب، فاننا بفعلتنا هذه نكون قد قدمنا لأعدائنا أدلة لصالحهم على صينية من فضة وقضينا على قضيتنا. بل يجب علينا بالتالى أن نجد وسائل أخرى نثبت بها وجودنا. إن ما يقوله الناس فى هذه المجموعات الصغيرة له أهميته، فمن المؤكد أن هناك افكارا مفيدة يمكن أن نستخلصها منهم .. ومهمتى هى أن أقوم باستخلاص المفيد من هذه الرسائل واعادة تكييفها مع ظروفنا وتكوين صورة جديدة للزعامة زعامة، متحمسة وخلاقة ومسئولة. وانا اؤمن بشدة بالدفاع عن النفس. والحقيقة أن الدستور يصرح للمواطنين بحمل الأسلحة، ولم لا يكون لليهود نفس الحق الذى يتمتع به غيرهم من الأمريكيين ؟. من المؤكد انه ليس مطلوبا أن نصل الى حد استخدام العنف، بيد أنه لو كانت المنظمات اليهودية تقوم بعملها على النحو السليم لما ناقشنا هذه الأمور اليوم. والواقع ان مجموعتى التى يطلق عليها بصفة عامة إسم « رابطة الدفاع اليهودية الدفاع بعقلانية فاذا كنا نقصد بذلك اننا نملك الطاقة والحماس اللذين كانتا تملكهما فيما مضى رابطة الدفاع اليهودية فأنا إذن راضية ».

وجدير بالذكر أن الحماس الذى تستخدمه بيث جيلينسكى فى مكافحة معاداة السامية هو نفس الحماس الذى تستخدمه أيضا فى الدفاع عن تطرف اسرائيل فى ضم الأراضى. وهى تقود كلما اتيحت لها الفرصة جماعاتها الصغيرة للتظاهر أمام القنصلية الإسرائيلية أو أمام مقر الأمم المتحدة.

وتقول بيث : « إنه تم القبض على بعض اليهود بسبب آرائهم أو بسبب موقف الحكومة من آرائهم ! وقد شارك ممثلنا فى اسرائيل ـ وهو رجل محب للسلام ـ فى مظاهرة قامت عقب عملية اعتداء، الا أن رجال الشرطة قاموا بضربه بوحشية. وجدير بالذكر انه يتعين على اسرائيل أن تكون منارة للأمم ، ويتعين على الدولة ان تكون مثالاً للديمقراطية بحيث تقود دول المنطقة الأخرى الى الديمقراطية. ولا يجب عليها بسبب موقعها الجغرافى وسط انظمة ديكتاتورية ان تصبح بدورها نظاما ديكتاتوريا ».

ذلك أن الإنقسام بين اليهود يدور، مرة أخرى، حول المشكلة السياسية الإسرائيلية. ففى عام ١٩٤٨ وفى أحد المبانى التى تقع بالقرب من الشارع الخامس، وفى ظل ناطحات السحاب تم تجميع بعض الأسلحة والمؤن لإرسالها لدولة اسرائيل الناشئة بعد ميلادها مباشرة، أما اليوم فقد أصبح مقر المجلس الوطنى لدولة اسرائيل الناشئة مركزا لمعارضة عملية السلام ولأية محاولة للإنفتاح تقوم بها أية حكومة فى القدس . ويمارس هذا المجلس الذى يضم خمسة وعشرين الف عضو موزعين على مائة وخمسين جمعية يهودية أورثوذكسية فى الولايات المتحدة وكندا نفوذا شديدا على الطائفة اليهودية بالكامل. وقد طالب الحاخام بيساش ليرنر رئيس هذا التنظيم الوطنى باعتبار نشاطه السياسى شرعيا من الوجهة الدينية بقوله : « إن وجود اسرائيل له أهمية دائمة فى حياة الأورثوذكس اليهود الذين أمثلهم. فمن الذى يدرس فى المعاهد الدينية فى اسرائيل؟. ومن الذى يقيم فى يهودا والسامرة وفى مرتفعات الجولان؟ نحن اليهود الأورثوذكس. فنحن نرتبط ارتباطا شديدا باسرائيل، لذا فنحن لا نتصور لحظة واحدة أن نعيد يهودا والسامرة للفلسطينيين فاذا تمعنا فى نصوص التوراة وتشبعنا بها فسيكون من غير المتصور أن نوافق على رد أماكن مثل الخليل أوشيكيم. فى حين أننا بالتأكيد اذا اعتبرنا اسرائيل مركزا للأعمال مثل هونج كونج، فان كل شئ سيكون مقبولا، ويمكننا عندئذ أن نفعل ما نريد . . فنحن نعرف ما هو فى صالح اسرائيل اكثر من يهود اليسار الذين لا تربطهم أية صلة بالحقائق. فهؤلاء لا يعرفون من الديانة اليهودية سوى الجانب النظرى بدون إلتزام لا بالصلوات ولا بالطقوس. ولحسن الحظ فان بنيامين نتنياهو يتباطأ فى عملية السلام، ويطالب عرفات بمزيد من الضمانات والأمن، لكن اثراء الهوية اليهودية فى اسرائيل هو الذى يجب ان يوضع فى المرتبة الأولى وليست تنمية تلك « الهوية الإسرائيلية ».

وجدير بالذكر ان اسرائيل الناشئة الراسخة بشدة لدى اليمين السياسى فى مفترق الطرق بين الدين والعلمانية تعبر عن هذه الثقة الهادئة لدى اليهود الأمريكيين الذين يؤمنون بأهميتهم الكبرى

فى مستقبل اسرائيل. ففى رأيهم أن ما يدور فى الخفاء وفى كواليس البيت الأبيض أو الكابيتول وفى شوارع مانهاتن أو فى مكاتب المنظمات اليهودية أشد تأثيرا على مستقبل الشعب اليهودى مما قد يتم فى قلب القدس نفسها إلى حد أن جماعة تسمى بجماعة (الأمريكيين من أجل اسرائيل آمنة) قد كرست كل نشاطها على صانعى الآراء وأعضاء الكونجرس. وهدفها اقناع كبار الشخصيات الأمريكية باهمية دور اسرائيل فى استراتيجية الولايات المتحدة العالمية. لكن منذ ثلاثة أعوام أى منذ اتفاقات أوسلو بدأ تعبئة جانب كبير من قوات هذه الحركة الصهيونية ضد عملية السلام. وقد وصف داود اسحاق أحد المسئولين فيها هذه الأهداف الجديدة على النحو التالى:

« من المؤكد ان نتنياهو بدأ يغير الوضع بعض الشىء، إلا أنه لم يتناول القضايا الحقيقية للمشكلة، ذلك أنه يهتم اهتماما بالغا بأن يبدو معتدلا وينتمى الى جناح الوسط. وفيما مضى عندما كان أى عضو من اعضاء الكونجرس يعبر عن تأييده لاسرائيل لم يكن ذلك يعنى سوى موافقته على مساعدتها ماليا، أما اليوم فلم يعد المراد فقط تأييد اسرائيل بالتصويت من أجلها فى الكونجرس، وانما المراد هو رفع المساندة لإسرائيل على المستوى الإستراتيجى بل وعلى المستوى الأدبى والدينى أيضا. فاذا نجحنا فى اقناع أعضاء الكونجرس بانهم يدافعون عن حقوق دولة بصفة خاصة وليس عن مساعداتها عندئذ سوف يكون التزامهم أشد وسوف يتبنون فكرة الدولة الإسرائيلية تماما. والواقع أن هذا المفهوم يجد بعض الصدى ليرى المسيحيين المؤمنين فى الكونجرس. كما أنه وسيلة لتشجيع الناس على البقاء فى الأراضى.

وجدير بالذكر ان هذا التصميم على ترسيخ اسرائيل والمجتمع اليهودى فى واقع الولايات المتحدة وحده ربما يكون أيضا وسيلة يائسة بعض الشىء لتدعيم مركز الطائفة اليهودية الأمريكية الضعيفة. فقوامها اليوم يزيد على ستة ملايين ونصف المليون نسمة وسوف تنخفض لتقل عن مليون عام ٢٠٧٦ عندما ستحتفل الولايات المتحدة بعيد استقلالها المئوى الثالث. تلك هى مجرد تنبوءات - وهى بالغة التشاؤم بلا شك - الياهو برجمان مساعد مدير مركز هارفارد للدراسات السكانية - والحقيقة أن قلة المواليد وشدة الإندماج يساعدان بطبيعة الحال على تلاشى الطائفة اليهودية الأمريكية تدريجيا.

وحتى الخمسينيات كانت نسبة الزواج من خارج الطائفة منخفضة للغاية وثابتة، اذ لم تتجاور تلك النسبة بلا شك ما يتراوح ما بين أربعة الى ستة فى المائة. ثم ارتفعت الى أربعة أضعاف نحو عام ١٩٧٠ لترتفع ارتفاعا شديدا فى الأعوام التالية. ومن المعتقد حاليا أن ما يزيد على ثلثى الشباب اليهود فى الولايات المتحدة يتزوجون من غير اليهود، بيد أن هذه الأرقام تطلق جزافا دون أية دراسة جدية وهى الدراسة التى تأكد تعذر اجراؤها بلا شك من الوجهة العلمية، لما يستلزمه ذلك من ضرورة تسجيل السكان اليهود فى بطاقات واستحالة تلك العملية، ومن ضرورة

مراعاة ثوابت يتعذر استخدامها ,مثل تعريف اليهودى وموقعه الجغرافى، كما أراد ابراهام بورج رئيس الوكالة اليهودية وهى المؤسسة الإسرائيلية المسئولة عن العلاقات مع يهود الشتات أن يطلق صيحة الإنذار التالية : مؤكدا أن اثنين وخمسين فى المائة من الزيجات التى تتم بين يهود الولايات المتحدة زيجات تتم مع أناس من خارج الطائفة ». وفى الواقع لو افترضنا أن الزواج اليهودى تم بين طرفين يهوديين أو كان زواجا مختلطا بمعنى أنه تم بين طرف يهودى وآخر غير يهودى فستكون النتيجة خروج نحو ثلثى اليهود من الطائفة اليهودية. وهو ما يعنى أيضا انقلابا مشيرا للغاية فى الاتجاهات وهو ما يؤكد الغموض الوارد فى الإحصائيات السابقة.

وعلى أية حال فان مركز ملتون للدراسات العبرية يشير الى أن جميع الأطفال تقريبا الذين ولدوا من الزيجات المختلطة حاليا. تسعة من عشرة منهم لن يعتبروا يهودا. ومن أجل القضاء على هذا النزيف فكر البعض فى فتح أبواب الديانة اليهودية والى العودة السريعة إلى رحابها. وقد كتب ايجون ماير مدير مركز الدراسات اليهودية فى مدينة نيويورك الجامعية يقول : « يستطيع اليهود الذين خرجوا عن ديانتهم أن يعودوا اليها فى وقت قصير جدا اذا نجحنا فى زيادة عدد دوائر استمالة الإزواج أو الزوجات غير اليهود البالغ عددهم مليونين والأبناء الذين ولدوا من زيجات مختلطة. ولا شك أننا اذا سمحنا لأفراد الأسر غير اليهودية بالمشاركة فى أنشطة الطائفة والانضمام اليها، فسوف يتمكنون فى النهاية من الاندماج فى الحياة والثقافة اليهودية، الأمر الذى سوف يزيد قوة الشعب اليهودى ويعطى دفعة لتزايده ».

هل هذه هى الوسيلة لانقاذ طائفة لها تاريخ طويل؟ لقد جاء أول يهودى للاقامة فى جزيرة مانهاتن فى عام ١٦٥٤ ، وفى أعقابه نزحت أربع موجات كبرى من المهاجرين لتكون المجتمع اليهودى الأمريكى. ففى البداية توجه بعض اليهود الأثرياء الذين توافدوا من البرتغال وهولندا وانجلترا الى العالم الجديد للتجارة مع جزر الهند الغربية (جزر الانتيل) وافريقيا وأوروبا. وبعدها وفى حوالى عام ١٨٣٠ حقق بعض البائعين المتجولين واصحاب المحال الصغيرة الذين هاجروا من ألمانيا حلمهم الأمريكى ونجحوا غالبا فى التوسع فى العمليات التجارية المثمرة حول المدن الكبرى المطلة على الساحل الشرقى. واعتبارا من عام ١٨٨٠ نزح الى نيويورك يهود أوروبا الشرقية الذين طردوا بسبب عمليات الاضطهاد والفقر. ونظراً لافلاسهم، وللفجوة الحضارية الشاسعة بينهم وبين الحضارة الأمريكية الجديدة التى لم يكن لهم أية دراية بها، وجدوا صعوبة فى الإندماج، وأخيراً وفى الثلاثينيات ومرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية توافد مهاجرون آخرون بحثا عن الثروة والهدوء فى دولة الذهب كما تخيلها اليهود. فقد حمل اولئك اليهود الوافدون من دول مختلفة فى أمتعتهم أسلوبهم الخاص فى ممارسة الدين، ،حملوا معهم الى جانب ذلك الخلافات التى شغلت طوائفهم داخل بلادهم الأصلية.

وجدير بالذكر أن المجتمع اليهودى الأمـريكى بدأ اليوم يشهد هذا التباين، اذ انقسم المؤمنون الى ثلاث حركـات رئيسية : أهمهـا حركة المحافظين التى تمثـل اثنين واربعين في المائة من الطائفة اليهـودية، وتضم أتباع التـيار الذى نشـأ فى ألمانيا خـلال القرن الماضى والذى تدعـو فلسفـته الى «ايجابية تاريخية » توافق على اجراء تطوير معتدل فى التراث الدينى. وحركة الإصلاحيين ـ وتقدر نسبة اعضـائها الى الطائفة اليهودية بثلاثة وثلاثين فى المائة ـ وهم أيضـا خلفاء يهود أوروبا الأحرار الذين دعوا ـ فى اطار الأفكار الـتى ظهرت فى القرن التـاسع عشر ـ الى تطوير التـقاليد اليـهودية بفعل التـحديث وتأثير المسيـحية. وقد انعكست هـذه الأفكار الحديثة فى التخلى عن وضع الكـيبا والصلاة باللغة الإنجلـيزية وإرجاء راحة يوم السبت الى يوم الأجـد، كما وجدت أرضاً خـصبة فى أمريكا، حيث تغلغلت هذه التقاليد اليهودية المبتكرة بارتياح فى قالب المذهب البروتستانتى الغالب. وهكذا وفى بلد يعتبر فيه الدين جزءاً لا يتجزأ عن الحـياة الإجتماعية ويكون معنى الإيمان الأساسى فيه غالبا هو الإندماج فى طائفة محددة والإنصهـار فى البوتقة العامة التى تؤدى الحركة الإصلاحية فـيه هذا الدور على افـضل وجه، ولـيست مطالبـة بأكثـر من ذلك. وقـد قرر عـدد ضئـيل من الإصلاحيين من الرعيل الأول فى هذا التحرر تغيير الشرائع الدينية القديمة تغييرا كلياً.

وجديـر بالذكر أن أحـد عشـر فى المائة فقط من اليـهود الأمـريكيين ينتمـون الى شريـحة الأورثوذكس، الا أنه فى نيـويورك ـ حيث يقـيم مليون وسـبعـمائة الف يهـودى ـ تعلن ربع هذه الطائفة انتـماءها الى هذا الاتجاه الدينى. بيد أن هذا التـيار لايبدو متجـانسا على الإطلاق اذ يضم مفاهيم متباينة تمامـا فثمة هوة تفصل على سبيل المثال بين الحاخام الصهيـونى بيساش ليرنر المسئول الروحى عن حركة اسـرائيل الناشئة وبين المعلم موشـيه تيتيلبـوم معلم حاسيدى سـاتمار والمتحدث بلسان معاداة الصهيونية المطلقة. غير ان الخلاف بين الحركتين لا يقتصر فقط حول مسألة اسرائيل : اذ تسعى حركة اسرائيل الناشـئة الى اعادة الشبيبة اليهودية الـضالة الى الدين فى حين أن الحاسيديم في ساتمار تقوقعوا داخل حصنهم ورفضـوا كل ما يمت بصلة للدعوة، فشغلهم الشاغل هو أن يظل حصن التشدد الأورثوذكسـى منيعا. الا أنه بصفة عامة فى الوقت الذى بدأت فيـه فصائل المجتمع اليهودى الأمريكى الأخرى تضـعف بلا منازع أعلنت معاقل المتشددين نزعتهـا الواضحة نحو تعزيز قوتها.

وجدير بالذكـر أن الحاخام آفى شافـران رئيس تحرير صحيـفة التحالف الشـهرية، صحـيفة حزب اجـودات اسرائيل فى أمريكا، قد تبنى أحـد تعاليم التلمود وشـبه الشعب اليهـودى بالجسم البشرى الواحد حيث لكل عـضو بالطبع وظيفته الخاصة، الا أن هذه الأعضاء جمـيعها تشترك فى نفس القلب، ونفس الفعل، ونفـس المصير، ويجب تجمـيعها من أجل ضـمان الحياة لهـذا الجسد ككل وضمان خاصيته. وقد أعرب الحاخام شـافران عن أسفه لتفسخ هذا الجسد الواحد المتمثل فى المجتمع اليهودى الى مـدارس متباينة ذات اتجاهات متعارضة قائلاً : « إن التـعددية الدينية اليهودية

ليست الا ظاهرة لمرض عميق يتمثل فى تفتت الشعب اليهودى الى شيع مختلفة من اليهود وأنماط مختلفة للعبادة اليهودية ».

وجدير بالذكر أن الشبيبة الذين تأثروا بالجانب الروحانى قد عادوا بطبيعة الحال الى ما اعتبروه القلب النابض الأصيل لهذا الجسد المفسخ. والحقيقة أن جيرشون جاكوبسون مدير صحيفة « الجماينر الأسبوعية » التى تصدر باللغة الإنجليزية واليهودية قد أرجع سبب هذه العودة للأورثوذوكسية الى التطور الذى طرأ على الأجيال منذ نهاية القرن الماضى، فعندما تمركزت إحدى الجاليات اليهودية الكبرى فى الولايات المتحدة منذ حوالى مائة عام، كان هدف غالبية هؤلاء المهاجرين هو اقامة حياة أفضل، ولم تكن المشاغل الروحية موضع اهتمامهم على الإطلاق. وحقق أبناؤهم هذا المطمع تماما، فاصبحوا أطباء ومحامين ومثقفين، الا أنهم أغفلوا معنى هويتهم اليهودية. وشب الجيل الثالث فى ظل المال والرخاء والتعليم العلمانى واندمج تماما فى الأمة الأمريكية. وأحيانا ما أخذ يبحث عن أصوله، ودفعته صدمة عمليات الإبادة الى قراءة بعض المؤلفات والتمعن فى الدراسة للتعرف على حضارته الخاصة.

ويقول جيرشون جاكوبسون مداعبا : « إن هؤلاء الشبيبة أدركوا أن اليهود لهم جوهر وكانوا من قبل يتصورون أنه ليس لهم سوى وجبتهم الشعبية » « الجوفيلت فيش » يتناولونها ليلة الجمعة.

ولا يزال آباء وأجداد هذا الجيل العائد الى الدين لايدركون سبب تمسك أبنائهم بالأصول اليهودية. فبينما سعى هؤلاء الآباء والأجداد بشتى الطرق الى التخلى عن مفاهيمهم القديمة البالية فهاهم أبناؤهم اليوم يستبدلون مظهرها الأمريكى بالعودة الى أصولهم القديمة: ذلك أن غالبية الشباب الذين عادوا الى الديانة اليهودية انضموا الى المعسكر الأورثوذكسى، وهم يرفضون الحل الوسط، ويتمسكون بتغطية رءوسهم « بالكيبا »، ويتناولون الأطعمة المطابقة للشريعة، ولايشعرون بأى نقص فى مجتمع الحرية، لا يحققون فيه انتماءهم ولا فرائضهم الدينية ومعتقداتهم. وهكذا أصبح نحو أربعين فى المائة من اليهود الذين ينتمون الى التيار الأوروثوذكسى يهودا ينحدرون من أوساط غير متدينة. ويفسر الحاخام بيساش ليرنر هذا الاتجاه الجديد الذى اتخذه الشباب نحو ديانة أصيلة، بقوله :

« إن الأمور كانت ميسرة خلال الستينيات : المال والجنس، بيد أن الناس فى الوقت الحالى يبحثون عن شيء أكثر عمقا وأكثر روحانية. ولله الحمد أنه يوجد فى ديننا ما يجذب الشباب. وبدلاً من أن يتوجهوا الى أديان أخرى فقد حاولوا أن يجدوا تلك الروحانية داخل الدين اليهودى نفسه. أما الحركات الإصلاحية الحركات التى تنادى باعادة البناء فقد ذهبت فى شططها الى حد مباركة الزيجات التى تتم بين الشواذ وأرادوا تحطيم كل شيء. وهذا هو السبب الذى دعا البعض الى التخلى عن التيارات المحافظة أو الإصلاحية للعودة الى ديانة اكثر أصالة.

وجدير بالذكـر أن مدينة ليكوود الصـغيرة الـهادئة النائية داخل الخـضرة المـمتدة فى ولاية نيوجـرسى هى مركز المجـتمع اليهـودى الأورثوذكسى النابض الذى يفـد إليه اليهـود من الأماكن القصيـة للتعمق فى دراسة التوراة. ومديـنة ليكوود تشبه فى شوارعها المـستقيمة ومنازلهـا المستقلة بواجهاتها المصنوعة من الخشب المطلى، ومبانيهـا المبنية بالطوب الأحمر الداكن، وحدائقها الصغيرة المتربة جميع المدن التى تتشابه فى رتابتها المؤلمة فى قلب أمريكا. وينقسم سكانها الذين يبلغ عددهم أربعين الف نسمة الى عدة طوائف عـرقية يفرق بينها تمييز عنصرى غيـر واضح حيث يلتقى السود والبورتوريكيون واليهود ويتجاهلون بعضهم البعض بنفس اللامبالاة.

ويذكرنـا المعهد التـلمودى القديم الـذى أنشىء منذ نصف قرن ـ ذلك المبنى الكئـيب الذى تتخلله نوافـذ صغيرة ـ بمدارس بولنـدا فيما قـبل الحرب، الا أنه لا يوجد به حاليـاً سوى المكاتب الإدارية للمدرسة : فقد اتسعت الأكاديمية التلمـودية حيث يدرس فيها الآن ألف وخمسمائة طالب بصفـة منتظمة وتضم، مـبانيه الحـديثة التى بنيت على عـجل بالجدران الجـاهزة قاعات الفـصول الجديدة. وهكذا أصبحت مدينة ليكوود التى يدرس فيها خمسـة آلاف يهودى أشبه بعاصمة صغيرة للمجتمع الدينى.

ولايزال « يتسـحاق » الذى يناهز الخـامسة والعـشرين من عمـره، وأب لطفلين صغـيرين يواصل دراستـه. فبعد أن أمضـى خمسة أعوام فى أحـد المعاهد التلمودية فى مـدينة بنيه براك فى اسرائيل أراد أن يشـاهد شيئـا مختلفاً : « كنت أبـحث عن مجتمع يهـودى متطور مثل المجـتمع الإسرائيلى ولكن بنمط مختلف أى أقل تطرفـاً من الوجهة السياسية، فالجمـيع فى اسرائيل ينتمون بالضرورة الى حزب من الأحزاب يفصل بينها جدار من عـدم التسامح . . أما مدينة ليكوود فتبدو أكثر انفتاحا. إذ يلتقى فيها طلبة من جمـيع الإتجاهات الدينية. وحتى من وجهة نظر التفاسير تبدو المواقف أقل تشدداً. ذلك أن الدوائر الأورثوذوكسية فى اسرائيل لا تحبذ ترك المعهد الدينى من أجل كسب العيش، أما هنا فأجد تلاميذا مقـيدين فى المعهد ويستطيعون أن يدرسوا ويعملوا ـ فى نفس الوقت ـ نصف الوقت لإعالة اسرهم ».

ومن الواضح أن نور العلم فى مدينة ليكوود يلقى بشعاعه على المجتمع اليهودى برمته. لذا فان عدداً كبيراً من الطلبة ينقلون النصيحة الى المجتمعات اليهودية فى المنطقة. وقد قال « يتسحاق» الذى يتوجه مساء كل يوم أربعاء الى حى برينستـون للدراسة مع شاب يدرس العلوم استيقظ إيمانه : « إن هذه البرامج بصفة عامة موجهة بصفة عامة الى قوم فى مرحلة التوبة أو لم يصلوا بعد الى هذه المرحلة. إنهاء ذريعة لإستمالة الناس المبتعدين عن الدين ».

ولا شك أن مـدينة ليكوود قد أصـبـحت بهذه الجـموع من الطـلبة الذين يدرسـون الدين والدعاة الذين يقومون بالتبـشير أسبوعياً مركزاً للأورثوذكـسية الأصلية. وتوجد فى وسط بروكلين

اقطاعيـة دينية أخرى هى اقطاعـية « بورو بارك ». ففى هذا الحى وفى غـيره من الأحياء اليـهودية الأخرى تعيش الطائفة اليهودية فى حالة اكتفاء ذاتى بمحالهـا الصغيرة ومدارسها وصحفها وسيارات النقل الخاصـة بها والتى تربط بين الأمـاكن اليهودية المخـتلفة. وغالبـاً ما يتم الفـصل بين الرجال والنساء فى وسائل النقل المشـتركة هذه، بل إنه كان يوجد فى بعض هذه السيـارات حاجزاً يفصل بين المقاعد المخصصة للرجال وتلك المخصصـة للسيدات، الى أن تضايق أحد الأشخاص أخيراً من هذا التمييـز بين الأجناس الذى يخالف القانون الفيدرالى . وقـدمت شكوى فى هذا الشأن وصدر حكم فرض سحب الحاجز المتنافى مع الشرع.

الواقع أن الزائر حين يتجول فى شوارع حى « بورو بارك » أمـام المحلات التى يتكدس فيها الطرشى والخبز بالبصل والمقانق المصنوعة من لحوم مذبوحة حسب الشريعة وعندما يسير الى جانب المعلمين الكهـول ذوى الشعور المجـعدة على طريقـة الحاسيـديم، والطلبة ذوى القـبعات الواسـعة المصنوعة من القطيفة السـوداء، وحين يلتقى بالفتيات اللاتى يرتدين ثياباً طويلة تنتهـى بياقة بيضاء صغيرة وسيدات يدفعن أمامهن عربات الأطفال، يمكن أن يتصور أن الزمن قد توقف للحظة وينتابه شعور مثير ومخيف بأنه عاد الى القرى اليهودية الأوروبية القديمة حيث ازدهرت الحياة اليهودية. إلا أنه فى ظل هذا الجـو الأسرى شهـدت الأورثوذوكسيـة اليهـودية فى أواخر القرن العـشرين تغـيراً عميقاً.

وقد كتب الحاخام « حاييم سـولوفيشيك » البروفسور بالمعهد اليهـودى بجامعة نيويورك ذو النزعة الأورثوذوكسـية الجديدة التى تدعو الى ديانة متسـامحة ومفتوحـة يقول : « إن رجال الدين اليهودى الذين يريدون الحـفاظ على تراثهم الدينى يحاولون ترسيخ روحانيتـهم الجديدة الوليدة فى ألفة مستحيلة مع الرب دون الرضـوخ لمشيئته، وعليه بدأوا يملأون حياتهم اليوميـة بواجبات معقدة ونظراً لأنهم فقدوا صلتهم بالوجود الإلهى، فهم لايسعون اليوم الا للخضوع لنير شريعته.

ورغم التشابه الظاهرى والسطحى بين المـتدينين اليهود الحاليين وبين أسلوب الحيـاة التقليدية فى الماضى، الا أن التيار الأورثوذكـسى قد أصابه تغيير أكـيد فى طبيعته. ذلك أن ابتـعاد الأجيال التى هاجرت إلى الولايات المتحدة فى القرن الماضى عن تقاليدها وتدمير اليهودية تلقائياً بأيد النازية فى وسط أوروبا كل هذا أدى إلى أنقطاع فى تواصل الرسالة بين الأجيال.

وحيث ان « الحالاخـا » وهى عبارة عن قواعـد لتنظيم الحياة اليـومية ونظام المعيشـة تشمل جمـيع مجـالات الحياة، ليـست الصلاة فـحسب وانما أيضـاً المأكل والمشرب والملبس والعـلاقات الجنسيـة، ومناهج العمل، ومـناهج الراحة فهى لا يمكـن ان تدرس فقط وانما يجب ان تسـتوعب بصفة خاصة : ويؤكد الحاخام « سولوفيتسيك » أن نقل هذه القواعد كان فيما مضى يتم عن طريق المحاكاة والتشـرب بها من خلال الطقوس والعادات المتبعة داخل الأسـرة وفى المعبد وفى المدرسة.

كمـا كتب يقول إذا طلب الى أن أوضح فى عـبارة واحدة التغـيير الذى طرأ على الديانة اليـهودية خلال الجـيل الأخيـر لقلت إنه الدور الجـديد الهام الذى تلعـبه اليـوم النصوص الدينيـة فى تلك الحياة».

وفعلاً فان مـا يميز الأورثوذوكسية الحديثـة هو : التمسك بالنصوص. والحقيـقة أن التشدد الدينى الجديد يتمثل فى الإفراط فى الإلتزام بالفرائض والصلوات والأعياد الرسمية. وفجأة وخلال جيل تم نشـر مؤلفات عـديدة أبرزوا فيهـا نظريات جديدة أو أحيـوا فيهـا عادات قديمة كـانت قد أغفلت. وهكذا خضعت الممارسة الدينية إلى إعادة تقويم مكثفة فى ضوء الإلتزام بالشعائر وبطريقة لم تحدث من قبل.

وجدير بالذكر أن المعهد التلمودى والمدرسة الدينية تلعبان دوراً رئيسياً فى هذا التوجه الدينى الجديد الذى تعتبر فيه الولايات المتحدة محوراً له، والذى انتشر أيضاً فى اسرائيل وانجلترا وفرنسا. ففى نهـاية الحرب العـالمية الثـانية، لم يكن هناك سوى ثـلاثين مدرسة يهـودية فى جمـيع أرجاء الولايات المتحدة حيث بلغ تعداد الأطفال خمسة آلاف وثمانمائة طفل، وكان عدد المعاهد التلمودية أقل من ذلك بكثير ، أمـا اليوم فان ستمائة مـدرسة يهودية تستقبل مـا يزيد على مائة وستين ألف تلميذ. وهكذا ارتفعت الأرقام ثلاثين ضعفاً خلال خمسين عاما.

ذلك أن الهوية اليهودية فيما مضى كانت تبـدو راسخة. وكان اهتمام المهاجرين يتمثل أولا فى تلقين ابنائهم تربيـة من شأنها مسـاعدتهم على الإندماج فى الوطن الجـديد. ولم تكن المدرسة اليهودية هـى الشغل الشاغل الأساسى لطائفـة ما كانت تتصـور حدوث اضمحلال لتـراثها. ومنذ ذلك الحين تلاشت تلك الهوية وكان لابد من تخويل معلمين تلموديين مـهمة نقل عقيدة يهودية ـ فترت بشكل بالغ ـ داخل الأسرة. وهكذا أصبح المعهد التلمودى مؤسـسة جماهيرية مهمتها تأهيل الفلول الرئيسية من الجماعات الأورثوذوكسية : فلم تعد للعقيدة اليهودية التى يتعلمها اليهودى من خلال الحياة أى وجود، وحل محلها تشريح دقيق لنصـوص التوراة. ويعتبر هذا اللجوء الى حرفية الشريعة الدينية دليلاً على تشنج التدين الذى طغى عليه التطوير الذى لم تعد له مهمة أخرى سوى الحفاظ على سلامة التراث. وفى هذا الإطار اتضحت للمعلمين الأورثوذكس ضرورة تعزيز تجانس الجماعة ونسج روابط وثيقة تعزل هذا المجتمع الصغير وتمنعه من التفكك.

وانعكف الطلبـة فى مدينة « ليكوود » أو فى « بورو بارك » علـى دراسة النصوص الديـنية على مدار ساعات اليوم. وأخذوا ينقبون فى الشـرائع الإلهية التى يسيرون على هديها فى حياتهم. وهكذا دفعهم هـذا التنقيب الى التدقيق فى كل حـرف من حروف النص الى أن توصلوا الى طرح تساؤلات أساسـية من بين هذه التساؤلات هل يجوز أكل بيض تم افـراخه يوم السبت، وهل أكل خضر طازجة قد تخفى بين أوراقها ديداناً صغيرة غير حلال أمر مشروع.

الفصل الثامن

على أثر المسيّا

أو التعصب المناهض للصهيونية

يملك ميخوئيل ايريرا « يملك محلاً لبيع الهدايا التقليدية فى مدينة « ليكورود » فبعد أن درس التلمود فى اسرائيل لمدة عامين استقر فى هذه المدينة الصغيرة بولاية « نيوجرسى » حيث يكفل له المعهد الدينى ازدهار تجارته. و «ميخوئيل » يعرف أن العالم اقترب من الخلاص، وأن وقت ظهور المسيّا قد أوشك. الا أن ثمة عقبة مازالت قائمة بين البشر والمخلص الذى طال انتظاره وهى دولة اسرائيل وقد ثار ميخوئيل المتعمق فى التصوف ضد فكرة قيام حركة تحرر وطنى يهودى فقال :

« إن كل شيء يتم ضد مشيئة الله يؤجل مجيء المسيّا، اذن فقيام الدولة ليس الدليل على أن تلك هى الفترة المنذرة بقدوم المسيّا التى نعيشها الآن وانما هى بالأحرى عقبة فى سبيل تجليه. وجميع الملمين بالتوراة يسلمون بأن اقامة دولة بمحض ارادتها يخالف الشريعة الإلهية لأن فى هذه الحالة تكون مثل هذه الدولة مناقضة للتوراة ولمشيئة الله ». وقد جاء فى التوراة أيضاً ان المسيّا سيأتى لامحال وقد كتب فى السماء أن المسيّا سيظهر فى وقت ما . . . وسيكون ذلك فقط من سوء حظ الذين لم يتوبوا بعد، أما من تاب قبل الخلاص فسيكون فى موقف أفضل اذ ان بعدها سيكون الندم قد ولى.

وقد ورد فى الجيمارا (الأحكام الشرعية) بصدد موضوع « الكتويوت » انه عندما غادر العبرانيون أرض إسرائيل ليعيشوا فى السبى بعد تدمير الهيكل الثانى طلب الله إليهم بان يقسموا بايمانات ثلاثة : بألا يعودوا بالقوة، وألا يتمردوا على الأمم، وألا يحاولوا التعجيل بنهاية الأزمنة (الساعة) وبناء على هذه التعاليم، يعتبر « ميخوئيل » دولة إسرائيل بمثابة هرطقة، وعندما يتحدث عن الأرض المقدسة يشير بدقة الى أرض اسرائيل كما تنطق باللغة اليهودية مشددة كما وردت فى كتب التراث القديمة دون أية اشارة عنصرية الى اليهود الكفار الذين تحدوا الإرادة الإلهية، ففى اعتقاد « ميخوئيل » أن دولة إسرائيل بمدنها العامرة، ومشكلاتها السياسية وجيشها تبدو غريبة غرابة أية منطقة نائية اذ قال :

« بما أننى لا أهتم بما يجرى فى الصين، فانا لاأهتم بما يدور فى إسرائيل »

علماً بأن « ميخوئيل » قد أمضى عامين فى الدراسة فى القدس وليس فى بكين . .

ذلك لأن المعهد الدينى كان موجوداً فى دولة اسرائيل والحقيقة أن قداسة أرض إسرائيل لم تتأثر بالصهيونية الى حد ما. فقد كانت أرض إسرائيل أكثر قداسة بالطبع، عندما لم يكن فيها كل هذا الشعب المعادى للتوراة.

ورداً على سؤال : هل كانت هذه الأرض شاغرة من اليهود ؟ قال : « لقد كان فيها بعض اليهود، وحفنة من الأرثوذوكس، وحفنة لم تُحدث على الأقل أى فساد . . . فأرض «اسروئيل»تشبه قصر الملك، عندما يكون القصر خالياً، عندما لا يكون فيه سوى بعض الخدم الفرادى، وهو أمر مؤسف بالطبع، الا أنهم على الأقل ينفذون ما يأمر به الملك. وعندما يزدحم القصر بجماهير تتعارض مواقفها مع مشيئة السيد فيصبح الموقف أشد خطورة بشكل واضح ».

ومن هذه الزاوية يعد اضمحلال الأرض المقدسة مؤشراً على اضمحلال أخلاقى أعم. ويشير « ميخوئيل » إلى أن ذلك التراث اليهودى الذى يشبه البشرية عبر التاريخ بجسد رجل واحد، تراث يشبه الأجيال الأولى بالرأس، وهى أجيال اكثر روحانية. ثم كلما تقدم الزمن صارت أجيال أكثر إنحداراً. وها نحن اليوم قد وصلنا الى جيل يشبه كعب هذا الجسد الجامع، الفترة السابقة لمجىء المسيا، بل كذلك زمن ضعفت فيه مدارك البشرية :

« لقد كان من السهل على الأجيال السابقة أن تفتح أعينها، وأن ترى الله وأن تشعر به ولم يعد فى مقدورنا أن نرى أو نشعر بما كنا أو نشعر به فيما مضى . . . وعلى كل فلم يعد لدينا سوى المعلمين الذين كانوا موجودين منذ خمسين عاما أو ثلاثين عاما ».

والواقع أن « ميخوئيل » الذى كان على صلة وثيقة بحاسيدى ساتمار (الأتقياء) قد أعرب عن أسفه لرحيل المعلم « يوئيل تيتيلبنوم » فى عام ١٩٨١ معلم هذه الحركة وناقد الصهيونية الكبير. فلا شك ان « انحدار الأجيال » أخذ يتزايد منذ موت المعلم، وقد قال « ميخوئيل ».

« إن معلم ساتمار » كان يهاجم العنف دائماً. وقد اعتقد البعض أنه يتعين عليهم، باسمه أن يقذفوا القنصلية الإسرائيلية فى نيويورك بالحجارة أو البيض الفاسد. بيد أنه لا شك أنه ما كان سيتصرف على هذا النحو أبداً ».

والحقيقة أن « يوئيل تيتيلبوم » أراد أن يكون أكثر خلفاء الحاسيديم تشدداً. فقام بتعبئة أشد المعادين للصهيونية عنفاً حوله فى مدينة « ساتمار »، هذا فى الوقت الذى انفتح فيه باقى افراد الطائفة على الأفكار الجديدة على نطاق واسع بيد أن التاريخ يتميز بمواقفه الساخرة اللاذعة، ففى عام ١٩٤٤، فى الوقت الذى كانت فيه ساتمار بعد ضمها الى المجر تحت رحمة « ادولف ايخمن » انقذ الصهاينة المعلم تيتيلبوم الذى كان محكوماً عليه بالموت.

وفى بداية عمليات الإضطهاد المعادية للسامية قامت مجموعة صغيرة من المناضلين الصهاينة بتأسيس لجنة سرية فى بودابست تدعى « لجنة المعونة والإغاثة » وقد ساعدت هذه اللجنة اليهود

الذين طردوا من الدول المجاورة على اللجوء الى المجر التى كانت لا يزال استقلالها نسبياً آنذاك وعلى مواصلة رحلتهم الى فلسطين واعادة بنائها وقد حاول أحد قادة هذه المجموعة وهو «ريستروكاستنر» بعد غزو القوات الألمانية للمجر فى مارس ١٩٤٤ اجراء مفاوضات محمومة مع النازى لإنقاذ حياة المرحلين وأبدى « ايخمن » سخريته أمام اولئك الرجال الذين أقبلوا على مبادلة يهود بلا أهمية بسلع ذات قيمة، ولكن الرايخ كان مستنزفاً، وكان فى حاجة الى عملات أجنبية وإلى نيكل والومنيوم وكاميونات (سيارات نقل بضائع) وجرارات. وبدأت محادثات بين «كاستنر»ورئيس الوحدات العسكرية التابعة للرايخ الألمانى ورئيس الخدمات الإقتصادية لهيملر زعيم الجستابو، والسويسرى سالى ماير، ممثل اللجنة الأمريكية المشتركة لتوزيع المعونات، وهى منظمة يهودية أمريكية للاغاثة.

وقد عرض « إيخمن » بنفسه فى بادىء الأمر مبادلة مليون يهودى بعشرة آلاف كاميون (سيارة لنقل البضائع)، ثم تعثرت المباحثات إذ خشى الحلفاء مساندة المجهود الحربى الألمانى. وقد أوضح « روزويل ماكليلاند » عضو السفارة الأمريكية فى سرية دون إلتواء موقف حكومته فى رسالة موجهة الى مكتب لاجئى الحرب فى واشنطن قائلاً : « إنه من المستحيل أن نشترك فى برنامج لشراء اليهود من النازى، خاصة إذا تطلب الأمر مبادلتهم ببضائع من شأنها مساندة العدو على مواصلة الحرب. ورفضت سويسرا التى تأهبت لاستقبال اليهود الذين نجوا من النازى تسليم تلك التأشيرات الهامة بالسماح بدخولهم، ولم توافق ـ فى بادىء الأمر ـ إلا على فتح حدودها للاجئين الذين تقيم أسرهم فى سويسرا. بل إن لجنة الصليب الأحمر الدولية نفسها تهربت من هذه المحاولة لإنقاذ اليهود وردت بعجرفة « بأنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تتحالف مع قوم يلجأون الى أساليب غير شرعية لإنقاذ اليهود» كذلك عاد « ايخمن » بدوره ـ بعد أن قدم وعوداً قرر عدم الوفاء بها ـ إلى مهمة الإبادة التى كان قد بدأها ولم يعد يفكر إلا فى أن يبتز أكبر قدر من المكاسب المالية من المنظمات اليهودية مقابل أقل عدد من النفوس، أما النازيون المجريون فقد حاولوا الاستحواذ على ثروات الضحايا لحسابهم كما شهد « كاستنر »، إذ يقول :

« لقد صمم المجريون منع حليفهم الألمانى الإستئثار بهذه الأموال اليهودية. وهكذا نظم رجال الشرطة السريون ومكافحة الجاسوسية المجريون عمليات تمشيط فى مكاتب لجنة المعونة والإغاثة. وأصبح تسليم هذه الأموال والعملات الصعبة التى كان يأتى بها أصحابها وهم يرتعشون مسألة شائكة ».

وأخيراً أتاحت تلك المفاوضات الدنيئة اليائسة لقافلة من ألف وثلاثمائة وثمانية وستين يهودياً أطلق سراحهم من معسكر « برجن بلش » دخول سويسرا قبل عيد الميلاد فى عام ١٩٤٤. وكان يوجد بين هؤلاء المميزين ـ الذين باع النازى كل واحد منهم مقابل ألف دولار ـ أطفال

ومناضلون صهاينة، ومنهم أيضاً « كاستنر » نفسه وأسرته وكذلك بعض الحاخامات الأرثوذكس. وأخيراً استطاع المعلم « يوئيل تيتيلبوم » الذى نجا من الجحيم أن يتنسم نسيم الحرية. ولم ينعم أولئك الناجون بهدوء الاتحاد الكونفدرالى السويسرى إلا لفترة وجيزة، ذلك أن حكومة برن تشددت فى سياسة الهجرة التى انتهجتها. وعندئذ أبحر المعلم مع معظم الناجين الى فلسطين ولكنه لم يبق فيها طويلا. وفى عام ١٩٤٧ غادر « يوئيل تيتيلمان » على عجل أرض الميعاد التى سرعان ما أصبحت دولة يهودية ذات سيادة واستقر بصفة نهائية فى بروكلين، ومنها إستأنف حملته المناهضة للصهيونية بعنف متزايد.

وبالطبع كثرت الأقاويل عن غموض مشاعر الحب الممزوج بالكراهية التى حملتها الضحية تجاه منقذها. ولاشك أن التحليل النفسى سيساعدنا على تفهم هذا الهوس المنفرد فى معاداة الصهيونية من جانب معلم « ساتمار ». ألم يعلمنا سيجمون فرويد « أن الكراهية تستمد جذورها من غرائز الحفاظ على الذات وفى محاربة الفرد من أجل التماسك واثبات ذاته ؟ الحقيقة أن الجحود يبدو راسخاً فى النفس البشرية حتى أن أوجين لابيش كاتب المسرحيات الدرامية سَعِد فى روايته الشهيرة « رحلة السيد بيريشون » فى شجب هذا العبء المميت الذى يسمى بالعرفان فى إطار كوميدى.

وجدير بالذكر أن الذين نجوا من التهلكة لايحبون على الإطلاق أن يتذكروا الذين أحسنوا اليهم. ذلك أن كرم الطرف الآخر يذكرهم على وجه الدقة بالوقت الذى كانوا فيه ضعافا تحت رحمة القدر. والعرفان قد يضطرهم الى تقبل وترسيخ وضع يفزعهم « والإعتراف به »، خاصة وأنه يضاف الى هذا الشعور لدى الناجين من معسكرات الموت شعور غير منطقى بالذنب بسبب بقائهم على قيد الحياة فى الوقت الذى رحل فيه ملايين آخرون ضحايا الإختناق فى غرف الغاز.

وقد عرف « يوئيل تيتيلبوم » كيف يغالى فى حجب العرفان فى اللاشعور فى حين أننا شهدنا هذا الإنكار للجميل واضحا الى حد ما فى مواقف أخرى. وهكذا أسرع آلاف الأطفال والراشدون اليهود الذين أنقذوا خلال الأعوام الكئيبة على يد شعب شامبون سور لينيون البروتستانتى ـ بعد التحرر ـ بالهرب من هذه الأرض التى أنقذتهم حتى لايعودون إليها أبداً. الأمر الذى أصاب سكان هذه القرية الكريمة ـ الذين سعوا عبثاً إلى هذا اللقاء مع شعب الكتاب المقدس متحدين جميع المخاطر ـ بخيبة أمل كبرى.

والحقيقة أن شجاعة سكان « شامبون » لم تكن فى رأى الذين نجوا من عمليات الإبادة المنهجية إلا صورة تعكس مآسيهم الحقيقية وذعرهم وفرارهم.

وقد قال لى فى أسى مزارع كهل : « إنهم تفرقوا مثل سرب من الطيور » . .

وبعد أربعين عاما تقريبا قبل الأطفال الذين اختبأوا فى « شامبون » فى النهاية أن يتذكروا من أنقذوهم فيما مضى وان يعودوا لتكريمهم.

وجدير بالذكر أن المعلم « تيتيلبوم » أقام فى حى ويليامسبورج ـ أحد أحياء بروكلين ـ مركز « ساتمار » الحاسيدى الجديد ولم يكف عن مهاجمة الدولة الإسرائيلية التى أنشأها الشيطان فكتب يقول : « إن الصهاينة نتيجة أعمالهم السيئة تسببوا ـ بما قاموا به من أنشطة سياسية آثمة ومحظورة ـ فى حدوث جميع المحن والمصائب التى تعرض لها شعبنا، وراحوا بعد ذلك يتباهون بأنهم متفوقو أمتنا وأنهم يؤدون هذا الدور، وقد نجحوا فى هذه الخديعة.

أفعال سيئة . . . مظاهر المنقذين . . . خديعة . . . هكذا كان المعلم تيتيلبوم يندد دون هوادة باؤلئك الذين كان يدين لهم ببقائه. والأسوأ من ذلك أنه اتهم الصهاينة بأنهم كانوا أساس مؤامرة واسعة النطاق استهدفت اذكاء معاداة السامية الهتلرية التى اثبت عنفها المروع للجماهير اليهودية الضرورة الملحة لوجود وطن مستقل لهم. وهكذا قام بقلب تلك الحقيقة التى لم يحتملها وصَوَّرَ الاتصالات التى أجراها الصهاينة مع النازى من أجل انقاذ يهود المجر على انها تواطؤ خسيس.

وقد أوضح لى هيرشيل نزمديان « الصحفى بمجلة ساتمار اليهودية » [ديريد] السبب الذى جعل الحاسيديم فى تلك الحركة يظلون ألد الأعداء لدولة إسرائيل فقال :

« لقد عارضنا قيام دولة يهودية قبل مجىء المسيًّا سواء أكانت حكومتها دينية أم غير دينية. والواقع أن حاسيدى ساتمار لا يمكن ان يقبلوا هذا الأمر الواقع على الإطلاق، ذلك أنه يخالف كل ما تعلمناه فى التوراة. أو تفرض علينا إحدى وصايا التوراة التى يبلغ عددها ستمائة وثلاث عشرة وصية أن نجاهر « بايماننا بمجىء المسيًّا » وهكذا يتعين علينا إذا كنا نؤمن بتجليه ان نقبل انتظار تلك الحادثة مهما طال الأمد فماذا فعل الصهاينة ؟ لقد قالوا إنهم لا يؤمنون بمجىء المسيًّا، وأنه يتعين عليهم من ثم أن ينشئوا تلك الدولة بأيديهم. وهكذا لم يساعدوا على مجىء المسيًّا ليس هذا فحسب، وانما عمدوا أيضاً إلى تعطيل خلاصه. ولذا يتعين أن تزول دولة إسرائيل حتى يتسنى أخيراً للمسيًّا أن يتجلى. وعلى أية حال فان كل ما أقامه الصهاينة سوف يدمر. فلسنا ضد دولة اسرائيل لدواع سياسية مثل الفلسطينيين. وانما نعارضها فقط بموجب التوراة. فاذا اعتبرنا أن التوراة كتاب مقدس ويقول الحقيقة، فمن المستحيل أن نوافق على وجود دولة اسرائيل. وأنا فى صلواتى اليومية التى أصلى فيها من اجل مجىء المسيًّا ونشر العدالة، أدعو ضمنا الى تدمير دولة إسرائيل كما أدعو كذلك بألا يُقتل أى يهودى. لكن كيف يكون ذلك ؟ الواقع انه ليس علينا أن نوضح لله ولا للمسيًّا الطريقة التى يتصرفان بها، فالله يعرف كيف يرتب هذه الأمور. فلو كانوا قالوا لنا منذ بضعة أعوام إن امبراطورية شاسعة مثل الإتحاد السوفييتى ستنهار دون أن تطلق رصاصة واحدة لما صدق ذلك أحد. ولكن هذا ماحدث . .

والواقع أن هذا الحديث الذى ظل طويلاً هامشياً بدأ يجتاح مجتمعات المتدينين، بل أصبحت تشجعه أيضاً تلك المعارضة السياسية التى تمخضت عن الإتفاقات التى تمت بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية وبما أن الدولة التى تواصل الى حد ما عملية السلام سوف تضطر فى يوم قريب إلى تصفية الأراضى اليهودية فى يهودا والسامرة، فانها ستفقد شرعيتها الدينية. وعليه أشاعت تلك الأرثوذوكسية المتطرفة الأفكار التى روجها المعلم « تيتيلبوم » خارج دوائر ساتمار ».

وها هو « بيريل » وهو معلم مواد الدين اليهودى فى لندن والذى شعر باهتزاز بسبب عملية السلام يتساءل اليوم عن استمرارية دولة اسرائيل قائلاً :

« إن مؤسسى دولة اسرائيل لا يستندون إلى أى فكر دينى. وباختصار لم يكن من الممكن امتلاك اسرائيل بهذه الطريقة. كان يجب تعمير البلد بطريقة مختلفة. واليوم نعتقد أن الله سوف يضطرنا إلى التنازل عما نملك، وما استولينا عليه والذى كلفنا الكثير، حتى يمكننا استرداده فى وقت لاحق على أسس أفضل، أى مع مجىء المسيًا. ويعتقد « حاسيدى ساتمار » أن اسرائيل لايجب أن يكون لها وجود فى الوقت الحالى، وليس من الحق الضغط على إرادة الله، وانما يتعين الإنتظار لحين التدخل الإلهى دون التأثير فى مسيرة التاريخ وربما تثبت الأحداث أنهم كانوا على حق . . . فاستحقاق الخلاص لا يمكن أن يأتى من جانب المعادين للدين، فقد أخطأ فيما يبدو أولئك الذين زعموا فى عام ١٩٤٨ أنه يحق لنا العودة الى أرضنا، والذين تبينوا فى ذلك بشائر الخلاص. والواقع أنه كلما زادت معاناة دولة اسرائيل وشعبها، دل ذلك على قرب تجلى المسيانية. ذلك أن ما يشيد بعيداً عن الغايات الدينية يجب أن يدمر حتى يعاد بناؤه، وأى بناء يقام على أسس باطلة ما له سوى الإنهيار.

وهكذا لم تضعف معاداة « حاسيدى ساتمار » للصهيونية وانما زادتها الأحداث قوة. وبالفعل قام المعلم الحالى موشيه تيتيلبوم بزيارة اتباعه فى القدس فى شهر يونيو عام ١٩٩٤ ورفض السفر على شركة الطيران الإسرائيلية وكرر إداناته « لدولة دمرت يهود الشتات وأتاحت فرصة المواجهة مع الإسلام ».

وفى رأى « هيرشل فريدمان » أن طائفة حاسيدى ساتمار هى أكبر الطوائف اليهودية الأرثوذكسية. واذا كنا نشعر بأننا أمام أقلية فذلك لأن حاسيدى ساتمار يبقون على تحفظهم ويرفضون مبدأ الدعوة كما أن النشاط التبشيرى لحركة الحاسيديم اللوبافيتش لايستهويهم على الإطلاق إذ يقولون :

« إننا نعتقد أنه من الخطورة أن نرسل بعض الشباب الى الشوارع لجذب أنصار جدد وتعريضهم لمواجهة الغرباء فهذه تعد مهمة خطيرة بالنسبة لشباب أمضى كل وقته فى الإعتكاف على دراسة التلمود ولا يعرفون شيئا عن العالم الخارجى. وعليه فان موقفنا مختلف تماماً، إذ نريد

أن نكون النور القادر على إجتذاب كل من ضلوا فى الظلمة ونحن نعتقد أننا اذا كنا على حق فى إيماننا وأقوياء فى ممارسة شعائرنا وواضحين فى تمسكنا بالسير على الصراط المستقيم، عندئذ سنكون مثل المنارة الوهاجة يشع نورها وتؤثر على اليهود وتحولهم إلينا، لقد أقامت طائفة ساتمار حولها أسوارا متينة كى لايغزوها العالم الخارجى، وحتى لا تشغلها مجريات المدنية الحديثة ولكن هذه الأسوار المحكمة لم تمنع إشعاع نورها. وهذا الموقف لا يثير الدهشة، فجميع الطوائف اليهودية لا تيسر الأمور لغير اليهود الراغبين فى اعتناق تلك الديانة وبالطبع هذا الأمر ينطبق علينا. فاذا أراد يهود آخرون أن ينضموا لطائفة « حاسيدى ساتمار » فنحن ننذرهم بأن هذه العملية ستكون بالغة الصعوبة.

والواقع أن نظرية الإنغلاق التى تحولت الى مذهب لم تكتف بعزل « الساتمار » داخل إطار روحانى فحسب بل أيضاً داخل إطار جسدى وجغرافى. وهكذا اقتصرت اللغة العبرية فى حى «ويليا مسبورج» على الدراسة والصلوات، وراح رجال الدين اليهودى الذين يسيرون داخل المبانى القديمة المبنية بالطوب الأحمر يرددون صلواتهم باليهودية. وفى مناطق أخرى أيضاً فى الأزقة المتربة بحى القدس الأرثوذوكسى أو فى حى انفيرذى الديكور الباروكى انعزل نفس الرجال فى رهبانية وهم مدركون بأنهم يمثلون جوهر تقاليد الدين اليهودى الأصيلة. وقد أوضح لى أحد شباب ساتمار نظريته فى عبارات موجزة قائلاً :

« نحن حراس سلامة النص دون تشويه أو تفسير » .

ومنذ انهيار أنظمة الحكم الشيوعية اكتشفت طائفة « حاسيدى ساتمار » هواية جديدة وهى اقناع الشعوب الروسية التى لجأت الى الولايات المتحدة بالعودة الى الدين. وتخلت عن اليهود الأمريكيين العصاة الذين تعذر اقناعهم بتعاليمها، ووجدت فريسة أسهل فى هذه الأسر المستضعفة بسبب السبى. وهكذا تقوم إحدى المدارس الإبتدائية فى بروكلين باستقبال بضع مئات من التلاميذ تلك العجينة الطيعة التى يشكلون منها جيش ساتمار المقبل. وتتولى هذه المهمة فئة كبيرة من عناصر طائفة ساتمار النشطة، ويجوب بعض المبعوثين الإتحاد السوفيتى السابق لاجتذاب البراعم الجديدة واقناع اليهود بعدم الذهاب الى الأرض الموعودة وينصحونهم بالتوجه الى أمريكا حيث سيجد أبناؤهم مدارس مخصصة لإعادتهم الى حظيرة العقيدة اليهودية الحقة. ويمتد هذا النشاط لانقاذ النفوس بصفة دورية ليشمل دولاً أخرى. فقد نجحت منظمات « ساتمار » فى اخراج بعض اليهود من ايران لنقلهم الى فيينا حيث كانت مدرسة كبيرة فى انتظار وصول الشبيبة وذلك قبل تهجيرهم الى أمريكا بصفة نهائية كما تقوم طائفة حاسيدى ساتمار بنفس النشاط أيضاً فى اليمن حيث يلقنون الجيل الجديد فى هذا البلد أفكاراً مناهضة للصهيونية بهدف اثنائهم عن الذهاب الى اسرائيل.

وجدير بالذكر أن حاسيدى ساتمار ركزوا ـ كما سبق أن شهدنا ـ على تلقين تعصبهم الدينى للنشء الصغير، ولم يهتموا باقناع بعض البالغين الذين أفسدتهم الحياة، والذين لن تكون عودتهم الى الدين سوى عودة فاترة. لقد كان كل اهتمامهم منصب على تشكيل عقول النشء.

ولقد كانوا وهم فى نضالهم المتواصل هذا ضد أعداء التوراة، على استعداد للتصدى لجميع سلطات العالم : فما قيمة عدالة البشر أمام العدالة الإلهية.

لقد نجحت شبكات حاسيدى ساتمار أكثر من مرة فى اخفاء أطفال قاموا بخطفهم من آبائهم الكفار وقد أدت أول وأشهر عمليات الإختطاف هذه الى تعبئة قوات أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية معا طوال عامين حتى تمكنت من العثور على أثر للطفل يوسيلى شوشماشير. فقد تم اخفاء هذا الصبى فى فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة قبل اخفائه أخيراً فى بروكلين.

وجدير بالذكر أن بطلة هذه القضية المؤلمة تدعى « روث بلو »، وهى فرنسية اعتنقت اليهودية وهى زوجة المعلم « أمران بلو » رئيس طائفة التاموزاى كارتا، الطائفة المعادية للصهيونية فى القدس والتى ترتبط ارتباطا ايدولوجياً وثيقاً بحاسيدى ساتمار. ونظر لأن آباء يوسيلى الذين وفدوا من الإتحاد السوفييتى ويقيمون فى اسرائيل لم يكونوا أورثوذوكسيين بالقدر الكافى الذى يروق لجد الطفل عن أمه فقد وافقت روث بلو على احضار هذا الطفل الذى يبلغ الثامنة من العمر وقد تخفت فى هيئة فتاة صغيرة عبر أوروبا وأمريكا. ألم يكن من المهم تربية الصبى وفقاً لمبادىء التوراة الصارمة؟

وانتشر الذعر فى المجتمع اليهودى. اذ لم يكن أحد حينذاك يتصور أن التعصب الدينى يمكن أن يصل الى حد حرمان طفل من أمه. وحاولت « روث بلو » عبثاً أن تضفى على عملية الإختطاف الدنيئة هذه ملامح العمل البطولى الذى يجمع بين البطولة والتضحية، الا أنها لم تجد لتأييد رأيها سوى مقالة فى صحيفة « جويش هيرالد » فى جوهانسبورج التى نشرت حينذاك تصريحاً لحاخام المدينة الذى يدعى « كوسوسكى » قال فيه : إذا كان الغرض هو انقاذ طفل حفاظاً على يهوديته، فليست هناك ريبة فى ذلك : ولم يخطىء « ناشمان ستراكس » الجد فيما فعل. فالمجتمع اليهودى مسئول عن السهر على اعطاء الطفل تربية مناسبة. ومع ذلك فقد سأل الصحفى الحاخام « كوسوسكى » عما اذا كان عمل الجد لا يتنافى مع الوصية التى تقول : أكرم أباك وأمك كاعظم الواجبات. فرد حاخام جنوب افريقيا على ذلك « بأن هناك فى هذه الحالة وصية أكثر أهمية وواجبا أهم هو طاعة الله ».

وهناك حادثة اختطاف أطفال آخرين تناولتها الصحف فى الآونة الآخيرة فقد قضت أجهزة المخابرات الأمريكية هذه المرة ستة أعوام حتى تمكنت من العثور على أطفال إمرأة بلجيكية غير يهودية أودعهم أبوهم فى احد الجماعات الخاصة بحاسيدى ساتمار فى الولايات المتحدة، وهذا الأب اسرائيلى الأصل استيقظ فجأة ليعتنق العقيدة اليهودية المتطرفة.

أما فى القدس فالأصولية اليهودية لها تاريخ قديم طويل. يرجع الى ما يزيد على قرن. ففى عام ١٨٧٤ لم تكن المدينة المقدسة سوى بلدة فى ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية. وخلف الحجارة البيضاء لأسوار معبد سليمان العظيم العالية ازدحمت أزقة السوق بجمهور متلاحم تفوح فوقه روائح التوابل. وبالقرب من مداخل دمشق وعلى بوابة احدى المبانى الكبيرة لفتت أنظار الزائرين لافتة كتب عليها باللغة الفرنسة : « فى نهر الأردن نبيذ طيب. وطعام طيب. فقد افتتح فى هذه الأماكن المقدسة، نزل مخصص للأوروبيين الذين كانوا يتوجهون باستمرار منذ بضعة أعوام الى فلسطين. واليوم ترسو بعض السفن كل أسبوع تقريباً فى مدينة يافا، وتفرغ تحت سفح القلعة أفواجاً من الأثرياء العاطلين الذين جاءوا ليعيشوا المغامرة الشرقية. وبعد أربع ساعات أو أقل تقلهم عربة تجرها الخيل فتقودهم إلى القدس. وكان رجال المستعمرات الذين غطوا رءوسهم بخوذات بيضاء والنساء اللاتى وضعن على رءوسهن وأكتافهن أغطية واسعة يشقون طريقهم عبر الأزقة الضيقة المرهقة والتى تمتد على هيئة بوابات يتسلل اليها بالكاد ضوء النهار من خلال فتحات صغيرة.

وازدادت اعداد الطائفة اليهودية فى القدس، وغالبيتها من الأورثوذوكس واشتدت صعوبة ايجاد مأوى للسكن خاصة الأسر كثيرة العدد مما دعا مجموعة صغيرة من المؤمنين إلى شراء أرض قاحلة شمال غرب تل المعبد فى هذه المرتفعات الجرداء المحيطة بالمدينة. ووضعت أخيراً أول حجرة فى تلك المستوطنة الجديدة، التى أطلق عليها إسم « مياشياريم » أى المائة باب، وهو تعبير مقتبس من سفر من التوراة قرىء خلال يوم السبت السابق معناها : « أن اسحاق زرع فى هذا البلد وحصد فى نفس العام مائة ضعف لأن الله كان قد باركه ». المائة ضعف تعنى . . . مياشياريم بالعبرية. وهو تعبير يعنى الثقة فى المستقبل، والمائة باب تعنى أيضاً المعابد العديدة التى تقرر اقامتها فى القريب فى هذه المنطقة الصحراوية.

وبعد ذلك بعام أقيمت سبعة منازل، وقد رويت الأسطورة التالية فى المجتمع الأورثوذكسى الصغير. ففى خلال الليلة الأولى وفى الوقت الذى بدأ فيه سكان مياشياريم الأتقياء يأوون إلى مساكنهم الجديدة، إذا بعقرب يلدغ أصبع طفل . وفى تلك الساعة المتأخرة من الليل كانت أبواب المدينة مغلقة وكان من المستحيل الإستعانة بأى طبيب. إلا أن المعلم « زلمان باحران » معلم تلك الطائفة الصغيرة والمهندس المعمارى لهذا المشروع تولى علاج الطفل وسهر على رعايته لعدة أيام.

وفى عام ١٩٠٠ كانت مستوطنة « مياشياريم » تضم مائة وعشرين مبنى، دورين للدراسة والعبادة، وبئرين وسبعة منازل للضيافة. وفى نفس الوقت بدأ بعض اليهود الأوروبيين ذوى السلوكيات الغريبة يقيمون فى فلسطين. فكانوا يسيرون عراة الرأس، لا يأكلون الكاشير (الطعام

الذى يطابق الشريعة اليـهودية)، ويتحدثون عن اقامة وطن قومـى لهم فى الأرض المقدسة. وذعر رجال الدين فى ميـاشياريم الملتزمين بالتـوراة والمنتظرين لمجىء المسيًا من هؤلاء الأخـوة اليهود ذى السلوكيات العصرية وأصبح الحى مركزاً لمكافحة الصهيونية، ومحور التصدى للتأثيرات العلمانية.

وفى عام ١٩٣٥ وتحت إمرة المعلم « امران بلو » تكونت فى مياشيـاريم أشد الفصائل تحمساً لمحاربة الصهـيونية، وهى فصـيلة ناتورى كارتا التى تعنى « حراس المدينة » باللغـة الآرامية. وهذا التعبير الجرىء مستـمد من درس أخـلاقى ورد فى التلمـود فى بـاب حجيجه ويقـول : إن المعـلم « يهودا لوبـريتس » طلب إلى معلمين آخـرين أن يجوبوا مـدن أرض اسرائيل وأن ينشروا تـعاليم التوراة. وقد وصل هـؤلاء الإرساليون إلى مكان ما ولم يجـدوا فيه معلمين، وطلبـوا أن يعرفوهم بحراس المدينة. فما كان منهم إلا أن أتو اليهم برجال الشرطة.

فقالوا : هل هؤلاء هم حراس المدينة ؟ إنهم مدمروها.

فسألوهم : من هم ـ إذن ـ حراس المدينة ؟

فأجابوهم : هم معلمو التوراة .

وجدير بالذكر أن حراس المدينة ـ وهو تفسير معاصر ـ قد جعلوا هدفهم مكافحة الصهيونية وجوهر وجـودهم، ويؤكد النشيد الذى تردده هذه الفـصيلة المتطرفة الصـغيرة عدم شرعـية الدولة اليهودية إذ يقول :

إن الله ملكنـا

ونحن عبيـــده

والتوراة شريعتنـــا

ونحن نخضع لوصاياه

وحكومة الزنادقة لا يعترف بها

أما الحكومة التى ستأتى مع مجىء المسيًا

فتلك هى التى سنعترف بها طبقاً لشريعة التوراة . .

إلا أن بساطة هذه الكلمات لا يجب أن تخدعنا فـعناصر الناتورى كارتا يمثلون أعنف صور معاداة الصـهيونية لدى اليـهود. وهذه الحفنة من المتطرفين وقـوامها ما بين خـمسمائة إلى سـتمائة شخص قـد ازدادت تحمساً خـاصة بعد موت المعلم « أمـران بلو » فى عام ١٩٧٤ حيث أصبـحوا يهيمون على وجوهم بلا مرشد. فلم ينجح أورى إبن أمران أبدا فى أن يكون له تأثير حقيقى على شراذم غير منظمة متناثرة تتصرف دون أية مشاورة حـقيقية. وقد ذهبوا بافكارهم المتطرفة حد المقت ولم يتردد بعضهم فى انتهاك حرمة مقابر بعض وجوه الحركة الصهيونية.

والواقع أن عناصر ناتورى كـارتا لم تصل دائما إلى هذا الحـد من التطرف إلا أنها واصلت بالإجمـاع التصرف بشكل يرمز الى رفـضها الدائم. فـقد طلب أعضاؤها فـيما مضى ربط حـيهم بالأردن وطالبـوا حكومة قـيينا إعطاءهم الجنسية النمساوية متـذرعين بأن أباطرة النمسا كانوا فيما مضى دوقـات القدس. وهم اليوم لا يشـتركون فى أية انتـخابات، ويرفضـون دفع أية ضرائب أو رسوم للدولة ويرفضون باشمئزاز الجنسية الإسرائيليـة. ويعتبر عيد استقلال اسرائيل فى نظرهم يوم حداد. فيبدون غارقين فى أحزانهم فى الوقت الذى تبدو فيه البلاد فى انشراح وابتهاج، فيصومون ويرفعـون الراية السـوداء على منازلهم. وحـيث ان دولة اسرائيل يجب ان تدمـر قبل مجىء المسـيًا وتطبيقاً لذلك المنطق الحتـمى فقد أيدوا وبصفة دائمة أشد مواقف منظمة التـحرير الفلسطينية تطرفاً واعتبروا العمليات الإرهـابية عمليات شرعية وكعقوبة عادلة ضـد الصهاينة. وهكذا أفصح حراس المدينة الذين تقـوقعوا داخل مـعقلهم بالقـدس عن تطلعهم الى قيـام دولة فلسطينية تخـلصهم فى النهاية من الأمة اليهودية.

وفى يوليـو عام ١٩٩٤ اسـتـقبل الحـاخام « موشـيه هيرش » وأحد عناصـر ناتورى كارتا ياسر عرفات بحرارة فى مدينة أريحا.

وقد صـرح لى « ابراهيم سليمان » مـدير وكالة الأنباء الفلسطينيـة « وفـا » قائلاً : « إن الحاخام هيرش والرئيس يلتقيان بانتظام وتوجد بينهما اتصالات وثيقة منذ أمد طويل قبل بدء عملية السلام بكثير ».

ويعتبر « موشـيه هيرش » بمثـابة مستشار لعـرفات « للشئون اليهودية » والحقيقة أن حاخام مياشـياريم الذى يؤيد كل اتفاق من شـأنه إضعاف السلطة اليهـودية فى الأرض المقدسة لا تعـتبره منظمة التحرير الفلسطينية بالطبع متطـرفاً. هكذا احكمت الحلقة : إذ التقت أعنف العناصر المعادية للصهيونية مع اليساريين من الآباء مؤسـسى الدولة الإسرائيلية. وذلك الى حين ظهور المسيًا لإعادة تنظيم الفوضى التى أحدثها البشر.

خاتمـــة

استشراف المستقبل بالعودة الى الماضى

منذ أربعة قرون فسر المعلم « يهودا لو » عالم الشريعة فى براغ مغزى الخبز بدون تخمير بأنه خبز الفقراء الذى يتناوله اليهود خلال فترة أعياد الفصح الثمانية. فقالَ فى تعليقه انه خبز يُصنع من دقيق غـير مـخلوط بعناصر أخـرى. وهذا الغذاء الذى يـرمز الى النقـاء يُذَكِّر المؤمن بأن مـصدر الخلاص يوجد فى رفض الخلط مع الإلتزام بالطهارة.

وبالطبع فـإن التـمسك بالنقـاء الدينى لا يقلق إلا أقلـية من بين يهـود العـالم الذين يبلغ تعدادهم ثلاثة عشر مـليون يهودى. بيد أن هذه الفئة المحدودة تمثل الجـانب البارز والمهم أيضاً فى المجتمع اليهودى، ذلك أنه خارج هذه النواة توجد جماعات غير مبالية.

ويعتقد حاييم موزيكانت مدير المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا أن العودة الى الدين الأصيل يؤثر على دائرة محدودة دون التأثير فى البيئة المحيطة.

فرغم تلك الـعودة إلى الإلتزام بالدين، ورغـم وضوح رؤية المجتـمع الدينى هذه يكفى أن ننظر الى عدد اليهـود الفاعلين بشكل أو بآخر مع الطائفة من خلال المدارس وحـركات الشباب أو المنظمات لكى نلاحظ أنه لم يحدث تزايد فى عدد هذه الجماعات المستهدفة. الأمر الذى يعنى اذن أن تحديد عدد اليهـود من خلال الهياكل التنظيمية لم يرتفع. وفى الـنهاية لم ينجح أحد فى تجاوز دائرة ما. وهو ما يعد بمثابة فشل تام للطائفة.

الواقع أن إندماج اليهود السريع فى المجتمع قد يجـعل منهم عما قريب « سلالة فى سبيلها إلى الزوال »، على حد تعبـير « افى بيكر » كاتب تقرير حول الزيادة السكانيـة لدى اليهود. وفى هذه البيئة المنحلة أيقنت الأورثوذكسية اليهـودية أنها تشكل آخر حصن لها فى مواجهة خطر ذوبان الشعب اليهودى.

وحيث إن المستـقبل يثير المخـاوف، فقد بدأ اليهـود يتمعنون فى ماضيـهم ويخلدون ذكرى أسطورية لينهلوا منها حقائق الغد، ان اسـتغلال طاقات الأجيال القادمة قد تقتـضى تقبل التغييرات الناجمـة عن حركة ديناميكيـة مدفوعة الى الأمـام. فهم يفضلون استـشراق المستقـبل بالعودة الى الماضى. وهكذا يجـد يهود الشـتات المحروم من التطـلعات عناصر مـريحة فى ذلك النـموذج من الإنغلاق المستمد من قديم العصور.

وفى أواخر هذا القرن الحافل بالإحباطات يبـدو اندثار الأيديولوجيات أوخم فى عواقبه من غروب وجه الله الذى ذُكِرَ فى الماضى. وهكـذا فى عصر أصبح للشك فيه قيـمة، فإن العودة الى

نظام مطلق للحقيقة لابد وأن يجد صدى مؤيداً لدى شباب تعوزه الحقائق. لذا انعزل اليهودى واتخذ لنفسه غطاء خاصا به. وتقوقع فى نظريات مطمئنة حيث توجد جميع الإجابات. ولم يعد فى حاجة الى الإبتكار والبحث خاصة وأن كل شىء متاح وسهل ومباشر. ويبدأ يرضخ طواعية لفرائض الطقوس العديدة لراحة باله فى هذا الفكر المنغلق. وهكذا وجدت الأورثوذكسية اليهودية المتطرفة سعادة فى أن تكون بمثابة الفيلق الطاهر المستعد لتكريس حياته للإلتزام بادق قيود الشريعة الإلهية، فى حين فضل العلمانيون الذين يخضعون لغرائزهم البشرية الطريق الأيسر .

وقال لى أحد اليهود الأورثوذكس : « إننى عندما أتواجد فى القدس أفضل أن أقيم يوم السبت فى حى منعزل ذلك اننى لا أتحمل فكرة أن أرى شقيقى اليهودى عبد شهواته عاجزاً عن تقنين علاقاته بالعالم ».

والحقيقة أنه عند سماع توصيات الدين المستقيم وارشاداته تبين بسهولة ما فى هذا التطبيق الصارم لأحكام الشريعة من يسر. وهكذا لا تكون هناك حاجة الى إجراء أى تغيير أو تعديل بيد البشر حيث إن العناية الإلهية ستتكفل وحدها بتغيير مجرى التاريخ ويتعين ـ إذن ـ فى هذه الأثناء الإكتفاء بتطبيق الوصايا.

وبنفس الطريقة تردد تلك الأورثوذوكسية أنه بدونها لتلاشى الشعب اليهودى منذ أمد بعيد وضاع فى خضم عمليات الإندماج والإنحراف وراء الأيديولوجيات المتعددة، بيد أن اليهودى ربما يؤدى رسالته فى الحقيقة خارج الجيتو. إنه بعد تحرره من عالمه المنغلق قد يمد العالم بقدر من حكمته وحضارته. لأنه إذا كان قد تحول الى جماعة غريبة ورافضة للتيارات الفكرية الكبرى التى هزت قرون الماضى، لما استطاع هذا الشعب اليهودى التماسك والإستمرار إلا بفضل انغلاقه وعداء الأمم له. فاذا كان قد نجا من خطر التحولات الحضارية الكبرى واستطاع أن يقدم لبنته لصرح الحضارة الإنسانية، فذلك لأنه نجح فى الإرتقاء الى أفق الإيمان السامية.

ومن ثم يتعين علينا أن نلاحظ أن التطرف اليهودى الدينى المطلق حتى فى أشد الأكاديميات التلمودية انغلاقاً لايزال ينحصر فى انطواء على الذات دون المساس بالآخرين على الإطلاق. وقد ساعدت فرصتان كبيرتان، الأولى هيكلية والأخرى تاريخية على حصر تجاوزات النظرية الأصولية فى أضيق الحدود. أولا لأن هذا التدين المطلق يقوم على التوراة والتلمود الذى تعد تعاليمه الأخلاقية وتكرارها المستمر مطلبا ملحا. ثم إن اليهود طوال مايقرب من ألفى عام لم يعرفوا أى استقلال ذاتى عسكرى، ولم تتح لهم بالتالى الإمكانية المادية لتشكيل قوة للغزو. فكان لابد لهذه الأقلية المضطهدة أن تتحصن خلف مبادىء أخلاقية مطلقة.

وللأسف فانه يكفى أن تعطى أولئك المؤمنين أرضاً، ويكفى ان تضع تحت تصرفهم أسلحة حتى يتحول بعضهم الى وطنيين متطرفين فيحاولون فرض وجودهم بالقوة. فهم على هدى الله

قادرون على اقتراف جميع التجاوزات بما أن مشاحناتنا البشرية التافهة لاتساوى شيئاً أمام المخطط الإلهى العظيم الذى لا يعرف أسراره ولا بواطنه سواهم. فان كانت تقاليد الدين اليهودى قد تناقلت عبر العصور نموذجا أخلاقياً فان العنف أيضاً قد شكل جزءاً من تاريخها. ألم تتعلم من التوراة أن الإستيلاء على أرض الميعاد قد تحقق بالحرب وأن الملك داود قد أرهق أرواحاً حفاظاً على مصالحه ؟ وبناء عليه من الوارد ان يتخذ التطرف أشكالاً عدوانية فى اسرائيل بعد استعادتها لسيادتها.

والواقع أن التحدى الكبير للعقيدة اليهودية الحالية فى القرن الحادى والعشرين سيكون ـ اذن ـ بالنجاح فى التوصل الى صورة مبتكرة للمستقبل مع الإستمرار فى التمسك بالماضى. فلا بد فى الشتات من إعطاء مضمون لتلك الهوية التى فقدت جميع سماتها بسبب التغييرات التى طرأت على المجتمع. فما جدوى التقاليد الدينية اليهودية التى تمخضت عن الإنغلاق؟ ليس مؤكداً ان حاسيديم لوبافيتش حين يشعلون شمعداناً ضخماً فى ميدان الروكاد يروا أنهم يملأون فراغ هويتهم، إنما هم يستبدلون التقاليد اليهودية المتفاعلة القديمة بعقيدة يهودية مظهرية لا تحل شيئاً. والواقع أنه فى أى مجتمع متسامح من السهل إضافة العلاقات الخارجية الى علامات خارجية أخرى دون التعرض لأية مخاطر.

وجدير بالذكر أن اليهود الأرثوذكس فى فرنسا أكثر اهتماماً فى الوقت الراهن بمضاعفة رموز الإنغلاق عن إيجاد تقاليد دينية يهودية مفتوحة على المدينة. وهم بصفة عامة لا يعبأون بدولة اسرائيل، ويدعون بفخر أنهم خلفاء الطوائف اليهودية التى اختفت فى الشتات ويحلمون صراحة بتلك المجتمعات المنغلقة (الجيتو) القديمة التى لاتتأثر باغراءات العالم العلمانى الخارجى حتى وإن كانوا على اتصال رغماً عن انفسهم بالعالم الخارجى ويتميزون عن الواقع المحيط بهم، إلا انه لا يمكن أن يتشبهوا بالحاسيديم (الورعين الذين يعيشون فى مخافة الله) الذين شبوا فى بيئة منغلقة داخل اسرائيل.

وتجدر الإشارة إلى أن انتخاب بنيامين نتنياهو فى إسرائيل يرجع بالطبع الى عدة أسباب، إلا أنه يثبت بصفة خاصة كيف تستطيع شريحة من المجتمع ان تتقوقع خلف قيم هشة، فالخوف من أن تصبح إسرائيل « دولة مثل غيرها من الدول » ـ وهو ماكرره الصهاينة المتدينون ـ مسألة غير منطقية أيضاً مثل انغلاق المناهضين للصهيونية فى عالمهم ليحموا أنفسهم من المؤثرات الخارجية. نما هو ذلك الشعب وتلك الدولة اللذان عليهما أو يريدان أن يفخرا بأنهما مثل أو أكثر من الشعوب أو الدول ؟ فجميع الشعوب لها تاريخها وخصائصها المميزة وكذلك الدول، وبالتالى فالقدر هو الذى يحدد مصيرها. وبالطبع كل الموازين قد تنقلب اذا سلمنا بأن يد الله، ومجىء المسيا المنتظر هما فوق أية مغامرة بشرية، ذلك ان التجاوزات فى هذه الحالة يمكن تبريرها بتدخل قوة العلى. الواقع

ان اليهود الأورثوذوكس فى إسرائيل قد ازدادوا تمسكاً بمهمتهم من أجل الخلاص بسبب الهوة التى نشأت بين المؤمنين والعلمانيين بعد حرب الأيام الستة. فالمتدينون ينصبون أنفسهم منذ الآن فصاعداً الحراس الوحيدين للتراث وجيوش المؤمنين الوحيدين. وقد كتب « ابراهام رافيتزكى » الأستاذ الأورثوذوكسى بجامعة القدس العبرية يقول : إنه قبل عام ١٩٦٧ كان الصهاينة العلمانيون هم أصحاب السلطة، وكانوا يشكلون الطبقة السياسية الحاكمة، وكانوا يترأسون قيادات الجيش. أما الأورثوذوكس فكانوا حراس الشريعة والتوراة . . . بيد أن الإستيلاء على السور الغربى جعل من المتدينين حملة رايات الصهيونية التى كفلت استمراريتها مستوطنات المتدينين فى الأراضى. .

والواقع أن انتصار اليمين فى الوقت الحالى قد طمأن الوطنيين الإسرائيليين ذلك أن معضلة التفكك لم تعد تؤثر على مستوطنات يهودا والسامرة كما أن معظم الأورثوذوكس شعروا بالإرتياح فى هذا العهد السابق للمسيانية الذى نلمس فيه احتفاظ السلطة اليهودية بالأراضى التوراتية والذى يؤكد بوشوك نهاية الأزمنة واقتراب موعد الخلاص.

ولكن ماذا بعد ذلك ؟ فعندما يفرغ نتنياهو من كل مواقف الرفض الرمزية، وعندما ستحمله الواقعية الأمريكية وضغوطها على مواصلة عملية السلام فعلاً، عندئذ ستشتد خيبة أمل الوطنيين ويزداد إحباط الأورثوذوكس وستصير ردود أفعالهم أشد عنفاً. ولن يستوقف شيئاً أولئك الذين يعتقدون أن الله نفسه يشجعهم على العصيان المدنى، فهم يعرفون كيف يجدون فى التقاليد اليهودية تبريراً لشطحاتهم. ألم يصرح ابن ميمونة حكيم القرن الثانى عشر العظيم أنه يتعين على المؤمن اذا أصدر أى ملك فى اسرائيل أمراً مخالفاً للشرائع ان يرفض تطبيقه ؟

وجدير بالذكر أن الخطر شديد خاصة وأن إحدى الظواهر المميزة للمتطرفين اليهود فى إسرائيل هو فيما يبدو قدرتهم الجديدة على الإندماج. وباستثناء التيارات القليلة الأخيرة الثائرة مثل تيار الحاسيديم فى ساتمار وطائفة تاتورى كارتا، فيبدو أن التيارات الأورثوذوكسية الأخرى قد سلكت طرقاً سوف تقودها مستقبلاً الى ساحة مشتركة. وقد بدا هذا الطريق الجديد مفتوح من خلال الرسالة المسيانية التى تبناها بصفة عامة الأورثوذوكس من كافة المشارب، ففى الوقت الذى يمثل حاسيد يولوبافيتش الحركة التى تعلن بقوة قرب مجيء المسيًا، انتشر هذا الرأى فى معظم دور العبادة اليهودية. وحيث أن المنقذ قد أوشك على التجلى فانه يمكن تبرير جميع التناقضات الظاهرة خاصة وانها تريد تهيئة العالم والأرض المقدسة لاستقبال المسيًا القادم من عند الرب.

هذا وقد أعيد النظر أيضاً فى نظريات الحاريديم فى إطار أدنى حد من الواقعية. ولا تزال الأجيال الجديدة تعارض الصهيونية السياسية حيث تجد فيها تعبيراً بشعاً لمعاداة الدين، بيد أنها لا تعارض وجود الدولة الإسرائيلية بصفة كلية. وحتى فى مدينة بنيه بزاك، هذه المدينة المتدينة التى تقع على مشارف تل أبيب يؤدى بعض الأساتذة الخدمة العسكرية، ويتباهى تلاميذهم ببطولة هؤلاء الجنود الأورثوذوكس.

ومن جانبها تطبق أكثر اتجاهات الصهيونية الدينية تشدداً النموذج اللقوانى المنغلق ذا القيم العالمية حتى يتسنى لها أن تتقوقع فى معتقداتها، فقد ادارت ظهرها للديناميكية المجددة للصهاينة المتدينين مطلع هذا القرن والعقود الأولى لقيام دولة اسرائيل، مما استلزم ابتكار فكر يهودى جرىء يتفق مع التحولات التاريخية الكبرى، وبلوغ أصالة زائفة، والتشدد فى رفض كل ما لا يتفق مع النموذج المثالى، ورفض المؤثرات التى تدنس الطهارة الأصلية للديانة اليهودية. وقد نجحت تلك الصورة المتطرفة فى اثبات وجودها فى بعض الأحياء شديدة الإنغلاق فى بروكلين بيد أنها لم تشهد تطوراً حقيقياً إلا فى إسرائيل، سواء فى القطاعات الأورثوذوكسية المتطرفة المعادية للصهيونية أو فى المستوطنات المتدينة فى يهودا والسامرة.

والغريب ـ اذن ـ أن فلسفة الانغلاق لا تزال تطبق بسهولة فى اسرائيل. فقد صمم المتطرفون على اقامة حضارة يهودية متشددة وانغلقوا فى عالم وهمى. فهم على سبيل المثال يرفضون مراعاة التقويم المدنى والإعتراف به، ويحسبون الأيام والشهور والأعوام وفقاً للتقويم التوراتى القديم ولا شك أن عقلية هؤلاء المنغلقين لا تزال مستمرة بسبب الرؤية المتشائمة السائدة بصدد مصير يهود الشتات، فالأورثوذكس يؤمنون بالإجماع بأن الديانة اليهودية فى اسرائيل ستنتهى فى مدى قصير بسبب الإندماج وكذلك معاداة السامية ولن يتبقى فيها إلا جماعات من المتدينين المعزولين. فهم لا يزالون حاملى الأمانة الغيورين على طهارة الدين اليهودى، ولن تفلح أية قوة بشرية فى أن توقف تلك المسيرة نحو أزمنة المسيانية.



١٩٩٩

مطابع الهيئة العامة للاستعلامات